انتشارات بین المللی المصطفی (ص)
وابسته به جامعة المصطفی (ص) العالمیة

دروس في الشيعة والتشيّع

علي الرباني الگلپايگاني

تعريب: أنور الرصافي



بسم الله الرحمن الرحيم

٤٩

مكتب التخطيط
وتقنية التعليم

دروس في الشيعة والتشيّع

على الرباني الگلپايگاني

تعريب: أنوار الرصافي

انتشارات بين المللی المصطفی
وابسته به جامعة المصطفی العالمية

ربانی گلپایگانی، علی، ۱۳۳۴-
دروس في الشّيعة والتّشيع /المؤلف علي الرّباني الگلپايگاني ؛تعريب انور الرصافي ؛ [للجامعة المصطفی ﷺ العالمية، مكتب التخطيط و تقنية التّعليم] .ـ قم: جامعة المصطفی ﷺ العالمية، ۱۴۳۰ق. = ۱۳۸۸.
۲۸۲ص .ـ(مكتب التخطيط و تقنية التعليم؛ ۴۹)
ISBN 987 - 964 - 7741 - 85 - 9 ۳۵۰۰۰ریال
فهرست‌نویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عنوان اصلی: درآمدی بر شیعه‌شناسی.
عربی.
کتاب‌نامه: ص . [۲۷۹]-۲۸۲؛همچنین به صورت زیرنویس.
۱.شیعه امامیه-عقاید. ۲.شیعه امامیه-اصول دین . ۳.شیعه-تاریخ. الف.رصافی، انور، مترجم. ب.جامعة المصطفی ﷺ العالمية. ج.جامعة المصطفی ﷺ العالمية.دفتر برنامه‌ریزی و فن‌آوری آموزشی. د.عنوان. ه.عنوان: درآمدی بر شیعه‌شناسی.
BP ۲۱۱/۵/ر۲د۴۰۴۳ ۲۹۷/۴۱۷۲

دروس في الشيعة والتشيّع
المؤلف: علي الرباني الگلپايگاني
تعريب: أنوار الرصافي
الطبعة الثانية: ١٤٣٠ق / ١٣٨٨ش
الناشر: منشورات جامعة المصطفی ﷺ العالمية
الإخراج الفنّي: السيد محمد عمادي المجد
المطبعة: اميران ● السّعر: ٣٥٠٠٠ ريال ● عدد الطبع: ٤٠٠٠ نسخه

التوزيع:
● قم، شارع بهار، قرب هتل الزّهراء ؑ، منشورات جامعة المصطفی ﷺ العالمية.
هاتف - فكس: ۷۷۴۹۸۷۵ ۰۲۵۱
● قم، بلوار محمدالأمين، تقاطع سالاريه، جنب جامعة العلوم، منشورات جامعة المصطفی ﷺ العالمية. هاتف - فكس: ۲۱۳۳۱۰۴ ۰۲۵۱
www.miup.ir,www.cshop.miup.ir
E-mail: admin@miup.ir,Root@miup.ir

كلمة الناشر

لا شك ان وضع مناهج دراسية ذات فاعلية ومرونة لا يتيسّر إلاّ اذا كانت بمستوىٰ تطلّعات الحياة الحديثة والتطورات الهائلة التي شهدها العلم في فروع المعرفة لا سيما في حقل المعلومات والثورة المعلوماتية والتي بدأت تجتاح كافّة مناحي الحياة وتلحّ علىٰ ضرورة وضع مناهج دراسية عصرية واعداد متخصّصين.

وفي الاطار ذاته فقد ادّىٰ ذيوع الثقافة السلطوية في العالم والعولمة الثقافية من قبل وسائل الاعلام المرئية وغير المرئية الىٰ ظهور مستجدات وشبهات حادّة وعالقة لا يمكن اجهاضها الا من خلال انشاء مراكز تعليمية تأخذ علىٰ عاتقها وضع مناهج دراسية عصرية وتجنيد الطاقات العلمية في سبيل نشر افكار ايجابية بنّاءة وقيم متعالية باسلوب حديث بغية تحصين عقائد المسلمين من الانهيار امام تلك الشبهات.

إن انتعاش هذه المراكز رهن نظام تعليمي دقيق وثابت ومجرّب، وتشكّل البرامج التعليمية والمناهج الدراسية والأساتذة، عموده الفقري.

إن فاعلية البرامج التعليمية تكمن في تجاوبها مع متطلّبات العصر، وتوافر الإمكانات، ومؤهّلات الطلّاب. كما أن تقويم المناهج الدراسية يعتمد الىٰ حدّ كبير علىٰ طرحها لآخر المنجزات العلمية بأحدث الأساليب المتّبعة في التربية والتعليم.

هذه المراكز بحاجة الىٰ تقويم دائم، وإعادة نظر في مناهجها الدراسية، وتجديدها بأرقىٰ الأساليب ووفق آخر ما وصلت إليه التقنيات العلمية، بغية الحفاظ علىٰ مستوىٰ نشاطها العلمي.

إنّ حوزات العلوم الدينية التي تقع علىٰ عاتقها مهمّة إعداد علماء الدين

ونشر المبادئ الإسلامية، غير مستثناة من هذه القاعدة باعتبارها من مؤسّسات التعليم الديني.

ومن حسن الحظ، فإنّ الحوزات العلمية ـ وببركة الثورة الإسلامية ـ أخذت منذ سنوات عدّة تفكّر جدّياً في إصلاح نظامها التعليمي، وتجديد النظر في مناهجها الدراسية.

وانطلاقاً من الشعور بالمسؤولية، قامت جامعة المصطفى ﷺ العالمية ـ التي تمثّل جزءاً من هذه المجموعة، وتضطلع بمهمة تعليم الطلّاب غير الإيرانيين ـ قبل غيرها من سائر المؤسّسات التابعة للحوزة بإنشاء «مكتب التخطيط وتقنية التعليم».

هذا المكتب مع تثمينه للجهود المضنية التي بذلها العلماء في سبيل التجاوب مع هذه الحاجة واقتطافه ثمار نتاجاتهم العلمية، سعى الىٰ تنظيم المناهج الدراسية وفق برامج جديدة مستوحاة من الأساليب التعليمية المعتمدة علىٰ آخر المنجزات العلمية.

وقد أُنجزت حتى الآن ـ بفضل همّة وإرادة الباحثين وفضلاء الحوزة ـ الخطوات الأولى لهذا المشروع من خلال تأليف ما يربو علىٰ مائة كتاب دراسي في مجالات العلوم الدينية ـ الإنسانية المختلفة.

والكتاب الذي بين يديك دروس في الشّيعة والتّشيّع يمثّل أحد النماذج المختارة من هذه الكتب، وهو يُعنىٰ بالبحث حول الشّيعة ومبدأ نشوؤه و....

ويُعدّ هذا الكتاب خطوة راسخة علىٰ هذا الطريق، وجهداً يستحق التقدير بذله العالم المتضلع حجة الإسلام والمسلمين علي الرّباني الگلپايگاني، وترجمه الى العربية الاستاذ انور الرصافي، فشكراً متواصلاً لهما ولجميع الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل.

و في الختام لابدّ من القول: إن أيّ عمل لا يكاد يخلو في بداياته من زلّات وهفوات ولذا فاننا نتطلّع الىٰ أصحاب العلم والفضيلة الذين نأمل أن لا يضنّوا علينا بآرائهم الصائبة، فهذا التطلع هو مهماز شروعنا في العمل، ومبعث أملنا بمستقبل زاهر.

جامعة المصطفى ﷺ العالمية
مكتب التخطيط وتقنية التعليم
١٤٣٠ق / ١٣٨٨ش

الفهرس

الباب الثاني: التوحيد والعدل

الباب الثالث: النبوة والامامة

الباب الخامس: عدة فروع فقهية

المقدّمة

لدىٰ مطالعة تاريخ الأديان بوجه عام وتاريخ الأديان السماوية بوجه خاص، تتجلّىٰ هذه الحقيقة، وهي: أنّ الأديان قد طرحت ـ منذُ ظهورها ـ سلسلة من الأصول المباني والأحكام والآداب الخاصّة، التي استقطبت أنصاراً التفّوا حولها، حتّىٰ غَدَوْا أمّة واحدة وموحّدة ماضية في حياتها الاجتماعية، بيْد أن هذه الأديان انقسمت ـ لعلل وأسباب شتّىٰ ـ بعد مُضيّ فترة من الزمن إلىٰ فِرَق ونِحَل ذات عقائد وآداب مختلفة.

والأمّة الإسلامية لم تُستثنَ من هذه الظاهرة التاريخية، فبعدَ ارتحال النبي الأكرمﷺ إلى الرفيق الأعلىٰ ظهرت فرق ونحل ومذاهب متعدّدة، ووافق ذلك الحديث الذي رُوي عنهﷺ والقائل بأنّ أمته ستفترق إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة.[1]

ولا شكّ في أن الخلافات اتخذت في البداية شكلاً محدوداً ثمّ اتّسعت أبعادها شيئاً فشيئاً، كما أنّ الخلافات التي حدثت في المسائل الدينية لم يكن جميعها مُنطَلَقاً لنشوء الفرق والنحل، وإنما فقط تلك التي تتعلّق بالمسائل المهمّة سواء في مجال العقيدة أو الشريعة، كالخلاف في توحيد الذات والصفات، وفي مسائل النبوة والإمامة، أو في مناهج تفسير القرآن وفهمه، وفي طرق تلقّي السنّة النبوية، ونظائر ذلك.

---

١. روي عن النبيﷺ انه قال: افترقت اليهود علىٰ احدىٰ او اثنتين وسبعين فرقة وافترقت النصارىٰ علىٰ احدىٰ او اثنتين وسبعين فرقة وتفترق امّتي على ثلاث وسبعين فرقة.[راجع: لمزيد من الاطّلاع علىٰ سند ومتن الرواية: الفرق بين الفرق، ص ٤ ـ ٩، بحوث في الملل والنحل، ج ١، ص ٢١ ـ ٤٠].

وعلىٰ هذا الأساس ظهرت فِرَق المُشبِّهة، والمؤوِّلة، والصفاتية، والعدلية، والقَدَرية، والجَبْريّة، والمفوِّضة، والمُرجئة، والوعيدية، والتفضيلية، والحشوية، والسَّلَفية، وغيرها.

وتعتبر قضيّة الإمامة والخلافة من أهمّ القضايا التـي نشب بسـببها الخـلاف فـي أوساط الأمّة الإسلامية،[١] منذُ اللحظات الأولىٰ لوفاة النبيﷺ، واستمرّ إلىٰ يومنا هذا، ويتمحور الخلاف حول تعيين الخليفة بعد النبيﷺ والذي تُخوَّل إليه مهام الزعـامة الدينية والسياسية للأمَّة الإسلامية، وكيفيّة تعيينه.

فقد ذهبت جـماعة إلىٰ أن خـليفة النـبي الأكـرمﷺ يـجب أن يـتحلّىٰ بـنفس صفات خصوصيات النبيﷺ، كما ينبغي أن يكون ـ بالإضافة إلىٰ عصمته ـ أفـضل الصحابة علماً وعملاً.

وبما أنّ تشخيص هذه المواصفات ليس في متناول غير المعصوم، فإن ذلك يفرض على النبيﷺ النصّ على الخليفة من بعده، وقد حصل هذا فعلاً حينما نصب علياًؑ خليفة وإماماً للمسلمين من بعده، وأطلق علىٰ هذه الجماعة التي تؤمن بالنص اسم الشيعة، وفي مقابل ذلك رأىٰ آخرون عدم ضرورة توفّر صفات النبيﷺ لدى الخليفة، وأنكروا تعيين الإمام والنصَّ عليه من قبل النبيﷺ.

وقالوا بأنهﷺ ترك مصير هذه المسألة بأيدي المسلمين واختيارهم، وقد أَطـلق علىٰ هؤلاء اسم أهل السنة، على الرغم من أنّ لهم أسماءً أخرىٰ مختلفة تدلّ عـلىٰ اختلافهم في مسائل دينية مهمة أخرىٰ، بل أنّ ثَمّة خلاف يسود بينهم في تعيين الفرقة الجديرة بهذا الاسم،[٢] كما أن الخلاف بين الشيعة قد برز في مسألة الإمامة، الأمر الذي أفضىٰ إلى انقسامهم إلىٰ فرق مختلفة.[٣]

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ من جاء بعد النبيﷺ بعنوان خليفة، وتسلّم مـقاليد الحكم الإسلامي لا سيّما الزعامة والقيادة الإسلامية لم يكن متّصفاً بـالصفات التـي

---

١. يقول الشهرستاني: أعظم خلاف بين الأمّة، خلاف الإمامة، إذ ماسُلّ سيف فـي الإسـلام عـلىٰ قاعدة دينية، مثل ما سُلّ على الإمامة في كل زمان، الملل والنحل، ج ١، ص ٢٤.
٢. راجع: الكلام المقارن، للاطّلاع على التعبيرات المختلفة لاصطلاح أهل السنة.
٣. راجع في هذا الصدد: كتاب فرق الشيعة.

تحظىٰ بقبول الشيعة، ممّا جرّده ـ في نظرهم ـ من آية شرعية دينية، وقد انعكس هذا علىٰ موقفه منهم وعلىٰ طبيعة العلاقات التي كانت تسود بينه وبينهم والتي لم تتسم بالودّ والمحبّة، بل كانت مشوبة بالتوتّر والعنف.

ويتّضح هذا الموقف أكثر في عهد الأمويين والعباسيين. وثمّة شواهد تدل على ذلك، نجدها مبثوثة في كتب التاريخ، حيث عانى الشيعة خلال ذلك أوضاعاً سياسيةاقتصادية صعبة للغاية، وأُثيرت حول عقائدهم التُهم والافتراءات، حتّىٰ بلغت درجة اتُّهموا فيها بالخروج عن الدين، وبمحاولة طمس معالم الإسلام واستئصال جذوره.

وقد كشفت الدراسات الموضوعية عن الحقيقة التالية، وهي أنّ عقائد الشيعة نابعة من صميم الكتاب والسنّة، وأنّ حجر الأساس للتشيّع قد تمّ وضعه بيد النبيّ ﷺ، وهو الذي أطلق عليهم هذه التسمية.

وبأخذ هذه النكات بنظر الاعتبار، لا يبقىٰ مجال للشك في ضرورة البحثالتحقيق الموضوعي حول تاريخ الشيعة وعقائدهم، وقد نهض كبار مفكري الشيعة في الماضي بهذا العبء الثقيل ضمن أبحاث مستقلّة، أو ضمن أبحاث تاريخية وعقائدية، ودوّنت آثار قيّمة في هذا الصدد، ولا يعني هذا إيصاد باب البحث والتحقيق في هذا المجال، نظراً لاختلاف الشرائط والظروف الثقافية والاجتماعية التي تتطلّب القيام بالبحث والتحقيق المناسبين لتلك الظروف والشرائط، وبالتأكيد فإنّ سير البحث جارٍ دون انقطاع.

انّ العناوين والموضوعات التي يتعيّن بحثها عن مذهب التشيّع هي كالتالي:

١. ما هو المعنى الدقيق للشيعة والتشيّع؟

٢. كيف نشأت الشيعة، ومتىٰ؟

٣. ما هي فِرَق الشيعة؟

٤. ما هي التحوّلات التي مرّت بها الشيعة عبر التاريخ؟

٥. من هم أئمّة الشيعة، وما هي أوصافهم وخصوصياتهم؟

٦. ما هي الشخصيّات الشيعيّة البارزة في مجال العلوم والمعارف الإسلامية؟

٧. ماهو دور الشيعة في إثراء الثقافة والحضارة الإسلامية؟

٨. ما هي مصادر ومنابع الفكر الشيعي في الأصول والفروع؟
٩. ما هي عقيدة الشيعة في أصول الدين؟
١٠. ما هي آراء الشيعة في مجال الفروع؟

ومن الواضح أنّ تفصيل البحث في مثل هذه الموضوعات يحتاج إلىٰ تأليف مجلدات ضخمة، وإلىٰ جهود جماعية لا فردية.

والكتاب الماثل بين يديك، دوّن بهدف تدريسه في المعاهد الدينية، ولذا لا نتوقّع منه الإجابة عن جميع التساؤلات المثارة، بل أنّ توقّعَ الإجابة عن بعضها بنحو مسهب ومعالجة جميع أبعادها وزواياها توقّع غير معقول وغير منطقي بالمرّة.

وبناءاً على ذلك ومع ملاحظة الأولويات وأخذها بنظر الاعتبار، نشير إلى النقاط التالية:

الأولىٰ: الإعراض عن تناول بعض الموضوعات المذكورة آنفاً، نظير الموضوع ٥، ٦ و٧.

الثانية: بيان سائر الموضوعات بنحو مختصر، ومن المسائل التي سنوليها اهتماماً اكبر: تاريخ نشأة التشيّع، والآراء والنظريات غير الصائبة المطروحة في هذا المجال ومحاولة نقدها، إضافة الىٰ مباحث الإمامة لا سيما عصمة الإمام، والنصوص الدالّة على الإمامة.

جدير بالذكر أنّنا سوف نتناول هاتين المسألتين (العصمة والنصّ) ضمن بحثين، أحدهما: ضرورة عصمة الإمام ولزوم النصّ عليه، وثانيهما: إثبات عصمة أئمة أهل البيت عليهم السلام والنصّ علىٰ إمامتهم.

والمبحث الأوّل يتعلّق بالإمامة العامة، في حين يتعلّق المبحث الثاني بالإمامة الخاصة.

وسوف نورد المباحث التي تتّصل بهاتين المسألتين في مناسبات مختلفة حسبما يسمح به المجال.

ونُلفت نظر الأساتذة الكرام إلىٰ أنّ تدريس هذا الكتاب برمّته في فصلين أو ثلاثة فصول دراسية أمر غير محبّذ وبعيد المنال، ولذا يلزم من جهة العناية ببعض المواضيع التي تتناسب مع هذه المادّة الدراسية، ومن جهة أخرىٰ ينبغي الاهتمام ببعض المواضيع التي قلّما تُسلّط الأضواء عليها قبل أو بعد هذه المرحلة الدراسية نظير تاريخ

التشيّعنشأته ومباحث الإمامة، ومن جهة ثالثة يستحسن إحالة مطالعة الجانب التاريخي لبعض الأبحاث إلى الطلّاب الأعزّاء، والاقتصار على جانبها التحليلي، وعلى أيّة حال، فإنّ هذا الكتاب الماثل بين يديك، لا يمكنه أن يغضّ الطرف عن أمّهات مباحث الفكر الشيعي في الأصول والفروع لا سيّما المسائل التي انفردت بها الشيعة والتي أثيرت حولها الشبهات، باعتبارها شبهات عقائدية استهدفت تشويه وجه التشيّع، إعطاء صورة غير واقعية أو غير شرعية عنه.

وقد خضعت دروس هذا الكتاب لتجربة الأساتذة القائمين بالتدريس، وأبدوا ـ مشكورين ـ آراءهم ومقترحاتهم في هذا الخصوص، وبعد مراجعتها والتسليم بجملة منها، استقرّ الرأي على إجراء تغيير جذري لبعض المباحث وإعادة صياغتها من جديد، ونقل بعض المطالب إلىٰ ما يناسبها من عناوين، وتنقيح مصادر البحث ومراجعتها كمّاً وكيفاً.

ولا يسعني في هذا المقام إلّا أن أُقدّم لهم شكري الوافر، راجياً من الباحثين أن يتحفوني بآرائهم الصائبة ونظراتهم السديدة.

وفي الختام، يطيب لي أن أزجي فائق تقديري وخالص شكري لمعاونية التعليم في الجامعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم العالمية، ولمدير مكتب التخطيط وتقنية التعليم، سائر الأعزّاء، سائلاً المولىٰ جَلّ شأنه أن يمدّهم بالتوفيق والسداد في سبيل نشر معارف التشيّع الأصيلة.

وآخر دعوانا أن الحمدلله ربّ العالمين.

علي الربّاني الگلپايگاني

٢٧ محرم الحرام ١٤٢٤ق / ١١ فروردين ١٣٨٢ش

الباب الأوّل

مباحث عامة

١
تعريفُ الشّيعَة وفِرَقُها

الشيعة في اللغة

الشيعة في اللغة، هي اتّباع شخص أو قوم لآخر ونصرته، أو هي الموافقة والاتفاق قولاً وعملاً. وإليك بعض ما ورد في كتب اللغة في هذا الشأن:

١. القاموس: شيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، والفرقة علىٰ حدة، ويقع على الواحدالاثنين، والجمع والمذكّر والمؤنّث.[١]

٢. لسان العرب: الشيعة: القوم الذين يجتمعون على الأمر، وكل قوم اجتمعوا علىٰ أمر فهم شيعة، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شِيَع.[٢]

٣. معجم المقاييس: الشين والياء والعين أصلان يدل أحدهما علىٰ معاضدة ومساعفة والآخر علىٰ بثّ واشادة... والشيعة: الأنصار والأعوان.[٣]

٤. المصباح المنير: الشيعة: الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا علىٰ أمر فهم شيعة.[٤]

٥. أقرب الموارد: شيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، شيع وأشياع.[٥]

١. القاموس المحيط، ج ٣، ص ٤٧، مادّة شاع
٢. لسان الميزان، ج ١، ص ٥٥، مادّة شيع
٣. معجم مقاييس اللغة، ص ٥٤٥، مادّة شيع
٤. المصباح المنير، ج ١، ص ٣٩٨
٥. أقرب الموارد، ج ١، ص ٦٢٦

٦. النهاية: أصلها من المشايعة، وهي المتابعة والمطاوعة.[١]

التأمّل في النصوص المذكورة، يرشدنا إلى أن ثمة ثلاثة عناصر اعتُبرت في المعنىٰ اللغوي للشيعة بنحو مانعة الخلو، وهي:

أ) الطاعة والاتباع؛

ب) النصرة والعون؛

ج) الموافقة والاتفاق.

وجاء استعمال الشيعة ومشتقّاتها (الشيع والأشياع) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، أي بمعنىٰ قوم اجتمعوا على اتباع دين أو منهج خاص، أو اتباع بعضهم لبعض، نظير ما ورد في اقتتال رجل من بني اسرائيل ـ عبرّ عنه القرآن بأنه من شيعة موسىٰ ـ مع قبطي، قال تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[٢] معنىٰ هذا أنّ أحدهما كان إسرائيلياً من أتباع موسىٰ في دينه ـ فإنّ بني اسرائيل كانوا ينتسبون يومئذٍ إلىٰ آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب في دينهم، وإن كان لم يبقَ لهم منه إلا الاسم، وكانوا يتظاهرون بعبادة فرعون ـ والآخر كان قبطياً عدوّاً له، لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل.[٣]

وقال في شأن ابراهيم: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾.[٤] كان ابراهيم من شيعة نوح، أي أنه علىٰ منهاجه وسنّته في التوحيد والعدل واتباع الحق.[٥] وليس المراد أنّ أحدهما يتبع الآخر بنحو تبعية المأموم للإمام والمقُود للقائد. بل المراد أنّ كل من وافق غيره في طريقته فهو من شيعته، تقدّم أو تأخّر.[٦] كما أن القرآن المجيد عدّ ـ أحياناً ـ السابقين شيعة للمتأخّرين، قال تعالىٰ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.[٧] فالآية الكريمة وَصَفَتْ كفّار الأمم الغابرة بأنهم أشياع كفّار عصر الرسالة،المراد الموافقة والمشاكلة في الكفر والإلحاد.

١. ابن الأثير، النهاية، ج ٢، ص ٥١٩
٢. القصص، ١٥
٣. الميزان، ج ١٦، ص ١٧
٤. الصافّات، ٨٣
٥. مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٤٩
٦. الميزان، ج ١٧، ص ١٤٧
٧. سبا، ٥٤

الشيعة في الاصطلاح

للشيعة اصطلاحاً، استعمالات مختلفة، هي:

١. الاعتقاد بإمامة أميرالمؤمنين﵇ بلافصل، لأنه أفضل الصحابة، ولأنّ النبيﷺ استخلفه من بعده، والاعتقاد باستمرار الإمامة في أبنائه من فاطمة الزهراء﵍، ولا يحظىٰ أحدُ غيرهم بهذا الحق.

وفي هذا الصدد، يقول الشيخ المفيد:

[قد] يسقط من [لفظ الشيعة] علامة التعريف التي هي الألف واللام، ويضاف لفظ من للتبعيض، فيقال هؤلاء من شيعة بني أمية أو من شيعة بني العباس أو من شيعة فلان أو فلان، فأما إذا دخل فيه علامة التعريف، فهو على التخصيص لا محالة لأتباع أميرالمؤمنين﵇ علىٰ سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسولﷺ بلا فصل، ونفي الإمامة عمن تقدّمه في مقام الخلافة، وجعله في الاعتقاد متبوعاً لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاقتداء،... فيُعلم بهذا الاعتبار أنّ السمة بالتشيّع عَلَم على الفريق الذي ذكرناه وإن كان أصلها في اللسان ما وصفناه من الاتباع، كما أن الإسلام علم علىٰ أمّة محمّدﷺ، خاصة، وإنْ كان في أصل اللغة اسماً يستحقه اليهود لاستسلامها لموسىٰ﵇، ويستحقه النصارىٰ بمثل ذلك، ويستحقه المجوس لانقيادها لزرادشت، وكل مستسلم لغيره يستحقه علىٰ معنى اللغة، لكنهم خرجوا عن استحقاقه لمّا صار علَماً علىٰ أمة محمّدﷺ، وتخصّصت به دون من سواها للعرف والاستعمال.[١]

وقال عبدالكريم الشهرستاني في تعريف الشيعة:

هم الذين شايعوا علياً﵇ على الخصوص، وقالوا بإمامته نصاً ووصيّة، إما جليّاً أو خفيّاً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده.[٢]

وقال الشريف الجرجاني:

الشيعة، هم الذين شايعوا علياً﵇، وقالوا: إنه الإمام بعد رسول الله، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده.[٣]

١. أوائل المقالات، ص ٣٥، ٣٦

٢. الملل والنحل، ج ١، ص ١٤٤

٣. التعريفات، ٩٣

وكتب أبن خلدون، يقول:

> تطلق الشيعة في عُرف الفقهاء والمتكلّمين من الخلف والسلف علىٰ أتباع عليّ وبنيه رضي‌الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلىٰ نظر الأمة، ويتعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبيّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وإنّ علياً عليه‌السلام هو الذي عيّنه صلوات الله وسلامه عليه.[1]

وقال أبوالحسن الأشعري في تعريف الشيعة: «إنما قيل لهم الشيعة لأنهم شيعوا علياً عليه‌السلام، ويقدّمونه على سائر أصحاب رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله».[2]

والمراد من تقديم علي عليه‌السلام علىٰ سائر الصحابة، هو الاعتقاد بإمامته بلافصل.

ويُعدّ الاعتقاد بإمامة علي عليه‌السلام بلا فصل والنصّ عليه وتنصيبه إماماً، واستمرار هذه الإمامة في أبنائه من فاطمة عليها‌السلام. يَعدّ هذا الاعتقاد أساس ومحور هذا الاصطلاح.

وقد شاع هذا الاصطلاح حتّىٰ بلغ حدّاً، دعا معه علماء اللغة ـ بعد سرد المعاني اللغوية لِلفظ الشيعة ـ إلى القول بأنّ الاستعمال الغالب لهذا اللفظ، خُصِّص للذين اختاروا ولاية علي عليه‌السلام وأهل البيت عليهم‌السلام، قال صاحب القاموس في هذا الصدد: «وقد غلب هذا الاسم علىٰ كلّ من يتولّىٰ علياً وأهل بيته حتىٰ صار اسماً خاصاً لهم».[3]

وقال ابن الأثير: «وقد غلب هذا الاسم علىٰ كل من يزعم أنه يتولّىٰ علياً وأهل بيته حتىٰ صار لهم اسماً خاصاً، فإذا قيل فلان شيعة عُرف أنه منهم».[4]

وهذا المعنىٰ ورد في سائر كتب اللغة بنفس هذه العبارة، أو بعبارات قريبة منها.[5]

قال أمين الإسلام الطبرسي بعد تعريف الشيعة لغوياً بأنها الجماعة التي تتّبع رئيسها: «وصار بالعُرف عبارة عن شيعة علي بن أبي طالب عليه‌السلام الذين كانوا معه علىٰ أعدائه وبعده، مع من قام مقامه من أبنائه».[6]

١. مقدّمة ابن خلدون، ص ١٩٦، ط دار القلم، بيروت.
٢. مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ٦٥
٣. القاموس المحيط، ج ٣، ص ٤٧
٤. النهاية، ج ٢، ص ٥١٩
٥. راجع: لسان العرب، ج ١، ص ٥٥؛ تاج العروس، ج ٥، ص ٥؛ أقرب الموارد، ج ١، ص ٦٢٧.
٦. مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٤٨

٢. كل من اعتقد بأفضلية علي عليه السلام علىٰ سائر الصحابة وعلى الخلفاء الذين سبقوه مع عدم اعتقاده بالنص علىٰ إمامته وولايته بلا فصل، ويطلق هذا الاصطلاح أحياناً علىٰ كل من فضّل عليّاً علىٰ عثمان، كما قال القاضي عبدالجبّار: «ومن فضّل عليّاً علىٰ عثمان واصل بن عطاء ولذلك كان ينسب الىٰ التشيُّع، لأنّ الشيعي في ذلك الزمان من كان يقدّم عليّاً علىٰ عثمان».[1]

وصفوة القول أن محور الاصطلاح المذكور يدور حول الاعتقاد بأفضلية أميرالمؤمنين عليه السلام علىٰ سائر الصحابة والخلفاء أو علىٰ عثمان خاصة.

وقد ذهبت الشيعة وأغلب المعتزلة إلىٰ أنّ عليّاً عليه السلام أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وذهبت جماعة من أهل الحديث إِلى أفضلية الإمام علي عليه السلام علىٰ عثمان،[2] وقد يُنسب بعض الرواة في كتب الرجال والتراجم إلى التشيّع، ويُطعن عليهم عند من يعتقد بأنّ التشيّع دليل ضعف الراوي.[3]

ويُعلم مما سبق وجه إطلاق الشيعة علىٰ جماعة من الزيدية التي تعتقد بأفضلية عليّ عليه السلام علىٰ سائر الخلفاء دون أن تعتقد بالنصّ علىٰ إمامته بلافصل، بل ترىٰ أنّ تعيين الإمام يتمّ عن طريق الانتخاب، فهي تنضوي تحت عنوان الشيعة لاعتقادها بأفضلية علي عليه السلام.

وقد نبّه العلّامة الطباطبائي إلىٰ معنى آخر في وجه تسمية الشيعة، وهو رفضها لخلافة بني أمية، وبني العباس، وذهابها إلىٰ أن الإمامة حق لذرّية فاطمة الزهراء عليها السلام.[4]

٣. المورد الآخر الذي استعمل فيه لفظ الشيعة في الاصطلاح هو: إظهار

---

١. المغني في ابواب التوحيد والعدل، ج ٢، ص ١١٤، مبحث الإمامة

٢. يُستشف من بعض الأبيات المنسوبة إلىٰ ابن إدريس الشافعي (إمام المذهب الشافعي)، ذهابه إلىٰ أفضلية الإمام علي عليه‌السلام، كما في قوله:

إذا نحن فضّلنا علياً فإننا ... روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل

ديوان الإمام الشافعي، ٥٥.

٣. منهم الذهبي في ميزان الاعتدال، حيث تحامل فيه على الشيعة، واتهم بعض رواة أهل السنّة بالتشيّع، كقوله في عبيدالله بن موسى، أحد مشايخ البخاري «ثقة في نفسه، لكنه شيعي منحرف» قوله في علاء بن العباس «شيعي غال» وقوله في محمّد بن أحمد بن حمدان «كان يتشيّع»، وقوله في محمّد بن جرير الطبري المؤرخ والمفسّر الشهير «ثقة صادق فيه تشيّع يسير موالاة لا تضرّ».

٤. الشيعة في الإسلام، ص ٢٠

المودّةالمحبّة لأهل بيت النبيﷺ. فقد اتفق المسلمون قاطبة علىٰ وجوب محبّة أهل البيت، ولم يُكنّ أحد منهم ـ باستثناء النواصب ـ العداء لهم، وذلك لتأكيد القرآن الكريم وتضافر الأحاديث في هذا المجال، بيد أن الاتهام بالرفض والتشيّع قد يطال أحياناً كلّ من أبدىٰ محبّة ومودّة لأهل بيت النبوّة أو الرسالة، أو عمل علىٰ ترويج ذلك.

هذا النوع من التهم قد ولّىٰ عليه الزمن، وهو يرتبط بالعهود الماضية، حين تحكّمت بالمسلمين أنظمة جائرة تعاند الحق، وتناصب أهل البيت العداء سعياً منها لطمس معالم ثقافة أهل البيت التحررية، المناهضة للظلم. وقد تكرّر هذا المعنىٰ في شعر الإمام الشافعي، قال مرّة:

إذا في مجلس نذكر عليّاً ... وسبْطَيْهِ وفاطمةَ الزكيّة
يُقال تجاوزوا يا قوم هذا ... فهذا من حديث الرافضيّة
برئتُ إلىٰ المهيمن من أُناس ... يرَوْن الرفضَ حبَّ الفاطميّة[1]

وقال أيضاً:

إنْ كان رفضاً حبَّ آل محمّد ... فَلْيشهدِ الثقلان انّي رافضي[2]

مبدأ نشوء اصطلاح الشيعة

لاصطلاح الشيعة، الذي يعني اتّباع مجموعة من المسلمين لأمير المؤمنين وتفضيله على سائر الصحابة وإبداء المحبّة والتقدير له، لهذا الاصطلاح تاريخ عريق، يمتدّ إلىٰ عصر الرسالة. ووفقاً للأحاديث التي نقلها الفريقان، فإنهﷺ أطلق علىٰ أتباع علي محبّيه اسمَ الشيعة.

روىٰ جلال الدين السيوطي عن طريق جابر بن عبدالله الانصاري وعبدالله بن عباس، قالا: كنّا عند النّبيﷺ فأقبل عليّ، فقال النبيﷺ: «والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»، ونزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[3] فكان أصحاب النبيﷺ إذا أقبل عليّ قالوا جاء خير البرية».[4]

١. ديوان الإمام الشافعي، ٥٦ ٢. المصدر السابق، ٥٥ ٣. البيّنة، ٧
٤. الدر المنثور، ج ٨، ص ٥٣٨، دار إحياء التراث العربي.

وفي رواية ابن الأثير: قال النبي ﷺ مخاطباً علياً: «**يا علي إنك ستقدّم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين، ويقدم عليه عدوك غضاباً مقمحين**».[١]

ونقل الشبلنجي نظير هذه الرواية في كتابه نورالأبصار[٢] وفي حديث آخر نقله السيوطي عن ابن مردويه أن علياً ؑ. قال: قال لي رسول الله ﷺ: ألم تسمع قول الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ «**أنت أنت وشيعتك، وموعدي موعدكم الحوض إذا جاءت الأمم للحساب تُدعوْن غُرّاً مُحَجّلين**».[٣]

وروى ابن حجر عن أمّ سلمة أنها قالت: كانت ليلتي، وكان النبي ﷺ عندي، فأتته فاطمة، فتبعها علي ؑ، فقال النبي ﷺ: «**يا علي أنت وأصحابك في الجنة، أنت وشيعتك في الجنة**».[٤]

وروى الخطيب الخوارزمي عن علي بن أبي طالب ؑ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: لما دخلت الجنّة رأيت فيها شجرة تحمل الحليّ والحلل، أسفلها خيل بلق وأوسطها حور عين، وفي أعلاها الرضوان، قلت: يا جبريل لمن هذه الشجرة؟ قال: هذه لابن عمّك أميرالمؤمنين علي بن ابي طالب ؑ. إذا أمر الله الخليقة بالدخول إلى الجنّة. يؤتىٰ بشيعة علي حتىٰ ينتهي بهم إلىٰ هذه الشجرة، فيلبسون الحلّي والحلل ويركبون الخيل البُلْق وينادي منادٍ: هؤلاء شيعة علي بن ابي طالب، صبروا في الدنيا على الأذىٰ، فحُبوا اليوم.[٥]

وروىٰ أيضاً عن جابر بن عبدالله، قال: كنّا عند النبيّ ﷺ وأقبل علي بن أبي طالب ؑ، فقال رسول الله ﷺ: قد أتاكم أخي. ثم التفت إلى الكعبة، فضربها بيده، ثم قال: والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة.[٦]

وثمة أحاديث أخرىٰ في هذا الصدد رُويت في كتب أهل السنة، أحجمنا عن ذكرها مخافة الإطناب، وفيما نقلناه من أحاديث كافٍ لإثبات ما نروم إثباته.[٧]

١. النهاية، ج ٤، ص ١٠٦؛ الإقماح: رفع الرأس وغضّ البصر، يقال: أقمحه الغُلّ: إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقِهِ.
٢. نور الأبصار، ١٥٩، منشورات الرضي.
٣. الدرّ المنثور، ج ٨، ص ٥٣٨
٤. الصواعق المحرقة، ص ١٦١، ط مكتبة القاهرة.
٥. المناقب، ص ٧٣، ح ٥٢، ط مؤسّسة النشر الإسلامي، قم.
٦. المصدر السابق، ص ١١١، ح ١٢٠
٧. راجع: تاريخ الشيعة، ص ٤ـ٨؛ بحوث في الملل والنحل، ج ٦، ص ١٠٢ـ١٠٦.

ويُستفاد من هذه الأحاديث أن اسم الشيعة ورد أولاً علىٰ لسان النبي‌ﷺ، واصفاً به أتباع علي‌ﷺ ومحبّيه، وقد بلغت هذه التسمية من الشهرة حدّاً، بحيث استمر إطلاقها عليهم حتىٰ بعد وفاته‌ﷺ. وفي هذا الإطار، يقول المسعودي (بعد نقل حوادث السقيفة وانعقاد البيعة لأبي بكر): فانصرف عنهم، فأقام أمير المؤمنين‌ﷺ ومن معه من شيعته في منزله.[١]

وقال أمير المؤمنين‌ﷺ، وقد ذكر أصحاب الجمل: «وثبوا علىٰ شيعتي، فقتلوا طائفة منهم غدراً، وطائفة عضّوا علىٰ أسيافهم، فضاربوا بها حتىٰ لقوا الله صادقين».[٢]

اصطلاح الرافضة

قد تُطلق كتب الملل والنحل وكتب العقائد والتفسير أيضاً على الشيعة اسم الرافضة، وهنا تلزم الإشارة إلىٰ عدّة نكات تتعلّق بهذا الاصطلاح.

انّ اصطلاح الرافضة كاصطلاح الشيعة له استعمالات متعدّدة.

فقد يُطلق ويُراد به من اعتقد بأفضلية علي‌ﷺ، وأظهر المحبّة له ولأهل بيته، كما في الأبيات التي نقلناها آنفاً عن الشافعي، وقد يُطلق ويراد به الشيعة، كما فعل الأشعري، حينما جعل الروافض تماثل الإمامية التي تذهب إلى النصّ علىٰ خلافة أمير المؤمنين‌ﷺ.[٣]

وذهب عبد القاهر البغدادي إلىٰ أبعد من ذلك، لمّا عدّ الغلاة من فرق الرافضة، بل هو ـ أصلاً ـ استعمل اصطلاح الرافضة بدل اصطلاح الشيعة، وقسّمها إلىٰ ثلاث فرق، هي: غلاة الكيسانية، والإمامية، والزيدية.[٤]

ويظهر من بعض الأحاديث، والوقائع التاريخية في عهد بني أميّة، أن خصوم أهل البيت والشيعة كانوا قد أطلقوا عليهم هذا الاصطلاح إمعاناً في إظهار العداوة والخصومة لهم وتنكيلا بكل من انتحله باعتباره جريمة لا تغتفر.

١. اثبات الوصية، ص ١٢١، ط النجف.
٢. نهج البلاغه، خ ٢١٨
٣. أنظر: مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ٨٨، ٨٩.
٤. الفَرق بين الفِرق، ص ٢١، ط دار المعرفة.

ورد في الحديث عن أبي بصير عن الإمام الباقر ﷺ. أنه قال: قلت لأبي جعفر ﷺ: جُعلت فداك اسم سُمّينا به استحلّتْ به الولاة دماءَنا وأموالنا وعذابنا، قال: وما هـو؟ قال: الرافضة، فقال أبو جعفر ﷺ: إنّ سبعين رجلاً من عسكر فرعون رفضوا فـرعون، فأتوا موسىٰ ﷺ، فلم يكن في قوم موسىٰ أحد أشدَّ اجتهاداً وأشدّ حبّاً لهارون منهم، فسمّاهم قوم موسى الرافضة، فأوحى الله إلى موسىٰ أن أثبت لهم هذا الاسم في التوراة فإني نحلتهم، وذلك اسم قد نحلكموه الله.[1]

نستنتج من الحديث المذكور، النقاط التالية:

١. اطلاق الرافضة على الشيعة كان موجوداً منذ ذلك الزمان.

٢. تسمية الشيعة بالرافضة، أطلقت ـ على الأكثر ـ من قبل حكّام بني أميّة بهدف التنكيل بالشيعة، وإذاقتهم الوان العذاب.

٣. وجه اطلاق الرافضة عـلى الشـيعة، هـو انّـهم كـانوا يـظهرون مـحبّة الإمـام علي ﷺ،يعدّون مناقبه ويفضلونه علىٰ سائر الصحابة، وهذا ـ بطبيعة الحال ـ لا يروق لحكام بني أمية الذين كانوا يعتبرون إظهار المـحبة له ﷺ وتـرويج فـضائلِهِ جـريمة تستحق العقاب.

٤. إذا كان اصطلاح الرافضة مذموماً ومثيراً للإشمئزاز لدىٰ خصوم أهل البيت ﷺ ومناوئي الشيعة، فإنه ممدوح ولائق لدىٰ أئمة أهل البيت ﷺ.

وبملاحظة الرواية التي ذكرناها آنفاً، يتبيّن لنا ضعف الرأي القائل بأن زيد بن علي بن الحسين ﷺ هو أوّل من أطلق اسم الرافضة على الشيعة عند قيامه بالكوفة ومبايعة أهلها له، فقد روي أن أصحابه قالوا له بعد مبايعته: إنا ننصرك علىٰ أعدائك بـعد أن تخبرنا برأيك في أبيبكر وعمر، فقال زيد بن علي: لا أقول فيهم إلّا خيراً، وما سمعت من أبي فيهم إلّا خيراً، ففارقوه عند ذلك، حتىٰ قال لهم رفضتموني، ومن يومئذٍ سمّوا رافضة.[2]

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٩٧

٢. انظر: مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ٨٨ـ٩٨؛ تاريخ ابن الأثير، ج ٣، ص ٣٨٠؛ الفَرق بين الفِرق، ص ٣٥.

فالرواية المذكورة تؤمي إلى أنّ اصطلاح الرافضة كان معروفاً قبل ثورة زيد، وأنّ حكّام بني أميّة هم الذين كانوا اطلقوه على الشيعة.

ومهما يكن من أمر، فقد دلّت الوقائع التاريخية على أن اصطلاح الرافضة كان اصطلاحاً سياسياً قبل أن يكون دينياً، يُطلق على الرافضين لحكومة ما أو قوة سياسية حاكمة، سواء كانت على حق أو باطل؛ وفي هذا الإطار كتب معاوية إلى عمرو بن العاص بعد وقعة الجمل كتاباً، وصف فيه كل من خرج على الإمام علي عليه السلام بالرافضة، قال: «وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة».[1]

وبناءً على ذلك، فقد أطلق الحكم الأموي الجائر اسم الرافضة على الشيعة لمناهضتها له، كما حاول ـ وبغية استئصال شأفتها ـ إعطاء صراعه معها صبغة دينية من خلال بيان موقفها من الخلفاء.

وإذا صحت قصة زيد بشأن الرافضة من الزاوية التاريخيّة، فإن القرائن والشواهد تدلّ على أنّ إثارة مثل هذا السؤال في تلك الظروف الحرجة، واعتزال جمع غفير من ـ ـعين، إنما كانت ـ في الواقع ـ مؤامرة حاكتها أصابع أموية بقصد إلحاق الهزيمة بزيد، وإجهاض ثورته.

فِرَق الشيعة

نقلت في كتب الملل والنحل أسماء فرق كثيرة للشيعة، فالأشعري قسّم الشيعة أولاً إلى ثلاث فرق، هي: الغلاة، والرافضة، والزيدية، ثم ذكر للشيعة الغلاة (١٥) فرقة، وللرافضة (٢٤) فرقة، وللزيدية (٦) فرق، كما تحدّثُ مؤلفوا الملل والنحل عن فرق متنوّعة كثيرة للشيعة، ولكن بالتأمّل في النكات التالية، يتضح مجانبة هذه الأقوال للصواب:

١. إن وسم الشيعة بالغلاة، أمر مرفوض، لأن الغلاة هم القائلون بألوهية وربوبية أهل البيت عليهم السلام، واعتقاداً كهذا هو كفر وشرك، من هنا كفّر أئمّة أهل البيت عليهم السلام الغلاة تبرّؤوا منهم، وتبعهم في ذلك علماء الشيعة الذين اعتبروهم من الفرق الخارجة عن الإسلام، وفي هذا الصدد يقول الشيخ المفيد:

---

١. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٩

الغلاة من المتظاهرين بالإسلام، هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته إلى الألوهية والنبوة، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد، وخرجوا عن القصد، وهم ضلّال كفّار.[1]

وقد التفت إلى ذلك بعض كُتّاب الملل والنحل كالبغدادي[2] والاسفرايينى،[3] فعقدوا لفرق الغلاة فصلاً مستقلاً تحت عنوان «الفرق المنسوبة إلى الإسلام».

٢. إن معيار الانقسام في كل مذهب، هو أصوله وعقائده الرئيسية، والأصل الاساسي للتشيّع، والذي يميّزه عن سائر المذاهب، هو الاعتقاد الخاص بالإمامة، هذا الاعتقاد هو ملاك ومعيار الانقسام، أما الاختلاف في سائر المسائل العقائدية فهي ليست ملاكاً له.

وعلى ضوء ذلك، فإنّ العديد من الفرق التي أُدرجت في كتب الملل والنحل تحت عنوان فرق الشيعة كالهشامية واليونسية والنعمانية، وغيرها، تفتقد إلى معيار صحيح للتقسيم.

٣. إنّ العديد من الفرق التي إرتبط ظهورها بمسألة الإمامة، وذُكرت أسماؤها في كتب الملل والنحل، قد انقرضت ولم تدم طويلاً، وأصبحت جزءاً من التاريخ. فمثلاً تحدّثنا كتب الملل والنحل وكتب التاريخ عن ظهور (١٤) فرقة بعد استشهاد الإمام العسكري ﷺ، وهذه الفرق لا أثر لها اليوم، وعلى فرض كونها واقعية، فانها قد انقرضت، ولم يعد لها وجود اليوم.

يقول المحقق الطوسي بعد الإشارة إلى فرق الشيعة في كتب الملل والنحل:

هذه اختلافات رويت عن الشيعة القائلين بإمامة علي، وأكثرها ممّا لم يوجد له أثر غير المكتوب في كتب غير معتمد عليها... لكن بعض هذه الفرق خارجون عن الإسلام كالغلاة وبعض الباطنية.[4]

وكتب العلّامة الطباطبائي بعد ذكر فرق الكيسانية والزيدية والإسماعيلية والفطحية، كتب يقول:

ولم يظهر انشعاب بعد الإمام الثامن وحتّى الإمام الثاني عشر، وهو عند الأكثرية المهدي الموعود، وإذا ما كانت هناك حوادث أو وقائع فإنها لم تكن سوى أيام معدودة ولم يحدث انشعاباً، وعلى فرض حدوث انشعاب لم يدم طويلاً،انتهى إلى

١. تصحيح الاعتقاد، ١٠٩ ٢. الفَرق بين الفِرق، ص ٢١ ـ ٢٣

٣. التبصير في الدين، ١٢٣ ـ ١٤٧ ٤. تلخيص المحصّل، ص ٤١٣

الانصهار، كما حدث بعد وفاة الإمام العاشر، إذ ادعى ولده جعفر الإمامة تبعه جمع، إلّا أنهم تفرقوا وتشتّتوا بعد فترة قصيرة، ولم يتابع جعفر دعوته هذه،هناك اختلاف في الآراء بين رجال الشيعة في المسائل العلمية والكلامية والفقهية، إذ لا يمكن اعتبارها انشعاباً في المذهب.[١]

وبملاحظة النكات التي ذُكرت آنفاً، يلزم القول: أن أهم الفرق الشيعية السائدة اليوم التي لها أتباع، هي:

١. الاثنا عشرية (الإمامية)؛

٢. الزيدية؛

٣. الإسماعيلية.

أما الفرق الشيعية البائدة، فهي: الكيسانية والناووسية والفطحية والواقفية.

وقد اتفقت الفرق الشيعية الثلاث على إمامة أميرالمؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام عصمتهم واختيارهم من قبل الله ونبيّه صلى الله عليه وآله، بيد أن الزيدية اعتقدت بأن الإمام بعد الحسين عليه السلام، هو الحسن بن الحسن والحسن المثنىٰ، وبعده زيد بن علي،أنكرت إمامة السجاد عليه السلام[٢] وسائر أئمة الشيعة الاثني عشرية. وأما الإسماعيلية، فقد أنكرت إمامة الكاظم عليه السلام وسائر أئمة الشيعة الاثني عشرية بعد الإمام الصادق عليه السلام[٣] موضوع بحثنا في هذا الكتاب، هو الشيعة الاثنا عشرية الذين يعتقدون بإمامة الأئمّة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام.

---

١. الشيعة في الإسلام، ص ٧٧

٢. يذهب بعض الزيدية الى أن الإمام السجاد عليه السلام كان إماما في مجال علم الشريعة، ولم يكن إماما سياسيا بقود المجتمع الاسلامي.

٣. للاطلاع أكثر علىٰ تاريخ وعقائد الزيدية والاسماعيلية، راجع: فرق ومذاهب كلامى، للمؤلّف، وغيره من كتب الملل والنحل.

٢

تاريخ الشيعة ومبدأ نشوءها

بعد أن بيّنا تعريف الشيعة واستعمالاتها، حان الوقت الآن للبحث عن تاريخها ومبدأ نشوءها. هذا الموضوع أثار اهتمام جمع من الباحثين في المذاهب الإسلامية لا سيّما مذهب التشيّع، وتبلورت في هذا المجال اتجاهات مختلفة، أحدها أن مبدأ التشيّع يعود إلىٰ عصر النبي ﷺ، وثانيها أنه يعود إلى الأيام الأولىٰ لوفاة النبي ﷺ، ناهيك عن اتجاهات أخرىٰ سنناقشها في الفصل القادم، إلّا أنّ المهمّ في هذا الفصل، هو دراسة الاتجاهين المذكورين نقداً وتمحيصاً.

الاتّجاه الأوّل

ذهب جمع من المفكّرين إلىٰ أنّ مبدأ التشيّع يعود إلىٰ عصر الرسالة، وأن النبي ﷺ هو أوّل من غرس بذرته ثم تعاهدها بالسقي والعناية، وأدلة هذا الاتجاه كالتالي:

١. وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، أطلق فيها علىٰ جماعةٍ اسمَ شيعة علي، ومدحهم وأثنىٰ عليهم.[1] وكانت هذه الجماعة قد اختصّت بعلي بن أبي طالب عليه السلام، ولازمته، وجعلت أقواله وأفعاله أسوة لها، باعتبار أنّ ذلك مما يرضي الله ورسوله.

٢. أشارت بعض الأخبار التاريخية إلىٰ أن عدداً من الصحابة، عرفوا في عصر الرسالة بشيعة علي عليه السلام كسلمان، وأبي‌ذر، والمقداد، وعمّار.

---

1. تقدّمت الإشارة إلىٰ تلك الأحاديث في الفصل السابق.

٣. دلّت بعض الأحاديث، كحديث يوم الدار، وحديث الغدير، وحديث المنزلة، حديث «علي مع الحق»، وحديث «أنا مدينة العلم»، دلّت هذه الأحاديث بصراحة على خلافة علي‌ؑ وإمامته، وهي ـ إلىٰ جانب بعض الآيات القرآنية والأدلة العقلية ـ تشكّل العمود الفقري للفكر الشيعي في مبحث الإمامة، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن إمامة علي‌ؑ بلا فصل تشكّل أساس التشيّع.

يقول العلّامة كاشف الغطاء بعد الإشارة إلىٰ الأحاديث النبوية في مدح علي وشيعته:

ومن الغني عن البيان أنه لو كان صاحب الرسالة من شيعة علي‌ؑ مَن يحبّه أو لا يبغضه بحيث ينطبق علىٰ أكثر المسلمين، لم يستقم التعبير بلفظ «الشيعة» فإنّ صرف محبّة شخص لآخر أو عدم بغضه لا يكفي في كونه شيعة له، بل لابدّ هناك من خصوصية زائدة، وهي الاقتداء والمتابعة له، بل ومع الالتزام بالمتابعة أيضاً، وهذا يعرفه كل من له أدنىٰ ذوق في مجاري استعمال الألفاظ العربية، وإذا استعمل في غيره فهو مجاز مدلول عليه بقرينة حال أو مقال.

نعم وهكذا كان الأمر فإن عدداً ليس بالقليل اختصوا في حياة النبي‌ؐ بعلي‌ؑ ولازموه، وجعلوه إماماً كمبلغ عن الرسول وشارح ومفسّر لتعاليمه أسرار حِكَمه وأحكامه.[1]

وقال العلّامة الطباطبائي حول تاريخ نشأة التشيّع:

يجب أن نعلم أن بداية نشوء الشيعة، والتي سمّيت لأوّل مرّة بشيعة علي وعرفت بهذا الاسم، كان في زمن النبي الاكرم‌ؐ. فظهور الدعوة الإسلامية وتقدمها وانتشارها خلال ثلاث وعشرين سنة، زمن البعثة النبوية، أدّت إلىٰ ظهور مثل هذه الطائفة بين صحابة النبي الأكرم‌ؐ.

ثم أشار إلىٰ بعض الأحاديث الدالة علىٰ إمامة علي‌ؑ وشخصيته الممتازة في أوساط الصحابة، واختصاصه‌ؑ بالنبي‌ؐ، وقال:

١. أصل الشيعة وأصولها، ص ١١١ـ١١٣، ط القاهرة و ١٢١ـ١٢٢، ط دارالأضواء؛ واختار هذا الرأي العلّامة السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة، ج ١، ص ٢٣؛ والشيخ محمد حسين المظفر في تاريخ الشيعة، ص ٨، ٩؛ والشيخ محمد جواد مغنية في الشيعة والتشيع، ص ١٦؛ والعلامة الطباطبائي في الشيعة في الإسلام، ص ٢٣؛ والأستاذ السبحاني في بحوث في الملل والنحل، ج ٦، ص ١١٢؛ والسيد طالب الخرسان في نشأة التشيع، ص ٢٤ـ٢٩

من الطبيعي أن هذه الخصائص والفضائل التي انفرد بها الإمام علي، والتيهي مورد اتفاق الجميع، والعلاقة الخاصة التي كان يبديها النبيالأكرم،جعلت له مؤيدين محبّين مخلصين من صحابة النبي وأنصاره،كما أثارت لدى البعض الآخر الحقد والحسد، وفضلاً عن هذا كله، فإنكلمة شيعة علي وشيعة أهل البيت قد جاءت في كثير من أقوال النبي.[١]

وعند الإمعان في هذا الاتجاه، يتضح أنّه ليس المراد منه أن الإمامة وبسبب احتدام الجدل حولها في عصر الرسالة، هي التي حزّبت المسلمين إلىٰ جماعتين (اختارت إحداهما إمامة علي فاطلق عليها الشيعة، والأخرىٰ لم تختره) لكي يقال إن المسألة لم تُطرح في ذلك الوقت بهذه الصورة، ولم تظهر فيها بوادر النزاع، بل المراد منه أن جماعة من الصحابة عُرفت في عصر الرسالة بشيعة علي، وأنها أولت عناية كبيرة بالأحاديث النبوية في حقّ عليّ وشأنه ومنزلته عند الرسول، واعتقدت أنه هو المؤهل لشرح وتفسير تعاليم النبي وأسرار حِكَمِه وأحكامه، وأن أتباعه هو في الواقع اتباع للنبي، لذلك اختصّت به ولازمته وبايعته بعد وفاة النبي.

الاتجاه الثاني

ذهب جمع من المحققين والمؤرخين إلىٰ أن تاريخ نشوء الشيعة يعود إلى الأحداث التي أعقبت وفاة رسول الله والتي اختلف فيها المسلمون في مسألة الخلافةالإمامة، وبعبارة أدقّ يعود إلىٰ أحداث سقيفة بني ساعدة، حينما برز فيها اتجاهان بشأن خلافة النبي وقيادة المسلمين، إذ اقترحت جماعة من الأنصار تنصيب سعد بن عبادة لهذه المهمة، في حين رأت جماعة من المهاجرين أهلية أبيبكر لذلك، وبعد اللّتيا والتي انتهى الأمر لصالح الجماعة الثانية.

هذا من جانب، ومن جانب آخر ذهب بنو هاشم ومن معهم من المهاجرين الأنصار (وهم شيعة علي) إلىٰ إمامة علي، ومنذ ذلك الوقت نشأت الشيعة في دنيا الإسلام كمذهب خاص.[٢]

١. الشيعة في الإسلام، ص ٢٦، ٢٧

٢. اختار هذا الرأي ابن خلدون في تاريخه، ج ٣، ص ٣٦٤؛ وأحمد أمين المصري في كتاب ضحىٰ

الاتجاه الثالث

ثمة اتجاه آخر طُرح في هذا المجال، وهو مشتمل على الاتجاهين السابقين باعتبارهما مرحلتين لحقيقة واحدة، وبناء على ذلك، فليس بينهما ـ في الحقيقة ـ أي تنافر أو تضادّ، بل أن كلاً منهما قد تناول المسألة من زاويته الخاصة، والتي هي في حدّ ذاتها لا تبتعد عن الصواب ولا تخلو من تأييد الشواهد والدلائل الروائية والتاريخية. فمفاد الإتجاه الأول، هو أن عقيدة التشيّع والميول الشيعية نشأت في عصر الرسالة،أن رسول الله ﷺ كان أول من طرح هذه العقيدة، دون أن يعني ذلك، أن المسلمين انقسموا ـ منذ ذلك الزمان ـ إلىٰ فريقين: شيعة، وغير شيعة.

ومفاد الاتجاه الثاني، هو أنّ الاختلاف في الإمامة والخلافة، صار سبباً لظهور الانقسام بين المسلمين، فهناك جماعة (عُرفت بالشيعة) والت علياً ودعت إلىٰ إمامته خلافته، وبالمقابل اختارت جماعة أبابكر خليفة للمسلمين بعد النبي ﷺ بلا فصل.

وهذا الاختلاف حدث بعد وفاة النبي ﷺ، مما أوحىٰ إلىٰ أن مبدأ نشوء الشيعة يعود إلىٰ ذلك التاريخ، ومن الواضح أنه ليس بينهما أي تضاد، بل كل بحسبه علىٰ صواب.

وقد تنبّه بعض المحققين لا سيما العلامة السيد محسن الأمين إلىٰ هذه النكتة، وهي أن الاتجاهين يمثلان مرحلتين لنظرية واحدة ومنسجمة، فبعد بيانه لنشأة الفكر الشيعي في عصر النبي، وإطلاقه ﷺ اسم الشيعة علىٰ جماعة من الصحابة، عرّج السيد الأمين علىٰ نشأة التشيع في خضم الجدل الذي قام بين المسلمين حول الخلافة، وقال:

> قد عرفت أنه في عهد رسول الله ﷺ كان جماعة يتشيّعون لعلي ؑ، ثم ظهرالتشيّع له عند حدوث الاختلاف في أمر الخلافة يوم وفاة النبي ﷺ، فقالتالأنصار للمهاجرين: منّا أمير ومنكم أمير، واحتجّ عليهم المهاجرون بأنهمعشيرته وقومه، وقال ؑ لما بلغه ذلك ما معناه: إن يكن ما قاله المهاجرونحقّاً فالحجة لنا دونهم. وإلّا فالانصار علىٰ حجّتهم، وتشيّع يومئذلعلي جميع بني هاشم وبني المطلب، وانضمّ إليه الزبير بن العوام وثلاثةعشر رجلاً أو اثنا عشر من المهاجرين والأنصار [1]

← الإسلام، ج ٣، ص ٢٠٩؛ وجولد تسيهر في كتاب العقيده والشريعة في الإسلام، ص ١٧٤؛ راجع: كتاب نشأة التشيع، ص ٣١، ٣٢.

١. أعيان الشيعة، ج ١، ص ٢٣

وقال هاشم معروف الحسيني:

والواقع أن التشيّع بما هو فرقة في مقابل جماعة المسلمين لم يكن قبل وفاةالرسول، ولكن المبدأ الذي يرتكز عليه التشيّع، وهو نصّ النبي علىاستخلاف علي من بعده، كان بعد ولادة الإسلام.

ثم استعرض النصوص الدالة علىٰ إمامة علي وخلص إلى القول:

فالتشيّع بمعناه المعروف عند الفقهاء والمتكلّمين والمحدّثين، والذي تتميّزبه هذه الفرقة عن فرق المسلمين، ولد في حياة الرسول نتيجة لتلكالنصوص التي أوردها المحدّثون في كتبهم، وثبت عليه جماعة في الفترةالأولى من تاريخ وفاة الرسول، ولولا مراعاة علي للأوضاعوالظروف التي أحاطت الإسلام في تلك الفترة من تاريخه، لحدثتتطورات في تاريخ الإسلام، لا نستطيع أن نقدّر مدىٰ أثرها السيّء علىٰجهود الرسول والوصيّ والمخلصين من الصحابة الكرام.[١]

ومن المدافعين عن هذا الاتجاه المفكر الشهيد آيةالله السيد محمد باقر الصدر، حيث فرّق بين التشيّع والشيعة، مشيراً إلى أن اللبنة الأولىٰ للتشيّع قد تمّ وضعها في عصر الرسالة علىٰ يد النبي، فالتشيّع يعني الاعتقاد بأن النبي لم يهمل مصير القيادة الإسلامية بعده، بل أوكله منذ البداية إلىٰ أميرالمؤمنين علي، وقد أعدّه إعداداً خاصاً لتسلّم هذه المسؤولية الخطيرة، وكان يخصّه بكثير من مفاهيم الدعوة الإسلامية وحقائقها، ويبدؤه بالعطاء الفكري والتثقيف، وكان يُعلن ذلك صراحة وعلىٰ مرأىٰ ومسمع جمهور المسلمين في مواطن عديدة.

وقد استند فيما ذكر إلىٰ طائفتين من النصوص:

الأولىٰ: النصوص الدالة على المنزلة الرفيعة التي حظي بها علي لدىٰ النبي.

الثانية: النصوص الدالة علىٰ إمامة علي وزعامته للأمة الإسلامية بعد النبي.

وإليك نماذج من الطائفة الأولىٰ:

١. روى الحاكم النيسابوري في المستدرك بسنده عن أبي إسحاق، قال: سألت

١. هاشم معروف الحسيني، الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ٤٨ـ٥٣

القاسم بن العباس: كيف ورث علي رسول الله؟ قال: لأنه كان أوّلنا به لحوقاً، وأشدّنا به لزوقاً.[١]

٢. أخرج أبو نعيم الأصبهاني عن ابن عباس، قال: كنّا نتحدّث أن النبي ﷺ عهد إلىٰ علي سبعين عهداً لم يعهد إلىٰ غيره.[٢]

٣. أخرج النسائي بسنده عن ابن عباس عن علي، قال: كانت لي منزلة من رسول الله ﷺ، لم تكن لأحد من الخلائق، كنت أدخل علىٰ نبيِّ الله كلّ ليلة، فإن كان يصلّي سبّح فدخلت، وإن يكن يصلّي، أذن لي فدخلت.[٣]

٤. أخرج النسائي عن عليّ أيضاً أنه كان يقول: إذا سألت رسول الله ﷺ أُعطيت، إذا سكتّ ابتدأني.[٤]

٥. أخرج النسائي عن أمّ سَلَمة، أنها كانت تقول: والذي تحلف بـه أمّ سـلمة أنّ أقرب الناس عهداً برسول الله ﷺ علي ﵇.[٥]

٦. وقال أمير المؤمنين ﵇ في خطبته القاصعة الشهيرة، وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد، وعناية النبي ﷺ بإعداده وتربيته: وقد كنت أتّبعه اتباع الفصيل اثرَ أمه. يرفع لي في كل يوم من أخلاقه عَلَماً، ويأمرني بالاقتداء به.[٦]

إنّ هذه الشواهد وشواهد أخرىٰ كثيرة تجسّد هذه الحقيقة، وهي أن النبي ﷺ، كان منذ البداية يحمل هموم قيادة الأمة الإسلامية بعده، وأنه أعدّ علياً ﵇ إعداداً رسـالياً باعتباره أفضل الصحابة جميعاً لتولّي هذه المهمة، ولم يكتفِ ﷺ بذلك بل أعلن في مواطن كثيرة عن إمامته ﵇، والأحاديث التي تدلّ علىٰ ذلك، هي: حديث يـوم الدار، حديث الثقلين، حديث المنزلة، حديث الغدير، وأحاديث نبوية أخرىٰ.

١. المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٦٣، ح ٤٦٣٢، دارالكتب العلمية، بيروت؛ خصائص أمير المؤمنين ﵇، ص ١٦١.
٢. حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٨، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣. السنن الكبرىٰ، ج ٥، ص ١٤٠، ح ٨٤٩٩؛ كتاب الخصائص، ص ١٦٦، ١٦٧
٤. السنن الكبرىٰ، ج ٥، ص ١٤٢، كتاب الخصائص، ص ١٧٠، ١٧١؛ ونقله الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، المستدرك، ج ٣، ص ١٣٥، ح ٤٦٣٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١ هـ
٥. السنن الكبرى، ج ٥، ص ١٥٤، الباب ٥٤
٦. نهج البلاغة، خ ١٩٢

وانطلاقاً من ذلك، فإن التشيّع ليس ظاهرة فكرية طارئة في المجتمع الإسلامي، وإنّما هو بناء محكم يقوم علىٰ أسس ثابتة ومتينة تعتمد علىٰ واقعية الإسلام.

ثم أشار الشهيد الصدر إلىٰ كيفية نشوء الشيعة في ظلّ الخلاف الذي اشتدّ بين المسلمين بشأن خلافة الرسول ﷺ بعد وفاته، وقال:

والاتجاهان الرئيسان اللّذان رافقا نشوء الأمة الإسلامية في حياة النبي ﷺ منذ البدء، هما:

أولاً: الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالدين وتحكيمه والتسليم المطلق للنصّ الديني في كل جوانب الحياة.

وثانياً: الاتجاه الذي لا يرىٰ أن إيمانه بالدين يتطلّب منه التعبّد إلّا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات، ويؤمن بإمكانية الاجتهاد، وجواز التصرف علىٰ أساسه بالتغيير والتعديل في النصّ الديني وفقاً للمصالح في غير ذلك النطاق من مجالات الحياة... وقد قُدّر لهذا الاتجاه ممثلون جريئون من كبار الصحابة من قبيل عمر بن الخطاب الذي ناقش الرسول ﷺ واجتهد في مواضع عديدة خلافاً للنصّ إيماناً منه بأن له مثل هذا الحق.

ثم خلص إلى القول:

وهكذا نعرف أن الاتجاه الذي يمثل التعبّد بالنصّ يمثل الدرجة العليا من الانصهار بالرسالة والتسليم الكامل لها [الأمر الذي يفسّر لنا ظهور الشيعة كاستجابة لذلك الاتجاه] وأما الاتجاه الآخر في المسلمين الذي قام على الاجتهاد بدلاً عن التعبّد بالنصّ، فقد قُرّر [في السقيفة] عند وفاة الرسول الأعظم ﷺ تسليم المرجعية القيادية التي تمارس السلطة إلىٰ رجالات من المهاجرين، وفقاً لاعتبارات متغيّرة ومتحركة ومرنة.[1]

تقييم وتحقيق

يعد الاتجاه الثالث في تاريخ ومبدأ نشوء الشيعة أقوم الاتجاهات الثلاثة التي استعرضناها آنفاً، إلّا أن النظرية التي طرحها، المفكر الشهيد الصدر بشأن ولادة التشيع في عصر الرسالة، وظهور الشيعة بعد وفاة رسول الله ﷺ محلّ نقد وتأمل، لأن

١. راجع: نشأة التشيع والشيعة، ص ٦٣، ٧٩

الشواهد الحديثية والتاريخية تنمّ عن هذه الحقيقة، وهي أن إطلاق اسم الشيعة علىٰ جماعة خاصة كان قد تمّ في عصر الرسالة، وهذا لا يعني انشطار المسلمين إلىٰ شطرين: سنة وشيعة، بل يعني وجود جماعة اختصت بعليّ ولازمته، ورأت أنّ أقواله وأفعاله تجسيد تامّ لأقوال وأفعال رسول الله، فاتّبعوه ووالوه طاعةً لرسول الله واقتفاءً لاثره، وفي هذا الصدد، يقول الأستاذ كرد علي في «خطط الشام»:

> عُرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له، ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أُمر الناس بخمس، فعملوا بأربع وتركوا واحدة، ولمّا سئل عن الأربع، قال: الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحجّ، قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب، قيل له: وإنها لمفروضة معهنّ؟ قال: نعم، هي مفروضة معهنّ. ومثل أبي ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، حذيفة بن اليمان، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت، أبي أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد بن العاص، وقيس بن سعد بن عبادة.[١]

وقال أبو حاتم الرازي في كتاب الزينة:

> انّ لفظ الشيعة علىٰ عهد رسول الله كان لقب أربعة من الصحابة: سلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر.[٢]

وقال مؤلّف فرق الشيعة:

> فالشيعة فرقة علي بن أبي طالب المسمّوْن بشيعة علي في زمان النبي وما بعده، معروفون بانقطاعهم إليه، والقول بإمامته؛ منهم المقداد بن الأسود سلمان الفارسي وأبوذر جندب بن جنادة الغفاري وعمار بن ياسر، ومن وافق مودته مودة علي، وهم أول من سمّي باسم التشيّع من هذه الأمة.[٣]

من مجموع ما تقدم حول تاريخ الشيعة والتشيّع، يمكن أن نستخلص النقاط التالية:

١. التشيّع، هو الاعتقاد بالنصّ علىٰ خلافة علي وإمامته بلافصل.

٢. التشيّع، هو الاعتقاد بلزوم محبّة علي.

---

١. خطط الشام، ج ٦، ص ٢٥١، ٢٥٢؛ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٢٣٨

٢. نقلاً عن اعيان الشيعة، ج ١، ص ١٨، ١٩.

٣. فرق الشيعة، ١٧، ١٨

٣. التشيّع، هو الاعتقاد بأفضلية عليﷺ علىٰ سائر الصحابة.

٤. عُرفت جماعة من صحابة النبيﷺ بشيعة علي في عصر الرسالة.

٥. ظهور الخلافات في أوساط المسلمين بشأن خلافة النبي وإمامة المسلمين بعدهﷺ وميْل جماعة من المهاجرين والأنصار إلىٰ إمامة عليﷺ، الأمر الذي أدىٰ ظهور الشيعة كمذهب خاص في دنيا الإسلام.

والنقطة الأخيرة تُعدّ من مسلّمات التاريخ، وهي في غنىٰ عن سرد الشواهد التاريخية لدعمها، أما النقاط الأربع الأولىٰ، فقد تقدّم ذكر بعض الشواهد عليها، سنذكر شواهد أخرىٰ لإلقاء مزيد من الضوء على هذه المسألة:

النبيﷺ وإمامة عليﷺ

إن النصوص الدالة، علىٰ إمامة عليﷺ (وهي أعمّ من القرآن والسنّة) كثيرة للغاية، ولا يتيسر بيانها بشكل مفصّل في هذا الكتاب، إلّا أننا سوف نعود إليها في مناسبات أخرىٰ، وسنكتفي هنا ببيان أول النصوص الدالة علىٰ إمامتهﷺ، وهو «حديث الدار»:

نقل المحدثون والمؤرخون والمفسرون أنه لما نزلت آية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] علىٰ رسول اللهﷺ دعا بأربعين رجلاً من سراة بني هاشم ووجوههم، وبعد أن فرغوا من الطعام، قال رسول الله [بعد كلام له]:

يا بني عبدالمطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مماجئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله عزّ وجلّ أنأدعوكم إليه، فأيكم يؤمن بي ويؤازرني علىٰ هذا الأمر علىٰ أن يكون أخيووصيي وخليفتي فيكم.

ولما بلغ النبيﷺ إلىٰ هذا الموضع، وقد أمسك القوم وسكتوا عن آخرهم،قام عليﷺ فجأة، وقال: أنا يا رسول الله أكون وزيرك علىٰ ما بعثك الله،فقال له رسول الله: اجلس، ثم كرّر دعوته ثانية وثالثة، ففي كل مرة يحجمالقوم عن تلبية دعوته، ويقوم علي ويعلن استعداده لمؤازرة النبي ويأمرهرسول الله بالجلوس، حتىٰ إذا كان في المرة الثالثة، أخذ رسول الله بيدهوالتفت إلى الحاضرين من عشيرته الأقربين، وقال:

---

١. الشعراء، ٢١٤

إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.[١]

وقد ناقش بعضهم في سند الحديث المذكور، وقال: تفرّد بهذا السياق عبدالغفار بن القاسم (أبو مريم)، وهو متروك كذّاب، اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث،ضعّفه الأئمة.[٢]

المناقشة المذكورة لا أساس لها من الصحّة، لأن الحديث نُقل بطرق مختلفة، ولم ينفرد به عبدالغفار بن القاسم(أبو مريم)، حتىٰ أن الشيخ سليم البشري قال بعد أن تلقّىٰ جواب الإمام شرف الدين عن هذا الإشكال:

راجعت الحديث في ص ١١١ من الجزء الأوّل من مسند أحمد، ونقّبت عن رجال سنده، فإذا هم ثقات أثبات حجج، ثم بحثت عن سائر طرقه، فإذا هي متضافرة متناصرة يؤيّد بعضها بعضاً، وبذلك آمنت بثبوته.[٣]

كما وردت مناقشة أخرىٰ حول حديث يوم الإنذار، وهي أن الشيخين لم يخرجاه وكذلك غير الشيخين من أصحاب الصحاح والسنن.[٤]

والجواب، هو أنه إذا نُقل حديث بطرق كثيرة ومعتبرة، ولم ينقله أصحاب الصحاح والسنن، فلا يُعدّ هذا دليلاً علىٰ وهنه، بل إن ذلك مما يثير تساؤلاً لدىٰ طالب الحقيقة عن سرّ عدم نقل حديث معتبر كهذا؟ والسبب واضح، وهو أنهم رأوه ـ يصادم رأيهم في الخلافة ـ علىٰ حد تعبير الإمام شرف الدين ـ فأعرضوا عنه وعن كثير من النصوص الصحيحة، وخافوا أن تكون سلاحاً للشيعة فكتموها.[٥]

أما هؤلاء الذين انتهجوا سبيل الانصاف في هذا المجال، فقد بادروا إلىٰ نقلها دون أن يقعوا في شراك التعصب المذهبي المذموم.

١. انظر: مسند أحمد، ج ١، ص ١١١؛ تاريخ الطبري، ج ٢،ص ٢١٦؛ تاريخ ابن الأثير، ج ١، ص ٤٨٧؛ ابن ابيالحديد، شرح نهجالبلاغة ، ج ٣، ص ٢٦٧ (شرح خطبة القاصعة). وراجع حول مصادر هذا الحديث المراجعات، المراجعة ٢٠؛ غاية المرام، ج ٣، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٦.
٢. تفسير القرآن العظيم، ج ٥، ص ٢١٣
٣. المراجعات، المراجعة ٢٣. وقد صرّح أبو جعفر الإسكافي وهو من كبار علماء المعتزلة بصحة سند هذا الحديث. راجع في هذا الصدد: ابن أبي الحديد، شرح نهجالبلاغة، ج ٣، ص ٢٧٦.
٤. المراجعات، المراجعة ٢١ ٥. المراجعات، المراجعة ٢٢

نعم، التعصب المذهبي، هو أحد العوامل الرئيسية في إخفاء الحقائق في مسألة خلافة وإمامة علي‌ﷺ.

هذا التعصب لا يتلخص في الامتناع عن نقل أحاديث الإمامة، بل في كيفية نقلها أيضاً، فقد نقل بعضهم الحديث المذكور، واكتفىٰ منه بإيراد كلمة (أخي) دون أن ينقل كلمتي (وصيّي وخليفتي). يُذكر أن ابن كثير نقل الحديث من تفسير الطبري علىٰ هذا النحو:

فأيكم يؤازرني علىٰ هذا الأمر علىٰ أن يكون أخي وكذا وكذا.[١] أما الذي ورد في تاريخ الطبري، فهو كالتالي:

فأيكم يؤازرني علىٰ هذا الأمر علىٰ أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي.

كما أورد محمد حسين هيكل الحديث كاملاً في الطبعة الأولىٰ من كتابه حياة محمد، ولكنه حذف عبارة (وصيّي وخليفتي من بعدي) من الطبعات اللاحقة.

ومهما يكن من أمر، فإن النبي‌ﷺ كان يدعو إلىٰ إمامة علي‌ﷺ وخلافته إلىٰ جانب دعوة الناس إلى الإسلام والتوحيد، وهذا يعني أن ظهور الفكر الشيعي كان مرافقاً لظهور الإسلام، والنصوص الدالة علىٰ إمامة أميرالمؤمنين‌ﷺ لا تُحصىٰ، سنستعرضها في مبحث الإمامة بإذن الله تعالىٰ.

النبي‌ﷺ ومحبة أميرالمؤمنين‌ﷺ

تقدّم في مبحث اصطلاح الشيعة، أنّ أحد معانيها هو محبة أهل بيت الرسالة لا سيما علي بن أبي طالب‌ﷺ، فبالإضافة إلى الآيات والروايات التي تؤكد علىٰ محبة أهل بيت النبي‌ﷺ، وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله‌ﷺ تدلّ علىٰ لزوم محبة علي‌ﷺ، وقد بلغت حدّاً أن جعلت محبته معياراً للإيمان، وبغضه وعداوته علامة النفاق.

أخرج السيوطي عن ابن مردويه، وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري في قوله ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾،[٢] قال: ببغضهم عليّ بن أبي طالب.[٣]

---

١. تفسير القرآن العظيم، ج ٥، ص ٢١٣
٢. محمد، ٣٠
٣. الدر المنثور، ج ٧، ص ٤٤٣

ونقل ابن مردويه عن عبدالله بن مسعود قوله: ما كنّا نعرف المنافقين علىٰ عهد رسول‌الله ﷺ إلّا ببغضهم علي بن أبي طالب.[١]

أما النسائي (المتوفّىٰ ٣٠٣ هـ)، فقد عقد في كتابه خصائص أميرالمؤمنين ؑ باباً تحت عنوان (الفرق بين المؤمن والمنافق)، أورد فيه ثلاثة أحاديث عن رسول‌الله ﷺ، قال فيها: لا يحبّ علياً منافق، ولا يبغضه مؤمن.[٢]

وأفرد الخطيب الخوارزمي الباب السادس من كتابه المناقب لأحاديث محبة علي وأهل بيت النبي ﷺ، ونقل فيه نحو (٣٠) حديثاً.[٣]

وإليك مضامين بعض الأحاديث الواردة:

١. إني افترضت محبة علي بن أبي طالب علىٰ خلقي عامة.

٢. لو اجتمع الناس علىٰ حب علي بن أبي طالب لما خلق الله النار.

٣. يا علي لو أن عبداً عبدالله عزّوجلّ مثل ما قام نوح في قومه، وكان له مثل أحد ذهباً، فأنفقه في سبيل الله، ومدّ في عمره حتىٰ حجّ ألف عام علىٰ قدميه، ثم قُتل بين الصفا والمروة مظلوماً ثم لم يوالك يا عليّ لم يشمّ رائحة الجنة ولم يدخلها.

٤. من أحبّ علياً فقد أحبّني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني.

٥. إن ملك الموت يترحّم علىٰ محبّي عليّ بن أبي طالب كما يترحّم على الأنبياء.

٦. من زعمَ أنه آمن بي وبما جئت به، وهو يبغض علياً، فهو كاذب، ليس بمؤمن.

ونقل الشبلنجي الشافعي في كتابه نور الأبصار الحديثين التاليين عن صحيحي مسلم والترمذي.

١. أخرج مسلم عن علي ؑ أنه قال: والذي فلق الحبّة وبَرأَ النَّسَمة أنه لعهد النبي الأميّ أنه لا يحبني إلّا مؤمن ولا يبغضني إلّا منافق.

٢. أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري: كنّا نعرف المنافقين ببغضهم علياً.[٤]

١. المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٤٤

٢. خصائص أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب، ص ١٥٥ـ١٥٧، دارالثقلين، قم.

٣. الخوارزمي، المناقب، ص ٦٤ـ٧٩

٤. نور الأبصار، ص ١٦٠، منشورات الشريف الرضي، قم

إنّ الأحاديث المروية عن النبي ﷺ في لزوم محبّة علي بن أبي‌طالب عليه السلام كثيرة، لا يتّسع المجال لذكرها قاطبة،[1] وما استعرضناه منها كافٍ لإثبات ما نروم إثباته في هذا البحث.

فالمؤمن ـ علىٰ ضوء هذه الأحاديث ـ يعدّ محبّة علي عليه السلام فرضاً عليه، أما المنافق من تبع هواه وأُشرب قلبُه حبَّ الدنيا، فهو وإن كان مسلماً في الظاهر، ولكنه يُضمر البغض والعداء لأميرالمؤمنين عليه السلام، بل يشهّر به، الأمر الذي يفسّر لنا مقولة: حبّ علي بن أبي طالب علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق.

هذا الأمر دعا بجماعة من الصحابة إلى اظهار الحب والولاء لأميرالمؤمنين، اتباعاً لوصايا النبي ﷺ المكررة في حقّه، وتأكيده علىٰ مؤهّلاته وفضائله ومناقبه، ممّا حدا بها إلى اقتفاء أثره، والتأسّي بأقواله وأفعاله، لأن ذلك مما يُرضي رسول الله ﷺ، من هنا عُرف هؤلاء بشيعة علي عليه السلام.

النبيّ ﷺ وأفضلية علي عليه السلام

تتجلّىٰ لنا من الأحاديث المتقدّمة حقيقة أخرىٰ، وهي أفضلية أميرالمؤمنين عليه السلام علىٰ سائر الصحابة، لأنه عليه السلام طالما كان أحبَّ الناس إلىٰ رسول الله ﷺ، فمقتضىٰ ذلك ـ بعد ملاحظة أن حبّه وبغضه ﷺ يصدران عن عقل وحكمة لاعن دافع نفسي أو غريزي ـ أنه عليه السلام أفضل الناس بعده. وفضلاً عن هذه الأحاديث الكثيرة التي تدلّ ـ مطابقة أو التزاماً ـ علىٰ أفضليته عليه السلام، فإن هذا الأمر يتجلّىٰ أيضاً في آية المباهلة[2] التي جعلت علياً نفس النبي ﷺ.

ولما كان النبي ﷺ أفضل البشر، فلابد أن يتمتع من هو نفس النبي ﷺ بهذه الخصوصية أيضاً.

١. قام رجل في مجلس ابن عائشة، فقال: يا أبا عبدالرحمن من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ؟

---

١. راجع: محبّ‌الدين الطبري، الرياض النضرة، الباب الرابع؛ آية‌الله الميلاني، قادتنا كيف نعرفهم، ج ١.
٢. آل عمران، ٦١

فقال: أبوبكر وعمر وعثمان وعبدالرحمن وطلحة والزبير.

فقال الرجل: فأين علي بن أبي طالب؟

فقال ابن عائشة: تستفنيني عن أصحابه أم عن نفسه؟!

فقال الرجل: عن أصحابه؟

قال: إن الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[١] فكيف يكون أصحابه مثل نفسه.[٢]

٢. وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: ما تقول في التفضيل؟

قال: في الخلافة، أبوبكر وعمر وعثمان.

فقلت: فعليّ؟

قال: يا بُني، علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يُقاس بهم أحد.[٣]

٣. وقال رسول الله ﷺ لفاطمة الزهراء عليها السلام: يا فاطمة أما ترضَيْن أن زوجك خير أمتي، أقدمهم سَلماً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً.[٤]

٤. وعن ابن عباس، قال: أُتي النبي ﷺ بطائر، فقال: اللّهم ائتني بأحبّ خلقك إليك. فجاءه علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: اللّهم وإليّ.[٥]

٥. وعن جابر، قال: كنّا عند النبي ﷺ، وأقبل علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: قد أتاكم أخي، ثم التفت إلى الكعبة فضربها بيده، ثم قال: والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة، ثمّ قال: إنه أولكم إيماناً معي، وأوفاكم بعهد الله تعالىٰ، وأقومكم بأمرالله، وأعدلكم في الرعية، وأقسمكم بالسوية، وأعظمكم عندالله مزيّة. قال: ونزلت فيه «إنّ الذين آمَنوا وَ عَمِلوا الصّالحاتِ أولئِكَ هُمْ خَيْرُ

١. آل عمران، ٦١

٢. البيهقي، المحاسن، ج ١، ص ٣٩؛ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٥٧٤

٣. طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ١٢٠، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٥٧٤

٤. الخطيب الخوارزمي، المناقب، ص ١٠٦، ح ١١١

٥. المصدر السابق، ص ١٠٧، ١٠٨، ح ١١٣، ١١٤. يُذكر أن هناك بحوثاً موسّعة، تناولت حديث الطائر المشوي سنداً ودلالة، تجدها في كتاب عبقات الأنوار للعلامة السيد حامد الهندي.

البَرِيَّةِ». قال: فكان أصحاب النبيﷺ إذا أقبل علي، قالوا: قد جاء خير البرية.[1]

وصفوة القول: إن التشيع ظهر منذ الأيام الأولىٰ لبزوغ شمس الإسلام علىٰ يد رسول اللهﷺ، وترافقت، دعوته منذ البدء بدعوته للإمامة. هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإن أقوال عليّ وأفعاله كشفت عن شخصيته البارزة وفضائله وكمالاته، مما حدا بجماعة من الصحابة إلى الالتفاف حوله، عرفوا بشيعة علي بن أبي طالب، وقد خصّهم رسول اللهﷺ بالمدح أمام الملأ، وبشّرهم بالفوز في يوم القيامة.

وبعد رحيل النبيﷺ طُرحت مسألة خلافة رسول اللهﷺ، فاختار شيعة علي (الذين عُرفوا بهذا الاسم منذ عصر الرسالة) علياً للإمامة بلا فصل إيماناً منهم بالنصوص الدالة علىٰ إمامته وفضائله ومناقبه، واعتقدوا أن تسلّم بعض المهاجرين لمقاليد الخلافة، أمر لا تقرّه الشريعة ولكنّهم ـ مع ذلك ـ انتهجوا سبيل الصبر والمداراة (تأسياً بعلي) حفظاً لمصالح الإسلام والمسلمين، ولم يخطوا خطوة سوى الإصحار بالحق والحقيقة عبر البحث والاستدلال المنطقي، وقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يمدّون يدالعون إلى الخلفاء الذين سبقوا علياً، كلما كانت مصلحة الإسلام والمسلمين تقتضي ذلك.

١. المصدر السابق، ص ١١١، ١١٢، ح ١٢٠. وثمة بحوث مفصلة في الكتب الكلامية وغيرها حول أفضلية علي علىٰ سائر الصحابة، وهذا الاعتقاد لا يختصّ بالشيعة بل ذهب إليه العديد من علماء المعتزلة لا سيما معتزلة بغداد، وقد أشار ابن أبي الحديد إلىٰ ذلك في مناسبات مختلفة من كتابه شرح نهج البلاغة، وأبرز عالم معتزلي بحث هذا الموضوع. هو أبو جعفر الإسكافي في كتابيه نقض العثمانية للجاحظ، والمعيار والموازنة، وعرض وجوهاً متينة على أفضليته.

٣

فرضيات خاطئة حول تاريخ التشيّع ومبدأ ظهوره

مرّ في الفصل السابق الرأي الصائب عن تاريخ التشيّع ومبدأ ظهوره، واتضح أنّه يعود إلىٰ صدر الإسلام، وأنّ مؤسِّسه هو النبي ﷺ. كما أشرنا إلىٰ فرضيات أُخرىٰ في هذا المجال، طُرحت من قِبَل بعض الباحثين والمنظّرين، ووعدنا القرّاء ببحثها ومناقشتها في فصل مستقلّ، وها نحن نُنجز ما وعدناهم به.

ونَوَدّ ـ قبل استعراض الفرضيات المذكورة ونقدها ـ أن نذكّر بأنّ ما أُقيم من أدلّة ساطعة على الرأي المختار يُغنينا عن استئناف البحث فيها، ولكن بما أن هدف هـذا النوع من الأبحاث، هو تسليط المزيد من الأضواء عليها، لذا استدعت الحـاجة إلىٰ تناولها بحثاً وتمحيصاً.

عبد الله بن سبأ

ذهب بعض الباحثين إلىٰ أنّ مبدأ ظهور التشيّع يعود إلىٰ شخص يُدعىٰ عبد الله بن سبأ، كان يهودياً ثم تظاهر بالإسلام في خلافة عثمان، ودعا إلىٰ إمامة علي عليه السلام بلا فـصل، مستهدفاً بذلك القضاء على الإسلام، واعتبر العصمة من شرائط الإمام، وبهذا المـنحىٰ ألبس الإمامة الّتي كانت في الأصل مسألة ساسية. ألبسها ثوب القداسة، ولم يكتفِ بذلك، بل طرح قضية غصب الخلافة من قِبَل الخلفاء الثلاثة، ودعا الناس إلىٰ الخروج على الخليفة، الأمر الّذي انتهىٰ إلىٰ مقتله علىٰ يد الثائرين.

وعلىٰ هذا الأساس، يُعدّ مذهب التشيّع من إبداعـاته، لا أنّ مـبدأه هـو الكـتاب والسنّة، وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام وكبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ومواقفهم.[١]

وهذه الفرضية لا تصمد أمام النقاش من عدّة وجوه:

١. يلزم من هذه الفرضية أنّ جهاز الخلافة الإسـلامية كـان غـافلاً عـن الوقـائع والأحداث الّتي تحيط به، غيرَ مكترث لمصير الإسلام، عاجزاً عن مواجهة المؤامرات، في حين أثبتت الوقائع التاريخية صـرامـة مـوقف الخـليفة وجـهاز حكـومته تـجاه المعارضين الذين كانوا من كبار الصحابة، فقد تمّ نـفيُ أبـيذر الغـفاري إلىٰ الربـذة، وضربُ عمار بن ياسر ضرباً مبرّحاً!!

أفيصحّ ـ مع هذه الحال ـ سكوت جهاز الخلافة عن مؤامرة خطيرة كـهذه الّـتي يدّعيها أنصار هذه الفرضية، وعدمُ اتخاذ موقف حازم تجاهها؟!

وكيف يمكن تبرير ذلك؟ أليس في هذا دليل واضح علىٰ خطل هذه الفرضية وتهافتها؟

٢. توجّه هذه الفرضية ـ إلىٰ جانب تشكيكها بمصداقية جهاز الخـلافة وشـخص الخليفة بالذات ـ نقداً لاذعاً للأمة الإسلامية بوجه عام، ولكبار الصحابة بوجه خاص، إذ كيف يغفل المسلمون عن هذه المؤامرة الخطيرة الّتي يحوكها يهودي، حتىٰ يصبحوا ألعوبة بيده؟! لاسيمّا وأن قصّته المفتعلة تتحدث عن شخصيات بارزة ـ كأبيذر وعمّار ومالك الأشتر ومحمد بن حذيفة وصعصعة بن صوحان ومحمد بن أبيبكر ـ وقـعت تحت تأثير فتنته الكبرىٰ، فلعبت دوراً هاماً علىٰ مسرح الأحداث، وأججت نائرة قتل عثمان وواقعة الجمل.

٣. إذا كان ثمة وجود واقعي لعبد الله بن سبأ بالصفات والخصوصيات الّتي ذُكرت له، فَلِمَ لم يردْ ذكرٌ لهذا الرجل ولهذه القصة في أقوال وكتابات خصوم العلويين الذين لم يألوا جهداً في تشويه سمعتهم، وتسخير ذلك لصالحهم. وبلا شك، لو كان لعبد الله بن سبأ وجود واقعي لاستغل ذلك معاوية وأتباعه وعماله قـبل غـيرهم لقـمع العـلويين

١. اختار هذا الرأي محمد رشيد رضا في كتابه السنّة والشيعة، ص ٤ ـ ٦؛ ومحمد أبو زهـرة فـي كتابه المذاهب الإسلامية، ص ٤٦. راجع: نشأة التشيع، ص ٥٠، ٥١؛ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٦، ص ٤٥٦ ـ ٤٦٠؛ بحوث في الملل والنحل، ج ٦، ص ١٢٧، ١٢٨.

والشيعة، في حين خلت الوثائق التاريخية حتىٰ من الإشارة إلىٰ هذا الموضوع.

٤. يحتفي أتباع وأنصار أيّ مذهب ـ عادة ـ بالشخص أو الأشخاص الذين يكون لهم دور مؤثّر في ظهور المذهب أو تعزيزه وبسط نفوذه. هذا في وقت نرىٰ فيه كبار علماء الشيعة ـ وبدون استثناء ـ إمّا أن يشكّكوا في أصل وجود عبد الله بن سبأ، أو يذكروه بالطعن واللعن.

٥. نقل معظم المؤرخين كابن الأثير وأبي الفداء وابن كثير، قصة عبد الله بن سبأ عن الطبري، وهو بذوره نقلها عن سيف بن عمر التميمي المتهم بوضع وجعل الحديث.[١] وقد ألّف كتابين في تاريخ الإسلام،[٢] دسّ فيهما وقائع مفتعلة لا أساس لها من الصحة، كأسطورة عبد الله بن سبأ.

٦. تحدثت الروايات الشيعية وكتب الملل والنحل عن عبد الله بن سبأ باعتباره رجلاً غالياً كان يقول بألوهية علي ﷺ، وقيل إن الإمام ﷺ واجهه بشدة، وأمر بنفيه أولاً، ثم أمر بقتله. من هنا عُرفت فرقة من الغلاة باسم السبئية، ومن الواضح أنها لا تمتّ بصلة لأسطورة عبد الله بن سبأ الّتي نقلها الطبري.

وصفوة القول أنّ فرضية ظهور الشيعة علىٰ يد عبد الله بن سبأ لا تدعمها الوثائق التاريخية الصحيحة، ولا تتسق مع الوقائع التاريخية والاعتبارات العقلائية، وفي الحقيقة إنها ليست إلّا مجرد اسطورة.[٣]

١. قال الحاكم النيسابوري بشأنه: أُتِهِمَ بالزندقة وهو في الرواية ساقط، وقال ابن معين: ضعيف الحديث فليس خير فيه، وقال النسائي: متروك، وقال السيوطي: وضّاع. راجع في هذا الصدد: بحوث في الملل والنحل، ج ٦، ص ١٣٣.

٢. وهما الفتوح والردّة؛ الجمل ومسير عائشة وعلي.

٣. راجع ـ حول أسطورة عبد الله بن سبأ ـ الكتب التالية:

العلامة كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها؛ العلامة الأميني، الغدير؛ الدكتور طه حسين، علي وبنوه؛ الدكتور أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامة؛ الدكتور أحمد محمود صبحي، في علم الكلام ج ٣؛ العلامة العسكري، عبد الله بن سبأ؛ العلامة محمد جواد مغنية، الشيعة والتشيع؛ آية الله السبحاني، بحوث في الملل والنحل (ج ٦)؛ السيد طالب الخرسان، نشأة التشيع ؛ أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة (ج ٦)؛ هاشم معروف الحسيني، الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ص ١٢١ ـ ١٢٥.

عهد خلافة الإمام عليﷺ

ذهب بعضهم إلىٰ أن تاريخ ظهور التشيع يعود إلى عهد خلافة الإمامﷺ، وقد قُرّر هذا الرأي بوجهين: الأول: أنّه يعود ـ علىٰ وجه التحديد ـ إلىٰ وقعة الجمل، الثّاني: أنّه يعود إلىٰ وقعة صفين.

الأوّل: وقعة الجمل

ومستند هذا الرأي هو عبارة ابن النديم في الفهرست، وإليك نصّها:

> قال محمد بن إسحاق: لما خالف طلحة والزبير عليّﷺ، وأبيا إلّا الطلب بدم عثمان بن عفان، وقصدهما عليﷺ ليقاتلهما حتىٰ يفيئا إلىٰ أمر الله جلّ اسمه، تسمّىٰ من اتبعه علىٰ ذلك، الشيعة، فكان يقول: شيعتي، وسمّاهمﷺ الأصفياء، الأولياء، شرطة الخميس، الأصحاب.[1]

وهذا الرأي ضعيف من عدة جهات:

الأُولىٰ: سبق أبو عبد الله البرقي، ابنَ النديم[2] إلى القول في رجاله: أربعة أصناف من أتباع أمير المؤمنين، وعدّ سلمان الفارسي ومقداد بن الأسود وأباذر الغفاري في طبقة الأصفياء.[3]

وبما أنّ سلمان وأباذر قد توفّيا قبل وقعة الجمل، فهذا يعني أنَّ إطلاق الشيعة على أتباع وأنصار أمير المؤمنينﷺ، كان معروفاً قبل ذلك الوقت.

الثانية: إن كلام ابن النديم لا يُركن إليه، لأنّه لا يتفق مع الأدلة والشواهد الّتي أُقيمت على الفرضية الأولىٰ، لاسيما وان احتمال وقوع التحريف والتصحيف قائم.

الثالثة: ما يمكن أن يقال في توجيه هذا الرأي؛ هو أن ظهور الشيعة سبق معركة الجمل بعقود من الزمن، إلّا أن طروء ظروف ومستجدات سياسية واجتماعية إبّان المعركة المذكورة أدىٰ إلىٰ تعزيز كيانها.

الثاني: وقعة صفين

ثمة رأيٌ آخر يذهب إلى أن ظهور الشيعة كان في عهد الإمام عليﷺوبالتحديد بعد وقعة صفين ومسألة التحكيم، وذلك إثر الانشقاق الذي حصل بين أتباع الإمامﷺ،

١. الفهرست، ٢٤٩ ٢. رجال البرقي، ص ٣

٣. توفّي ابن النديم عام ٣٧٨ هـ وتوفّي البرقي عام ٢٧٤ هـ أو ٢٨٠ هـ

وفرّقهم إلى جماعتين: الخوارج الذين رجعوا من صفين وأقاموا بحروراء (بالقرب من الكوفة)، وجماعـة أُخرىٰ كانت قد وردت الكوفة مع أمير المؤمنين، وجدّدت بيعتها له، وأكدت ولاءها لأوليائه ومعاداتها لأعدائه.

وقد اختار هذا الرأي مونتغمري وات[1] اعتماداً على كلمات الطبري في هذا الشأن:

لما قدم عليّ الكوفة وفارقته الخوارج وثبتْ إليه الشيعة، فقالوا: في أعناقنا بـيعة ثانية، نحن أولياءُ من واليْتَ، وأعداءُ مَن عاديْتَ.[2]

يُذكر أن ظاهر عبارة الطبري (وَ ثَبَتْ إليه الشيعة) تدلّ عـلى أن جـماعة عُـرفت بالشيعة، تسلّلت من بين صفوف جيش الإمام، وجدّدت بيعتها له. وهذا الأمر يتفق مع الأدلة والشواهد الّتي أُقيمت على الرأي الأوّل والثاني.

وخلاصة القول إن وقعة صفين كنظيرتها وقعة الجمل، كان لها أثر عميق في تعزيز الكيان الشيعي، إلّا أنها لم تكن سبباً لظهور الشيعة.

وقال بعضهم في بيان هذا القول إن الخوارج هم أول من أثار مشكلة الإمامة علىٰ مستوى المبادئ لا الأشخاص، فجاءت عقائد الشيعة ردّ فعل لآراء الخوارج. لقد أعلن الخوارج أن (لا حكم إلّا لله) فجاءت القضية الأولىٰ في الإمامة لدى الشيعة وجـوب نصب الإمام. لقد اتهموا علياً أنّه حكّم هواه في التحكيم، فأعلن الشيعة عصمة الإمام ووجوب موالاته. لقد كفّره الخوارج فقدّسه الشيعة. لقد أعلنوا أن الإمامة غير مقتصرة علىٰ قريش أو على العرب، فأعلن الشيعة النصّ على عليّ وعلى الأئمة من ذريّته.[3]

هذا التفسير هو أشبه بالاجتهاد مقابل النصّ، لأن عقائد الشيعة ترتكز على نـصّ الكتاب والسنة والعقل الحصيف، وكانت معروفة لدى كبار الشيعة منذ البدايـة، وقـد استعرضنا طائفة منها في الفصل السابق، وستليها طائفة أُخرىٰ في الأبحاث القادمة.

وللإمام أمير المؤمنين كلام يقول فيه:

١. نشأة التشيع، ص ٣٧، نقلاً عن:
Watt,W.M, *islam and the integration of society*, London 1961 . P . 104.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٦

٣. أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، ج ٣، ص ٢٥

[١.١] «لا يقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحد، ولا يُسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً»؛

[١.٢] «هم أساس الدين وعماد اليقين»؛

[١.٣] «إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي»؛

[١.٤] «ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة».[١]

والخلاصة إنّ الأحداث الاجتماعية والسياسية كظهور الخوارج على مسرح الأحداث، كرّست عقائد الشيعة، وفتحت باباً للنقاش والجدال الكلامي، لا أنها كانت منطلقاً لنشوء الشيعة.

بعد فاجعة كربلاء

يتضح من خلال نقد الفرضية السابقة، تهافت فرضية نشوء الشيعة عقب فاجعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام.[٢]

نعم، لاشكّ في أن فاجعة كربلاء كانت منعطفاً هاماً في الحياة السياسية والروحية للشيعة، إلّا أنها انطلقت كتعبير حيّ عن عقائد الشيعة الّتي نشأت في عصر الرسالة، وطوت مراحل تاريخية حتى اتضحت معالمها زمن حادثة كربلاء.

وقد تطرّق بعض الباحثين إلى أكثر من ذلك، حين قسّم التشيع إلى ثلاث مراحل، معتبراً المرحلة الثالثة الّتي أعقبت فاجعة كربلاء مبدأً لنشوء الشيعة، وهذه المراحل، هي:

١. التشيع الروحي، أي حبّ علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد غُرست بذرته الأُولى في عهد النبي ﷺ، ومنشأُه أحاديث عن النبي ﷺ بشأن ولايته عليه السلام كحديث يوم الدار أو بدء الدعوة، وحديث الغدير.

٢. التشيّع السياسي، أي كون علي عليه السلام أحقّ بالإمامة لا لأجل النصّ بل لأجل مناقبه وفضائله، وقد ظهرت بوادر ذلك في سقيفة بني ساعدة.

١. نهج البلاغة، خ ٢

٢. اختار هذا الرأي كامل مصطفى الشيبي في كتابه الصلة بين التصوف والتشيع. راجع: نشأة التشيع، ص ٤٢؛ واختصاره ايضاً الدكتور علي سامي النشار، ج ٢، ص ٣٤.

٣. التشيّع كفرقة من الفرق الإسلامية، فإنما كان بعد فاجعة كربلاء سنة (٦١ هـ)، ولم يظهر التشيّع قبل ذلك بصورة فرقة دينية تعرف بالشيعة.[١]

هذا الرأي لا يمكن الركون إليه، نظراً للأدلة الّتي أُقيمت للردّ على الآراء السابقة والّتي تثبت بأنّ إصطلاح الشيعة قد عُرف منذ عصر الرسالة، واشتهر بعض الصحابة بهذه التسمية، وقد وقفوا إلى جانب علي عليه السلام حينما استفحل الخلاف في أمر الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يستندوا في محاجاتهم إلى أفضلية عليّ عليه السلام على سائر الصحابة فحسب، بل استدلّوا بالنصّ أيضاً، ويتضح ذلك من احتجاجات ومناظرات إثني عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار على أبي‌بكر.[٢] من هنا فالتحليل المذكور لا يتفق مع الوقائع التاريخية والإسلامية، وقد كتب المفكر الشهيد الصدر في نقد هذه النظرية يقول:

> والحقيقة أن التشيع لم يكن في يوم من الأيام منذ ولادته مجرد اتجاه روحي‌بحت، وإنما ولد التشيع في أحضان الإسلام بوصفه أطروحة مواصلةالإمام علي للقيادة بعد النبي صلى الله عليه وآله فكرياً واجتماعياً على السواء، ولم يكن‌بالامكان بحكم هذه الظروف الّتي استعرضناها أن يفصل الجانب الروحي‌عن الجانب الاجتماعي في أطروحة التشيع تبعاً لعدم انفصال أحدهماعن الآخر في الإسلام.[٣]

الإيرانيون والتشيّع

ذهب بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأن التشيع ظاهرة فارسية اخترعتها الذهنية الإيرانية، وقد تبنّىٰ ذلك بعض كتّاب أهل السنة المتطرّفين وبعض القوميّين الإيرانيين.[٤] والوجوه الّتي استُعرضت لإثبات هذه الفرضية، هي كالتالي:

١. الدكتور عبد الله فياض، تاريخ الإمامية،ص ٣٨ـ٤٧
٢. انظر: الصدوق، الخصال، أبواب الإثني عشر، ح ٤.
٣. نشأة التشيع والشيعة، ص ٩١، ٩٢
٤. اختار هذا الرأي من المستشرقين: كونت غوبينو وادوارد براون، ومن كتّاب أهل السنة: أحمد أمين المصري في كتاب فجر الإسلام؛ ومن القوميّين الإيرانيين: پرويز صانعي في كتاب قانون وشخصيت. راجع في هذا الصدد: مرتضى المطهري، خدمات متقابل إيران وإسلام، ج ١، ص ١٢٨ ـ ١٣١.

الأوّل: إن الوصية والوراثة في مسألة الإمامة (وهي من العقائد الأساسية للمذهب الشيعي) كانت رائجة في الثقافة الإيرانية، حيث تعدّ من أعمدة النظام الشاهنشاهي في إيران، بينما كانت تجهلها الذهنية العربية بالمرّة.

الثاني: إن الاحترام الذي يكنّه الإيرانيون لأئمة الشيعة عليهم السلام نشأ من دافع وطني، نظراً لاقتران الإمام الحسين عليه السلام بشهربانو بنت يزدجرد الثالث، ومنه عليه السلام كان بقية الأئمة الأطهار عليهم السلام

الثالث: إن هزيمة الإيرانيين أمام جيوش الإسلام وخضوع بلادهم لها، أثار عقدة الحقارة والحقد في قلوبهم حيال المسلمين العرب، فأخذوا يتربصون بهم الدوائر للثأر منهم، وقد حققوا هذا الهدف عبر إظهار عقائد خاصة للشيعة في الإمامة وغيرها، الأمر الذي يفسّر لنا الاختلاف بين عقائد الفريقين.

وتواجه هذه الفرضية عدّة نقود، منها:

١. إنّ الاعتقاد بالوصية في الإمامة يستند إلى أحاديث شريفة وردت بشأنها، وإلى كلمات الإمام علي عليه السلام، وقد مرّت الإشارة إليها فيما سبق، لذا فإن هذا الإعتقاد منبثق عن مصادر إسلامية لاعن رؤية يتبنّاها نظام الحكم الشاهنشاهي عند الإيرانيين.

٢. إنّ أهم المناطق الجغرافية الّتي يستوطنها الشيعة في صدر الإسلام كانت عربية، كالحجاز والعراق واليمن، ولم تكن إيران من ضمنها. كما أنّ معظم شيعة علي عليه السلام كانوا من العرب، ولو ألقينا نظرة إلى الذين إلتحقوا بصفّ علي في حروب الجمل وصفّين والنهروان، لوجدنا أن غالبيتهم من العرب.

٣. تكشف الوثائق التاريخية أنّ الإيرانيين إعتنقوا في بداية الأمر الإسلام ذا الإتجاه السنّي، ثم انتشر التشيّع في أوساطهم شيئاً فشيئاً لأسباب؛ منها هجرة الشيعة إليها من أصقاع إسلامية كالحجاز والعراق وعكوفهم على نشر التشيع فيها. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان:

> قُمْ مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها، وأوّل من مصّرها طلحة بن الأحوص الأشعري، وكان بدو تمصيرها في أيام الحجّاج بن يوسف سنة (٨٣هـ)، وذلك أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس كان

أمير سجستان من جهة الحجّاج، ثم خرج عليه، فلما انهزم ابن الأشعث ورجع إلى كابل منهزماً كان في حملته أخوةٌ يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن وإسحاق ونُعيم، وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعري، وقعوا إلىٰ ناحية قم، وكان هناك سبع قرىٰ اسم إحداها كمندان، فنزل هؤلاء الأخوة علىٰ هذه القرىٰ حتى افتتحوها واستولوا عليها وانتقلوا إليها واستوطنوها، واجتمع عليهم بنو عمّهم، وصارت السبع قرىٰ سبع محال بها، وسمّيت باسم إحداها كمندان، فأسقطوا بعض حروفها، فسمّيت بتعريبهم قمّاً، وكان متقدم هؤلاء الأخوة عبد الله بن سعد، وكان له ولد قد ربّي بالكوفة، فانتقل منها إلى قم، وكان إمامياً، فهو الذي نقل التشيّع إلى أهلها، فلا يوجد بها سنّي قط.[1]

ويقول محمد أبو زهرة في هذا الصدد:

إن الفرس تشيّعوا على أيدي العرب، وليس التشيّع مخلوقاً لهم. ويضيف: وأمّا فارس وخراسان وما وراءهما من بلدان الإسلام فقد هاجر إليها كثيرون من علماء الإسلام الذين كانوا يتشيّعون فراراً بعقيدتهم من الأمويّين أولاً ثم العباسيّين ثانياً، وأن التشيّع كان منتشراً في هذه البلاد انتشاراً عظيماً قبل سقوط الدولة الأموية.[2]

٤. والدليل الآخر علىٰ خطل هذه الفرضية، هو أنّه بالإضافة إلى أن الأئمة الإثني عشر للشيعة هم من أصل عربيّ، فإنّ العديدَ من علماء الشيعة ينتمون إلى بيوت عربية عريقة كآل أعيَن، وآل عطية، وبني درّاج، والشيخ المفيد، والسيد المرتضىٰ، والمحقق الحلّي، والعلّامة الحلي، وابن طاووس، وابن إدريس، والفاضل المقداد، والشهيد الأوّل، والشهيد الثاني، وغيرهم. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن جلّ أئمة المذاهب الأربعة وأصحاب السُنن والصحاح، كانوا من الموالي غير العرب.[3]

٥. إنّ لازم هذه الفرضية أن يكنّ الإيرانيون احتراماً عميقاً لأُمّ الإمام السجّاد عليه السلام يفوق احترام أمّهات سائر الأئمة عليهم السلام غير الإيرانيات، في حين أن الأمر ليس كذلك، بل تحظىٰ نرجس خاتون (الجارية الرومية) أُم الإمام الثاني عشر بإحترام أكثر.

---

١. معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٩٤

٢. الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ص ٥٤٥

٣. أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٢؛ نشأة التشيع، ص ٤٧ـ٩٧

وبغضّ النظر عن كلّ ما قيل، فإن الفرضية المذكورة ينفرط عقدُ صدقها في حقّ الإمامين علي والحسن عليهما السلام.

وإذا كان الإيرانيون يُضمرون احتراماً متزايداً لأئمة الشيّعة، لإنتسابهم إلى السلسلة الساسانية، فينبغي للدليل ذاته أن يضمروا نفس الاحترام لآل أُميّة، فإن إحدىٰ حفيدات يزدجرد وتدعى (شاه آفريد) وقعت أسيرة في إحدى المعارك الّتي خاضها قتيبة بن مسلم في عهد الوليد بن عبد الملك، واقترن بها الوليد، وأنجبت له يزيد بن الوليد المعروف بيزيد الناقص.

بل إن انتساب يزيد بن الوليد إلى آل ساسان من المسلّمات التاريخية، بينما ساورت بعض المؤرخين الشكوك بشأن اقتران الحسين عليه السلام بشهربانو بنت يزدجرد الساساني بعد اتفاقهم جميعاً على اقتران الوليد بشاه آفريد.[1]

٦. إن عقائد الشيعة لاسيما مباحث الإمامة ترتكز على الكتاب الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام والعقل الحصيف.

وإذا ما نظرنا بعين الإنصاف إلى تلك المسألة، فإنَّه يلزم القول بأنّ الإسلام الأصيل قد تبلور في التشيّع، وعند ذاك ستنكشف حقيقة الزعم بأنّ الإيرانيين، استهدفوا عن طريق التشيّع الإسلام والمسلمين، وسيتضح أنّ ذلك ليس إلّا محض افتراء على الشيعة.

٧. تؤكد الشواهد التاريخية الحقيقة التالية؛ وهي أن اعتناق الإيرانيين للإسلام لم يكن بدافع الخوف والرهبة، بل بدافع الرضا والرغبة، فهم قد دخلوا فيه إيماناً بأحقيّة تعاليمه أوّلاً، وأملاً في التحرّر من جور السلسلة الساسانية الّتي كانت تتخبّط في أزمات حادّة ثانياً.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ أحكام الإسلام وتعاليمه المبنية علىٰ روح العدالة والمساواة من جهة، واستفحال الظلم والتعسف والفساد في النظام الساساني من جهة أُخرىٰ، أدّت إلى غياب روح المواجهة والمقاومة لدى الإيرانيين، الأمر الذي يفسّر لنا سهولة فتح إيران.

وإذا تجاوزنا ذلك، ففتح بلاد إيران من قبل جيوش الإسلام أتاح الفرصة للإيرانيين

١. مرتضى المطهري، خدمات متقابل إسلام وإيران، ج ١، ص ١٤١_١٤٣

للتعبير بكامل حريتهم عن نوع الدين الذي يرغبون في الانتماء إليه، فإمّا أن يختاروا الإسلام، أو أن يبقوا على دينهم مقابل دفع الجزية، وحالهم في ذلك حال أتباع سائر الديانات السّماويّة، دون أن يكون هناك عنصر ضغط وإجبار على اعتناق الدين الجديد.

يقول ادوارد براون:

> في الحقيقة، البحث عن الإنتصار الذي حقّقه الإسلام على ديانة زرادشت،أصعب بمرّات من البحث عن سقوط الإمبراطورية الساسانية بيدالعرب واستيلائهم على ممتلكاتها، فقد تبدو لأوّل وهلة قسوة تعامل‌المقاتلين مع أقوام البلاد المفتوحة عنوة عبر جعلهم أمام خيارين لا ثالث‌لهما؛ إمّا القرآن وإمّا السيف. بيْدَ أنّ هذا التصور مجانب للحقيقة، فقد أُجيزلأتباع الدولة الإسلامية من غير المسلمين (كاليهود والمسيح والمجوس)الإقامة على دينهم بشرط دفع الجزية، وهذا أوفق بأصول العدل،نظراً لإعفائهم من دفع ضرائب الخُمس والزكاة المفروضة على أمّةمحمّد، وإسقاط الجهاد عنهم.[1]

١. تاريخ ادبيات ايران، ج ١، ص ٢٩٧؛ وراجع للمزيد من الاطلاع علىٰ دوافع تشيّع الايرانيين ونقد الفرضيات الخاطئة: خدمات متقابل اسلام ايران، ج ١، ص ١٢٨ ـ ١٥٤.

٤

الشيعة في عهد الخلفاء

بدأت المرحلة الأولىٰ لتاريخ الشيعة السياسي والاجتماعي بعد وفاة رسـول الله ﷺ واستمرت إلى مقتل أمير المؤمنين ؑ، حيث طُرحت فيها مسألة الخلافة والإمامة كأهمّ قضية سياسية ودينية تواجه دنيا الإسلام، والّتي أسفر إحتدام الجدل حولها إلى انقسام الصحابة إلى جماعتين: الأُولىٰ آمنت بالإمامة ونادت بالنصّ على الإمام أُطلق عليها اسم الشيعة، والثانية اجتمعت في سقيفة بني ساعدة وتدارست الموقف لانتخاب خليفة للمسلمين، وبعد اللتيا والّتي بايع أغلب الحاضرين أبابكر كخليفة، وبهذا النحو تـولّىٰ أبابكر زمام أُمور المسلمين، ودامت خلافته سنتين وسبعة أشهر.

وقد امتنع أمير المؤمنين ؑ وأتباعه عن بيعة أبي‌بكر، وأعرب عن موقفه من البيعة في مناسبات مختلفة لاسيّما عندما جيء به إلى أبي‌بكر لغرض البيعة، فقال ؑ:

أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أُبايعكم وأنتم أولىٰ بالبيعة لي»[1] وفي خضم ذلك تكلّم أبو عبيدة بن الجراح طالباً من الإمام ؑ مبايعة أبي‌بكر، فردّ عليه الإمام ؑ بكلام ألمح فيه إلى أن الخلافة حقّ له ولأهل بيته ؑ، وقال:

«فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به، لأنّا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم، ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العـالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعيّة، المدافـع عـنهم الأمـور السـيّئة، القـاسم بينهم بالسويّة، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوىٰ فتضلّوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحق بُعداً.[2]

١. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٨

٢. المصدر السابق، ج ١، ص ١٩

كما سار أتباع عليﷺ من المهاجرين والأنصار على نفس هذا النهج، وحاججوا أبابكر في إمامة عليﷺ بلا فصل، وقد نقل الشيخ الصدوق أسماء (١٢) رجلاً منهم.[١]

وبالتأكيد فإن عدد المحتجّين لم يقتصر على هؤلاء الإثني عشر، لأنّ عبارة (وغيرهم) وردت بعد الإشارة إلى أسمائهم، كما وردت عبارة «فقام جماعة بعده فتكلموا بنحو هذا» عقب احتجاج زيد بن وهب.

ومهما يكن من أمر، فإن أبابكر لما صعد المنبر، تشاوروا بينهم في أمره، فقال بعضهم: هلّا نأتيه فننزله عن منبر رسول اللهﷺ، وقال آخرون: إنْ فعلتم أعنتم على أنفسكم، ولكن أُمضُوا بنا إلى علي بن أبي طالب نستشيره ونستطلع أمره. فلما جاؤوا إلى الإمامﷺ، وأخبروه بما عقدوا العزم عليه، قالﷺ لهم:

لو فعلتم ذلك ما كنتم إلّا حرباً لهم، ولكن أئتوا الرجل فأخبروه بما سمعتم من نبيّكم ولا تجعلوه في الشبهة من أمره، ليكون ذلك أعظم للحجة عليه، وأبلغ في عقوبته إذا أتىٰ ربّه وقد عصىٰ نبيّه وخالف أمره.

فانطلقوا حتىٰ حفّوا بمنبر رسول اللهﷺ ثمّ احتجّوا علىٰ أبي‌بكر واحداً تلو الآخر بمحاججات لا يتسع المجال لذكرها، ولكننا سنكتفي بنقل محاورها الرئيسية:

١. خالد بن سعيد: قال النبيﷺ: إنّ عليّاً أميركم من بعدي، وخليفتي فيكم، إنّ أهل بيتي هم الوارثون أمري والقائمون بأمر أُمّتي.

٢. أبوذر الغفاري: قال رسول اللهﷺ: الأمر لعليٍّ بعدي ثم الحسن والحسين ثم في أهل بيتي من ولد الحسين.

٣. سلمان الفارسي: تركتم أمر النبيﷺ وتناسيتم وصيته، فعمّا قليل يصفوا إليكم الأمر حين تزوروا القبور.

٤. المقداد بن الأسود: قد علمت هذا الأمر لعليّ، وهو صاحبه بعد رسول اللهﷺ.

١. وهم، خالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن الأسود، وعمّار بن ياسر، وأبوذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وبريدة الأسلمي (وهؤلاء من المهاجرين)، وخزيمة بن ثابت، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الهيثم بن التيّهان، وزيد بن وهب (وهؤلاء من الأنصار).

٥. بُريدة الأسلمي: يا أبابكر، أما تذكر إذ أمرنا رسول‌الله‌ﷺ وسلّمنا علىٰ عليّ بإمرة المؤمنين.

٦. عبد الله بن مسعود: علي بن أبي طالب صاحب هذا الأمر بعد نبيّكم، فأعطوه ما جعله الله له، ولا ترتدّوا علىٰ أعقابكم فتنقلبوا خاسرين.

٧. عمّار بن ياسر: يا أبابكر لا تجعل لنفسك حقّاً، جعله الله عزّوجلّ لغيرك.

٨. خزيمة بن ثابت: إنّي سمعت رسول الله‌ﷺ يقول: أهل بيتي يفرّقون بين الحق والباطل، وهم الأئمّة الذين يُقتدىٰ بهم.

٩. أبو الهيثم بن التيّهان: قال النبيﷺ: اعلموا أنّ أهل بيتي نجوم أهل الأرض، فقدّموهم ولا تقدَموهم.

١٠. سهل بن حنيف: إنّي سمعت رسول الله‌ﷺ قال: إمامكم من بعدي عليّ بن أبي طالب، وهو أنصح الناس لأُمّتي.

١١. أبو أيوب الأنصاري: قد سمعتم كما سمعنا في مقام بعد مقام من نبيّ الله‌ﷺ إنّه ـ يعني علياًؑ ـ أولىٰ به منكم.

١٢. زيد بن وهب، قام وتكلّم، وقام جماعة من بعده فتكلّموا بنحو هذا.[١]

ولمّا دنا من أبي‌بكر الأجلُ، عَهَدَ بالخلافة إلى عمر في الكتاب الذي أملاه علىٰ عثمان ـ طبقاً لما أورده ابن قتيبة ـ ثم أمر أن تجتمع له الناس، فاجتمعوا، فقال: أيّها الناس قد حضرني من قضاء الله ما ترون، وإنّه لابدّ لكم من رجل يلي أمركم، ويصلّي بكم، ويقاتل عدوّكم فيأمركم، فإن شئتم اجتهدت لكم رأيي، ووالله الذي لا إله إلّا هو لا آلوكم في نفسي خيراً... قالوا: يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا، فاختر لنا. قال: سأجتهد لكم رأيي وأختار لكم خيركم إن شاء الله. فخرجوا من عنده.

ثم أرسل إلى عمر، فقال: يا عمر... خذ هذا الكتاب واخرج به إلى الناس، وأخبرهم أنّه عهدي وسلهم عن سمعهم وطاعتهم. فخرج عمر بالكتاب فأعلمهم، فقالوا: سمعاً وطاعة. فقال له رجل: ما في الكتاب يا أبا حفص؟ قال: لا أدري، ولكنّي أوّل من سمع وأطاع. قال: لكنّي والله أدري ما فيه، أمّرته عام أول، وأمّرك العام.[٢]

---

١. انظر: الشيخ الصدوق، الخصال، أبواب الإثنىٰ عشر، ح ٤.

٢. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٤، ٢٥

يُذكر أنَّ خلافة عمر استمرت عشر سنين، لم تحدث خلالها تطورات ذات بال على الشيعة الّتي راحت تنتهج سياسة المداراة للجهاز الحاكم اقتداءً بسيرة أمير المؤمنين عليه السلام، كما أنّ الجهاز الحاكم لم يُعهَد منه أيّةُ ممارسات قمعية ضد علي عليه السلام وشيعته، بل كان الأمر عكس ذلك، فقد استهدى بوجهات نظر الإمام عليه السلام في حلّ المعضلات العلمية والسياسية الّتي كانت تواجهه، حتى اشتهر عن عمر قوله: (لولا عليّ لهلك عمر) الذي كرّره ما يربو على سبعين مرة، وقوله أيضاً: (اللهم لا تُبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب)،[1] بل إنّه لم ينقطع عن استشارة الإمام عليه السلام في الظروف العصيبة لاسيّما استشارته له عليه السلام حينما أراد الشخوص بنفسه لقتال الفرس، فحذّره الإمام عليه السلام من مغبّة هذا الإقدام، ونصحه بعدم مبارحة المدينة، كما ورد ذلك في نهج البلاغة.[2] ولمّا قُتل عمر، تمّ انتخاب عثمان للخلافة من قبل شورى سداسية الأعضاء عيّنهم عمر، فاستمرت خلافته (١٢) عاماً، ارتكب خلالها مخالفات صريحة لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين، الأمر الذي أثار نقمة المسلمين عليه، فقد وزّع المناصب على أقربائه ومكّنهم من بيت مال المسلمين، ونفى أباذر إلى الشام ثم إلى الربذة، وأعاد الحَكَمَ بن العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة وقرّبه إليه، وأغلظ على عبد الله بن مسعود، ولم يعزل الوليد بن عقبة والي الكوفة الذي أمّ الناس وهو ثمل، فصلّى الصبح أربع ركعات، وقضايا أُخرى كثيرة.[3]

وقد أجّجت هذه القضايا غضباً عارماً في صفوف المسلمين، وفي غمرة هذه الأحداث أدرك أصحاب وأتباع أمير المؤمنين عليه السلام مدى الانحراف الذي تعرّضت له الخلافة والزعامة الإسلامية والذي بدأت تبعاته تظهر الواحدة تلو الأُخرىٰ، فاغتنموا الفرصة لإيقاظ الضمائر، والتذكير بعواقب الاستمرار في العدول عن إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام.

وفي هذا الإطار تأتي كلمة أبي‌ذر، حيث دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وخطب بالناس وبيّن فضائل أهل البيت عليهم السلام، وقال:

> علي بن أبي طالب وصيّ محمّد، ووارث علمه، أيّتها الأمّة المتحيّرة بعدنبيّها،أما لو قدّمتم من قدّم اللهُ، وأخّرتم من أخّر اللهُ، وأقررتم الولاية والوراثةفي أهل بيت

١. الغدير، ج ٣، ص ٧٩؛ تاريخ الخلفاء، ص ١٧٠، ١٧١؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٤٦ شرح خ ٢.
٢. نهج البلاغة، خ ١٤٦
٣. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٧٠، ٧١؛ الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٥؛ تاريخ الخلفاء، ص ١٥٧

نبيّكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولَماعالَ وليّ الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله،إلّا وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيّه. فأمّا إذ فعلتم ما فعلتم،فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.[1]

ولم يكن هذا الوضع بغريب على أتباع أمير المؤمنين، فقد شعروا منذ الأيّام الأُولى لتولي عثمان بهذا الانحراف، وأدركوا أبعاده الخطيرة، وفي هذا المجال كتب اليعقوبي يقول:

إنَّ عثمان خرج من الليلة الّتي بويع له في يومها لصلاة العشاء الآخرة وبين يديه شمعة، فلقيه المقداد بن عمرو، فقال: ما هذه البدعة؟! ومالَ قوم مع عليّ بن أبي طالب وتحاملوا في القول على عثمان، فروى بعضهم، قال:دخلت مسجد رسول الله، فرأيت رجلاً [المقداد بن عمرو] جاثياً على ركبتيه يتلهّف تلهّف من كأنّ الدنيا كانت له فسُلِبَها، وهو يقول: واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّهم، وفيهم أول المؤمنين وابن عمّ رسول الله أعلم الناس وأفقههم في دين الله، وأعظمهم عناءً في الإسلام،وأبصرهم بالطريق، وأهداهم للصراط المستقيم، والله لقد زوَوْها عن الهادي المهتدي، الطاهر النقيّ، وما أرادوا إصلاحاً للأُمّة ولا صواباً في المذهب، ولكنّهم آثروا الدنيا على الآخرة، فبُعداً وسحقاً للقوم الظالمين.[2]

ولما قُتل عثمان بايع المسلمون أمير المؤمنين عليّاً بالخلافة، والذي سبق وأن نصّبه النبي بأمر الله تعالى إماماً للمسلمين، ذلك المنصب الذي سُلب منه إثر المؤامرات وجهل وغفلة بعض الناس، وعلى الرغم من ذلك، فقد سكت الإمام عن حقّه، ولم يستعن بالقوة حفظاً لمصالح الإسلام، واكتفىٰ ببيان الحقائق كلما سنحت له الفرصة، وبعد مضي (٢٥) عاماً من إبعاده عن الخلافة الّتي هي حق شرعي له عادت إليه،[3] ولكنها ـ وللأسف الشديد ـ جاءت إليه متأخرة، وبعد أن تعرّضت مسيرة الخلافة الإسلاميّة لانحرافات كبيرة، وضُيّعت فرصُ وقدرات كبيرة طيلة تلك المدّة، وقد تسلّم

---

١. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٧، ٦٨
٢. المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٧

٣. يقول الإمام في هذا الصدد، الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونُقل إلى منتقله. نهج البلاغة، خ ٢. قال السيد الرضيّ إن الإمام قالها عند منصرفه من صفين، وقد عقّب ابن أبي الحديد على ذلك بقوله، إن هذا الكلام لا يقال في مثل تلك الحال، لأنّ الحقّ قد اشتبه على الناس، ولم يُعط لأهله إثر مكر عمرو بن العاص وسذاجة الخوارج، ولعل السيد الرضي نقل ما وجد، ويُحتمل وقوع التصحيف من قبل الرواة. شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٤٧.

الإمام‌ﷺ زمام المجتمع الإسلامي في أحلك الظروف وأصعبها، مستهدفاً السير به على ضوء الكتاب والسنّة، وهذا ـ بلا شك ـ أمر عسير للغاية إن لم نقل محال، ولكنّ الإمام‌ﷺ لم يكن يهمه قطّ إلّا رضا الله تعالىٰ ومصلحة الإسلام، وعلى هذا الأساس قَبِلَ البيعة على مضض وتصدّىٰ لأمر الخلافة، وفي هذا الصدد يقول‌ﷺ:

لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماءألّايُقارّوا على كِظّةِ ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلَها على غاربها،ولسقيتُ آخرَها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز.[1]

وحال عنصر الجهل والغفلة من جانب، والمكر والتآمر من جانب آخر دون إثمار شجرة العصمة والحكمة، وإيتاء أُكُلُها على مسرح قيادة المجتمع الإسلامي، وذلك من خلال:

أوّلاً: فرض حروب داخلية متوالية على الأمّة الإسلاميّة. وثانياً: حرمان الأمة ـ باغتيال الإمام علي‌ﷺ ـ من قائد لا نظير له. قال‌ﷺ: فلما نهضت بالأمر، نكثت طائفة، ومرقت أُخرى، وقسط آخرون.

والمراد بالناكثين: أصحاب الجمل، وبالمارقين: الخوارج، وبالقاسطين: معاوية وحزبه.

وقد وضع الإمام‌ﷺ النقاط على الحروف، عندما بيّن أنّ دوافع هؤلاء من وراء إذكاء الفتن، هي دوافع دنيوية، قال‌ﷺ:

كأنّهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾،[2] بَلىٰ والله لقد سمعوها ووعَوْهاولكنّهم حَلِيَتْ الدنيا في أعينهم وراقَهم زِبرجُها.[3]

لقد تمتعت الشيعة في عهد الإمام‌ﷺ بكامل الحريّة في بيان عقائدها، ولم تكُ تتقي أحداً من الجهاز الحاكم أو من غيره، إلّا أنَّ الحوادث والفتن الّتي عمّت البلاد الإسلامية لم تفسح لها المجال لنشر وبسط عقائدها وأفكارها بالنحو الذي تصبو إليه، وبالطبع فإنّ الإمام‌ﷺ اغتنم الفرص المتاحة، واستفاد منها كلّ الاستفادة، كما استطاع بسيرته العطرة المسدّدة بالعصمة أن يكشف للبشرية الوجه الناصع للإسلام، وأن يترك للأجيال معارف إلٰهية سامية، تعتبر من أغنى ما يملكه العالم الإسلامي بل الحضارة البشرية من تراث علمي وديني.

---

١. نهج البلاغة، خ ٣ المعروفة بالشِقشقية ٢. القصص، ٨٣
٣. نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية

٥
الشيعة في عهد الأمويين

بدأ حكمُ بني أُميّة بتولّي معاوية للحكم عام (٤١ هـ)، ودام إلى عهد مروان الحمار عام (١٣٢ هـ)، وقد عاشت الشيعة طيلة هذا العهد وفي ظل غياب الأمن والاستقرار أصعب الظروف وأحلكها، كما تعرّضت في فترات منه لأشدّ الضغوط قسوة وعنفاً.

ويمكن تقسيم عهد الأمويين إلى دوريْن رئيسييْن: دور ما قبل نهضة كربلاء، ودور ما بعد النهضة.

هذا التقسيم نشأ وفقاً لما خلّفته واقعة كربلاء من تأثير عظيم على أفكار ومشاعر المسلمين، والّتي واجه الحكم الأموي من جرّائها تحدّياً جدّياً.

وسوف نتناول باختصار الظروف العصيبة الّتي مرّت بها الشيعة خلال هذين الدورين:

أ) ما قبل نهضة كربلاء

تولّى الإمام الحسن المجتبى مقاليد الإمامة بعد مقتل أمير المؤمنين، واستمرت إمامته إلى عام (٥٠ هـ)، حيث أُستُشْهِدَ على يد زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي بمؤامرة حاكها معاوية، ولم تطل مدة خلافته الظاهرية أكثر من بضعة أشهر،[1] حيث واجه عصيان معاوية وتمرّده عليه، حين امتنع عن مبايعته كخليفة لرسول الله وإمام للمسلمين.

١. ذكر اليعقوبي في تاريخه، ج ٢، ص ١٢١: أنها دامت شهرين، وقيل، أربعة أشهر. وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ١٩٢: أنها استمرت (٥) أو (٦) أشهر.

وقد اضطر الإمامؑ إلى مهادنة معاوية والتنازل عن الحكم، لأنّه من جانب وجد نفسه بين جموع ذات ميول عقائدية متفرقة، ومن جانب آخر وجد القوىٰ الّتي بايعته قد تفتّتت وحدتها وتصدّع انسجامها بسبب دسائس معاوية، وقد بلغ التخاذل بين أصحابهؑ إلى درجة أن عقدوا العزم على تسليمه إلى معاوية نتيجة شيوع النفاق بينهم وتكالبهم على الدنيا.

في مثل هذه الظروف المعقّدة والخطيرة، عُقِدت الهدنةُ بينه وبين معاوية، بالشروط الّتي أرادها الإمامؑ نفسه، والّتي منها: الكفّ عن سبّ أمير المؤمنينؑ، وإعطاء الأمان لشيعته وعدم التعرّض لأحد منهم بسوء، وإيصال الحقوق إلى المستحقين منهم.

وقد أجابه معاوية إلى ذلك كلّه، وتعهّد بتنفيذه، وحلف له على الوفاء به.

ولم يمض وقت طويل على الهدنة حتى سار معاوية إلى الكوفة، فنزل بالنُّخيْلة،[١] وخطب بالناس، وقال:

> إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك، ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك، وأنتم له كارهون، ألا وإني منّيتُ الحسن، وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي، لا أفي بشيء منها له.[٢]

سار الإمام الحسنؑ بعد عقد الهدنة إلى المدينة، فأقام بها إلى آخر عمره، متصدياً لإمامة الشيعة وهدايتهم، وكانوا يفِدون إليه للإنتهال من علمه وحكمته لاسيّما في القضايا العلمية والدينية، كلّما سنحت لهم الظروف السياسية بذلك، وبالتأكيد فإنها كانت صعبة للغاية حتى عُدّ الاتصال بآل عليؑ جريمة لا تغتفر لدى الجهاز الأموي وعلى رأسه معاوية.

نقل ابن أبي الحديد عن كتاب الأحداث لأبي الحسن المدائني أَنَّ معاوية كتب إلى عمّاله في جميع الآفاق:

> انظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحب عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان،وأسقطوا عطاءه ورزقه، ونكّلوا به، واهدموا داره.

١. النُّخَيْلَة، موضع قرب الكوفة. معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٧٨

٢. المفيد، الإرشاد، ج ٢، ص ١٤؛ وللوقوف على أسباب هذا الصلح وأبعاده ونتائجه، راجع: الشيخ راضي آل ياسين، صلح الحسن ،حيث تجد فيه تحليلاً عميقاً للأحداث، وبحثاً تاريخياً ضافياً.

وفي أعقاب ذلك ضاقت الأرض برُحبها على الشيعة، وكان أشدّ الناس بلاءً يومذاك أهل الكوفة لكثرة مَنْ بها من شيعة عليّ، وعمّت الفوضىٰ واضطرب حبل الأمن خوفاً من عيون معاوية وعمّاله، وسُلبت الثقة بين المرء ومواليه.

من جانب آخر، منع معاوية من ذكر فضائل علي، وشدّد على من يرويها، في وقتٍ كتب فيه إلى عمّاله:

انظروا مَنْ قِبَلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل مايروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ثم كتب:

إنّ الحديث في عثمان قد كَثُرَ وفشا في كل مصر، فإذا جاءكم كتابي هذا،فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركواخبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقض له فيالصحابة، فإنّ هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني.

وإثر ذلك راجت الأخبار والأحاديث الموضوعة في الأمصار الإسلامية.

وتفاقم الوضع بعد معاوية حتى قال ابن عرفة المعروف بنفطويه وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم في تاريخه:

إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة، أُفتعِلَتْ في أيام بني أُمّية،تقرّباً إليهم بما يظنّون أنّهم يُرغِمون به أنوف بني هاشم.[١]

وكان الإمام عليّ قد تنبّأ بهذه الأوضاع السيّئة والوخيمة، لمّا قال: أما إنّه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مُندحِق البطن... ألا وإنّه سيأمركم بسبّي والبراءة منّي...[٢]

وقد اختلفوا في هذا الرجل، فقيل: هو زياد بن أبيه، وقيل: الحجّاج بن يوسف الثقفي، وقيل: معاوية.وقد رجّح ابن أبي الحديد الرأي الأخير، ثم أخذ يبحث بنحو مفصّل، الأوامر الّتي أصدرها معاوية بشأن سبّ علي بن أبي طالب والبراءة منه، ثم ذكر الرواة الذين استأجرهم معاوية لوضع الحديث في ذمّ أمير المؤمنين، أمثال

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٤ـ٤٦ ٢. نهج البلاغة، خ ٥٦

سمرة بن جندب، فقد بذل له أربعمائة ألف درهم حتى يروي أنه نزلت في علي بن أبي طالب هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾، وأنه نزلت في ابن ملجم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.[1]

وصفوة القول أنّ الشيعة عانوا في عهد معاوية ـ الذي استمر إلى ٦٠ هـ ـ أشدّ المحن، وأفظع أساليب القتل والتنكيل، فقد تمّ تصفية العديد من الشخصيات الشيعية البارزة أمثال: حُجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعبد الله الحضرمي.[2]

وعلى الرغم من كل هذه الأساليب القمعية، فإنهم لم يتوانوا عن الدفاع عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته الطاهرين، وبذل أغلىٰ ما لديهم في هذا السبيل وبكل إخلاص.

يُذكر أنّ معاوية ـ وخلافاً لما تمّ الاتفاق عليه في معاهدة الصلح ـ اختار ابنه يزيد من بعده للخلافة، وأخذ البيعة له من الناس بأسلوب الترهيب والترغيب، دون أن يكترث للمعارضة الشديدة الّتي واجهها من قبل الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي.

ولمّا تولّى الإمام الحسين عليه السلام الإمامة بعد استشهاد أخيه الإمام الحسن عليه السلام، أخذ على نفسه المضيّ على خُطىٰ أخيه عليه السلام في تعامله مع معاوية، دون أن يلجأ إلى الثورة عليه، إلّا أنه كان لا يتوانى عن فضح مخططاته وظلمه وفساده أمام الملأ من المسلمين، وفي هذا الاتجاه يأتي جوابه عليه السلام على كتاب معاوية الذي كان قد بعثه إليه، ويحذّره فيه من مغبّة أية معارضة علنيّة له، فكتب إليه الإمام عليه السلام يقول:

١. أ لستَ قاتل حُجر بن عدي وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكّدة، جرأة على الله، واستخفافاً بعهده؟

٢. أَوَ لستَ بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقتْ وأبلَتْ وجهَه العبادةُ، فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود، ما لو فهمته العُصم، نزلت من شعف الجبال؟

٣. أوَ لستَ المدّعي زياداً[3] في الإسلام، فزعمتَ أنّه ابن أبي سفيان، وقد قضى

١. شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٥٥ ـ ٣٦١، شرح الخطبة ٥٦

٢. راجع: حياة الإمام الحسن عليه السلام، ج ٢، ص ١٦٧ ـ ١٧٥.

٣. كان أبو سفيان قد وقع علىٰ أمة بغيّة من بني عجلان، جاءه بها أبو مريم الخمّار، فولدت له زياداً،

رسول اللهﷺ أنّ الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلّطته على أهل الإسلام يـقتلهم ويقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلّبهم على جذوع النخل....

٤. أَوَ لستَ قاتل الحضرميّ الذي كتب إليك فيه زياد أنّه علىٰ دين علي ﷺ، ودين علي هو دين ابن عمهﷺ، الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ؟

٥. إمارتك صبيّاً [يزيد] يشرب الشراب ويلعب بالكلاب، ما أراك إلّا وقد أوبقتَ نفسك، وأهلكت دينك، وأضعتَ الرعيّة.

٦. وقلت لا ترد هذه الأمة في فتنة، وإني لا أعلم فتنة أعظم من إمارتك عليها... وإنّي والله ما أعرف أفضل من جهادك.[1]

ب) بعد نهضة كربلاء

قلنا فيما سبق أنّ معاوية أخذ البيعة من الناس لإبنه يزيد، فلما توفّي عـام (٦٠ ﻫ)، تولى يزيد الحكم في العالم الإسلامي، وأمر بأخذ البيعة له من أهل المدينة، وخاصة الشخصيات البارزة فيها كالإمام الحسينﷺ، ولكنّ الإمامﷺ أبىٰ أنْ يمدّ يد البيعة له، وقرّر مبارحة المدينة والتوجّه إلى مكة، فلما أحسّﷺ بما يُضمره له يـزيد وعُـمّاله، وبتصميمهم على اغتياله إبّان مراسم الحجّ، لأنّه يشكّل عقبة كأداء أمام مآربهم غـير المشروعة، فلما أحسّ بذلك، غادرﷺ مكة نحو الكوفة الّتي وقع اختياره عليها، لأنّ جُلّ أهلها من الشيعة، وكانوا قد كتبوا إليه بالقدوم عليهم معربين عن ولائهم له وبراءتهم من يزيد وأعوانه، إلا أنّ سياسة التخويف والترغيب الّتي مارسها ابن زياد (عامل يزيد على الكوفة)، تركت أثرها في زعزعة إرادة الناس، وتخاذلهم عن نـصرتهﷺ، الأمـر الذي أدّىٰ إلى حدوث فاجعة كربلاء الدموية، واستشهاد الحسينﷺ ورجال أهل بيته، وأصحابه الأوفياء المظلومين الغرباء، ووقوع كرائم أهل بيته وأطفالهم في الأسر.

إنّ فاجعة كربلاء وإنْ كانت قد انتهت بانتصار يزيد وجهاز الحكم الأمويّ، إلّا أنّها

← ثم إستلحقه معاوية بأبي سفيان، بينما حكم الإسلام بأنَّ الولد للفراش وللعاهر الحجر. انظر في هذا الصدد: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٢٧.

١. انظر: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

في الواقع تعتبر انعطافة في تاريخ الإسلام وحياة التشيّع، أعقبها تحوّل عظيم في دنيا الإسلام، حيث استيقظت ضمائر المسلمين من سباتها بعد أن فتحوا عيونهم على المشهد الدّامي الذي تجسدت فيه همجيّة بني أميّة ومناهضتهم للدين من جهة، وعظمة الحسين عليه السلام وأصحابه وطلبهم للحق من جهة أخرى.

هذه النهضة العظيمة استطاعت أن تجهض كافة الخطط والمؤامرات الّتي حاكها معاوية وعمّاله طيلة عشرين عاماً من أجل محو اسم عليّ وأهل بيته، وإظهار التشيّع بمظهر باطل، حتى كتب مؤرخو الفريقين أنَّ واقعة كربلاء ساهمت بشكل فاعل في تأجيج البغض والعداء في قلوب المسلمين تجاه يزيد والجهاز الأموي، كما ساهمت من جانب آخر في جذب القلوب نحو أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وغرس محبتهم فيها.

قال ابن الأثير:

> إن ابن زياد قال لعمر بن سعد بعد عودته من قتل الحسين: يا عمر إئتنيبالكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين، قال: مضيت لأمرك وضاعالكتاب، قال: لتجئني به، قال: ضاع، قال: لتجئني به، قال: تُرِك والله يُقرأعلى عجائز قريش بالمدينة اعتذاراً إليهنّ، أما والله لقد نصحتك في الحسيننصيحة، لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص لكنت قد أدّيت حقّه. فقالعثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنّه ليس من بني زيادرجلإلّا وفي أنفه خِزامة إلى يوم القيامة، وإنّ الحسين لم يُقتل. فما أنكر ذلكعبيد الله بن زياد.[١]

وقال الطبري:

> لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن علي عليه السلام وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلىيزيد بن معاوية، فسُرّ بقتلهم أوّلاً، وحَسُنت بذلك منزلة عبيد الله عنده، ثم لميلبث إلّا قليلاً حتى ندم على قتل الحسين، فكان يقول:... لعن الله ابن مرجانة،فإنّه أخرجه واضطّره، وقد كان سأله أن يخلّي سبيله ويرجع فلم يفعل،أو يضع يده في يدي، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه اللهعزّوجلّ فلم يفعل، فأبىٰ ذلك وردّه عليه وقَتَلَه، فبغّضني بقتله إلى المسلمين،وزرع لي في قلوبهم العداوة، فَبَغضني البرّ والفاجر بما استعظم الناسمن قتلي حسيناً، ما لي ولابن مرجانة لعنه الله وغضب عليه.[٢]

١. تاريخ ابن الأثير، ج ٤، ص ٩٤، دار صادر، بيروت.
٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٦٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

وسواء كان هذا الندم حقيقياً أم ظاهرياً، فإنّه يشير إلى حقيقة ساطعة، وهي أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام تركت تأثيراً بالغاً على مجرى الأحداث، وكشفت الحقائق للرأي العام حتى بلغ الوضعُ درجة أنّ الشام نفسها (مركز سلطة معاوية ويزيد) والّتي تحكّمت بها سياسة الإعلام المضادّ لعليّ وأهل بيته لسنوات طويلة، قد انقلبت فيها الأجواء لصالح أهل بيت الرسالة.

وإذا كان جهاز الحكم الأموي قد ألصق تهمة الخوارج والعصاة بخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، وضيّق الخناق على العلويين والشيعة بهذا الشعار المزيّف، فإن الشعار الذي رفعه الإمام الحسين عليه السلام والمتمثل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومناهضة بدع ومفاسد الجهاز الأمويّ، فإنّ هذا الشعار (وإنْ كلّفه حياته وحياة أصحابه وأسر أهل بيته) قد انسجم مع الثقافة العامّة للمسلمين، ولذلك ترسّخ في أوساطهم؛ الأمر الذي أدّىٰ إلى فتح طريق الجهاد والنضال ضد الحكم الأموي أمام الأحرار. ولم يقتصر ذلك على الشيعة الذين توالت ثوراتهم على حكّام بني أميّة، وإنما إختارت هذا النهج أيضاً فرق أُخرىٰ كالقدرية والمعتزلة.

لقد أصبحت ثورة عاشوراء الخالدة مشعلاً استضاءت به ثورات لا حصر لها؛ كثورة سُليمان بن صرد الخزاعي، وثورة المختار الثقفي، وثورة زيد بن علي عليه السلام.

وصفوة القول أن نهضة كربلاء أجّجت روح الإقدام والشهامة والتضحية والشهادة والحرية لدى المسلمين لاسيّما الشيّعة منهم، وأقضت مضاجع حكّام بني أمية الذين مارسوا القمع والتنكيل من أجل طمس معالم هذه النهضة، وبالتأكيد فإنّ هذا الدور لم يكن يخلو من منعطفات كثيرة لا يتّسع المجال لذكرها.

والنقطة الأُخرى الجديرة بالاهتمام هي طبيعة المنهج الذي انتهجه أئمة أهل البيت عليهم السلام في مواجهة الحكم الأمويّ من جانب، والزعامة الفكرية والاجتماعية والتربوية لهم للمجتمع الإسلامي من جانب آخر، فقد تولّى الإمام زين العابدين عليه السلام الإمامة بعد استشهاد أبيه الحسين عليه السلام لمدّة (٣٥) عاماً، إنتهج خلالها أسلوب التعامل السلبي مع الأمويين، حيث صبّ إهتمامه على ذكر واقعة كربلاء وفجائعها ومآسيها في

كل مناسبة وبطريقة يكتنفها الحزن والبُكاء من أجل إثارة غضب الرأي العام على بني أميّة وتأجيج مشاعر الكراهية لهم.

كما اتخذ من الدعاء وسيلة لنشر المعارف الإسلامية الساميّة وتكريسها في المجتمع الإسلامي كثقافة عامّة.

وتتشابك في أدعيته نصوص من العرفان والحكمة والأخلاق الفردية والإجتماعية ومناهضة الظلم، دون أن يثير ذلك حفيظة جهاز الحكم الأمويّ، وقد قام بأعباء الإمامة وزعامة المجتمع الإسلامي بعد ثورة كربلاء على أحسن وجه، ولم يكن يجد حاجة إلى المعارضة الصريحة لبني أميّة، وإعلان الثورة عليهم، فإنّ هذه الرسالة الخطيرة قد نهض بأعبائها الإمام الحسين بأفضل وجه، وكانت حاجة المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت هي في الإستفادة من معطيات تلك الثورة العظيمة لصالح الإسلام والمسلمين، وقد أدّى الإمام السجاد هذا الدور على أتمّ وجه.

وكان ـ إلىٰ جانب إحيائه لنهضة كربلاء، وبيان معارف الإسلام الّتي كان يصوغها في قالب الأدعية ـ قد إلتزم بتربية تلاميذ يلبّون حاجة المجتمع الإسلامي على الصعيد الكلامي والفقهي والتفسيري، مغتنماً الفرصة الّتي أُتيحت له إبّان الصراع الذي نشب بين بني أميّة وعبد الله بن الزبير[1] بشأن الحكم.

وقد ظهر في ذلك الوقت فقهاء بالمدينة ليسوا من الشيعة، يفتون الناس بآرائهم، مما دعا تلاميذ الإمام إلى السعي لنشر أفكاره بين صفوف الناس، بالرغم من عدم تظاهرهم بالتشيّع، نظير القاسم بن محمد بن أبيبكر، وسعيد بن المسيّب[2] وقيس الماصر الذي يُعدّ من أبرز متكلمي الشيّعة، وقد تلمذ للإمام زين العابدين.[3]

وكان بين صفوف تلامذة الإمام صحابة وتابعون ورواة كبار، منهم: أبو الطفيل عامر

---

١. دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه بعد موت يزيد بن معاوية، فحكم الحجاز واليمن وخراسان ومصر والعراق وأكثر الشام، ونشبت بينه وبين الأمويين معارك شديدة، انتهت بمقتله عام (٧٣ هـ) على يد الحجّاج بن يوسف الثقفي في أيام عبد الملك بن مروان. وكان حكمه قد استمر (٩) أعوام. انظر: تاريخ الخلفاء، ص ٢١٢.

٢. تاريخ الشيعة، ص ٣٨

٣. أصول الكافي، الجزء الأوّل، كتاب الحجّة، باب الإضطرار إلى الحجّة، ح ٤

بن وائلة الكناني الصحابي، وسعيد بن المسيّب، وسعيد بن جهان الكناني، وسعيد بن جبير، ومحمد بن جبير بن مطعم، وابو خالد الكابلي، والقاسم بن عوف، وإسماعيل بن عبد الله بن جعفر، وإبراهيم والحسن ابنا محمد بن الحنفية، وحبيب بن أبي ثابت أبو يحيى الأسدي، وسلمة بن دينار أبو حازم الأعرج.[١]

وقد سَرَد الشيخ الطوسي في رجاله أسماء الرواة عن الإمام عليه السلام طبقاً للحروف الأبجدية، فبلغ عددهم (١٧٥) راوياً.[٢]

ولمّا توفّي الإمام زين العابدين عام (٩٤ هـ)، تولّى ولده أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام مقاليد الإمامة بعده، وامتدت إمامته إلى سنة (١١٤هـ)، حيث توفّي فيها مسموماً على يد هشام بن عبد الملك، وكانت الظروف السياسية إبّان عهد الإمام الباقر عليه السلام سانحة نوعاً ما، ومؤاتية قياساً لما قبلها للتحرك والنشاط، الأمر الذي يفسّر لنا إقبال الناس لاسيّما العلماء والرواة عليه للإنتهال من علمه، فنقلوا عنه علماً جمّاً وأحاديث كثيرة.

رُوي عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال: لقد أخبرني رسول‌الله صلى الله عليه وآله بأنـي سأبقىٰ حتىٰ أرىٰ رجلاً من ولده أشبه الناس به، وأمرني أن أُقرأه السلام، واسمه محمد يبقر العلم بقراً.

لقد اغتنم الإمام الباقر عليه السلام الفرصة لقيادة نهضة علميّة وثقافيّة واسعة، بلغت أوجها في عهد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فقد روىٰ عنه جابر بن يزيد الجعفي (٥٠) ألف حديث، ومحمد بن مسلم (٣٠) ألف حديث، وقام الشيخ الطوسي في رجاله بإحصاء عدد الرواة عنه عليه السلام (أي عن الباقر) فبلغ (٤٦٦) راوياً.

كما عقد عليه السلام مناظرات مع مختلف الفرق والمذاهب الدينية والكلاميّة الّتي ظهرت في عهده؛ نقل طائفة منها العلّامة الطبرسي في كتابه الإحتجاج.[٣]

١. مناقب ابن شهرآشوب، ج ٤، ص ١٧٦
٢. رجال الشيخ الطوسي، ص ٨١ـ١٠١
٣. راجع: الفصول المهمة، ص ٢١٠ـ٢٢١؛ الإرشاد، ص ١٥٧ـ١٦٨؛ تاريخ الشيعة، ٤٢، ٤٣؛ أعيان الشيعة، ج ١، ص ٦٥٠ـ٦٥٩؛ الإحتجاج، ج ٢، ص ٣٢١ـ٣٣١.

وصفوة القول إنّه تمّ في أعقاب ثورة الإمام الحسين، والمتغيّرات الّتي حصلت في عهد الإمام السجّاد، ونشوب الثورات الشيعيّة ضد الحكم الأمويّ.. تمّ في أعقاب ذلك كسر حاجز الخوف الذي كان يسيطر على المجتمع الإسلامي قبل نهضة كربلاء، وظهور فرق ومذاهب مختلفة على أثر الجدال الفكري الذي عمّ الأمصار الإسلامية.

في هذه الأجواء تمكّن الإمام الباقر ـ بإعتباره أبرز شخصية علمية في عصره ـ من استقطاب أنظار فقهاء العالم الإسلامي ومحدّثيهم، ونشر حقائق سامية في مجال المعارف والأحكام.

ومهما يكن من أمر، فإن الشيّعة في هذا الدور عانوا ضغوطاً ومصاعب أقلّ مما عانوه في الدور السابق علىٰ الرغم من توطيد أركان الحكم الأمويّ على الظلم وبغض علي وأهل بيته، وتفنّنه في قمع الشيعة وسائر الأحرار.

وبشهادة الإمام الباقر في أيام هشام بن عبد الملك عام (١١٤ هـ)، بدأ عهد الإمام الصادق، الذي إزدهرت على يديه النهضة الدينية والثقافية العظيمة الّتي قادها من قَبلُ الإمام الباقر.

وقد وضع هشام بن عبد الملك ـ أقوىٰ حكّام بني أمية وأشدّهم بطشاً ـ الإمامين الباقر والصادق تحت المراقبة بغية إجهاض الثورات وحركات التمرد، وكان يتعامل مع مخالفيه ومناوئيه بكل قسوة.

والحقيقة الّتي ينبغي أن تقال هي: أنّه كان يخشىٰ كثيراً من التأثير المعنوي الذي كان يتمتع به الإمامان في أوساط المسلمين، وازداد توجّسه من الإمام الصادق بعد ثورة زيد بن علي عام (١٢١ هـ)،[١] فقد أذكى استشهاده غضباً عارماً لدى المسلمين، وأثار فيهم مشاعر الكراهية لهشام ولجهازه الحاكم، وفي غمرة هذه الأحداث قام أهل خراسان بالتمرد عليه، وفضح الجرائم الّتي اقترفها بنو أمية.[٢]

يُذكر أن الإمام الصادق حزن كثيراً عند سماعه نبأ استشهاد زيد بن علي، وأمر بتقديم المساعدة للأسر المفجوعة في هذه الحادثة.

١. وفي إرشاد المفيد، ج ٢، ص ١٧٤، عام (١٢٠ هـ).
٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٥ـ٢٥٨

قال أبو خالد الواسطي: سلّم إليّ أبو عبد الله ألف دينار، وأمرني أن أقسّمها في عيال من أصيب مع زيد.[١]

وقد بدأت أركان حكم بني أُميّة بالتداعي عقب هلاك هشام بن عبد الملك عام (١٢٥ ه‍)، ومنذ ذلك التاريخ وحتىٰ سقوط الدولة الأموية عام (١٣٢ ه‍)، توالىٰ أربعة حكّام على سُدّة الحكم الأموي.[٢]

في هذه المرحلة واجه الحكم الأمويّ ـ إلى جانب عوامل الضعف والإنهيار الّتي نخرت كيانه ـ سلسلة من حركات التمرد والثورات كثورة أبي مسلم الخراساني والعباسيين، الّتي انتهت بانتصارهم بعد القضاء على آخر حكّام بني أمية. وبهذه الصورة إنطوى الملّف الأسود لحكم بني أميّة من التاريخ.[٣]

ومن الطبيعي إنّ الضعف الذي إنتاب جهاز الحكم الأموي أتاح فرصة مناسبة للشيعة ولإمامهم الصادق الذي أكبّ فيها على نشر وبثّ تعاليم الإسلام الأصيلة، وقد دامت إمامته (٣٤) سنة (١١٤ ـ ١٤٨ ه‍)، قضى منها (١٨) سنة (١١٤ ـ ١٣٢ ه‍) في عصر بني أميّة.

في هذا الدور وخصوصاً في أواخره، فقدت الدولة الأموية الكثير من عناصر اقتدارها السياسي والاجتماعي، الأمر الذي أفضى إلى تهيئة ظروف ملائمة للنشاط الثقافي والعلمي المغاير لرغبة الحكّام.

إنّ الجهود الواسعة الّتي بذلها الإمام الصادق في نشر المعارف وتربية تلاميذ بارزين، أدّت إلى تسمية المذهب الشيعي بالمذهب الجعفري، وهذا لا يعني أن الرواية عنه اقتصرت على محدّثي ورواة الشيعة، بل روىٰ عنه ثلّة من رجال الفرق والمذاهب الأُخرى، ونقلوا عنه أحاديث كثيرة.

وفي هذا الصدد، كتب ابن الصبّاغ المالكي يقول: روى عنه جماعة من أعيان الأمّة،

١. الإرشاد، ج ٢، ص ١٧٣

٢. وهم، الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد.

٣. الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ١١٠ ـ ١١٧؛ تاريخ الخلفاء، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٥؛ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٤٨ ـ ٤٨٦

مثل: يحيى بن سعيد، وابن جريج، ومالك بن أنس، والثوريّ، وابن عُيينة، وأبي حنيفة، وأبي أيوب السجستانيّ، وغيرهم.[١]

وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه‍ﷺ على أختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف راوياً.[٢]

وسوف نعود إلى الحديث عن مكانة الإمام الصادق‍ﷺ، ودوره في نشر أصول المذهب الشيعي وتعزيز أركانه عند البحث عن تحولات تاريخ الشيعة في العصر العباسي.

---

١. الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، ص ٢٢٢

٢. الإرشاد، ج ٢، ص ١٧٩؛ وراجع أيضاً: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٦٧

٦
الشيعة في العصر العباسي

بدأ العصر العباسي بتولّي أبي العباس السفّاح[١] لمقاليد الحكم عام (١٣٢ هـ) وتوفي عام (١٣٦ هـ)، وقد أمضىٰ معظم فترة حكمه في تشييد صرح الحكم العباسي وتعزيزه وفي مطاردة الأمويين.[٢]

وقد ساهم هذا ـ إلى جانب الشعار الذي رفعوه ضد بني أمية بالثأر لآل البيت عليهم السلام ـ في عدم التعرّض للإمام الصادق عليه السلام وشيعته، الأمر الذي أتاح له ولأصحابه وفي ظل توفر ظروف سياسية ملائمة إلى القيام بنشاطات فكرية ودينية واسعة.

وبعبارة أُخرىٰ يعدّ حكم أبي العباس السفّاح بداية ظهور الدولة العباسية ونهاية الدولة الأموية الّتي كانت في طريقها إلى الزوال، وقد ساهمت هذه الأجواء في خلق ظروف سياسية مناسبة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله في سبيل نشر معارف الإسلام الأصيلة. وفي هذا الإطار كتب العلّامة السيد محسن الأمين بعد الإشارة إلى كثرة العلوم والمعارف الّتي نُقلت عن الإمام الصادق عليه السلام والّتي انتشرت في الآفاق، وكثرة الرواة عنه، ووفرة تلاميذه في مختلف العلوم الإسلامية، كتب يقول:

١. هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، اشتهر بالسفّاح لإيغاله في سفك دماء جمع غفير من معارضيه لاسيّما بني أمية بغية الوصول إلىٰ سدّة الحكم.

٢. للإطلاع أكثر على الحوادث الّتي وقعت في عهد السفّاح، راجع: تاريخ الطبري، ج ٥، ١٢٣ ـ ١٥٤؛ تاريخ ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٨٤ ـ ٥٢٠؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧٨ ـ ٢٩٨؛ تاريخ الخلفاء، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩؛ الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ١١٨ ـ ١٣٣.

كان السبب في انتشار علومه وكثرة الآخذين عنه أنّه أدرك أواخر الدولةالأموية وأوائل الدولة العباسية؛ فأدرك الأُولىٰ في أيام ضعفها، فتمكّن من نشر علوم أجداده لقلّة الخوف، وكانت الثانية في أولّها لم تنجم فيها ناجمةالحسد لآل أبي طالب، وهي دولة هاشمية ترىٰ أن مثل جعفر الصادق من مفاخرها.[١]

وإذا تجاوزنا الظروف السياسية الّتي كانت حالة طارئة في زمن الإمام الصادق عليه السلام وسانحة للنشاطات العلمية والثقافية، فإن الشرائط الاجتماعية والفكرية السائدة في دنيا الإسلام في ذلك المقطع الزمني تقتضي فتح باب البحث والحوار والمناظرات العلمية. هذا المناخ الفكري والاجتماعي هو من معطيات ظهور مذاهب واتجاهات فكرية ودينية مختلفة في العالم الإسلامي عمّت معظم مجالات العلوم والمعارف الإسلامية.[٢]

وما أن تولّى المنصور العباسي زمام الحكم عام (١٣٦ ﻫ) حتىٰ تغيّرت الظروف والأوضاع السياسية. وأوّل خطوة قام بها، هي قتل أبي مسلم الخراساني الذي يعود إليه الفضل الكبير في وصول العباسيين إلى الحكم، واستمر حكمه إلى عام (١٥٨ ﻫ)، وقد تبنىٰ خلال هذه المدة سياسة القتل والتعذيب والتنكيل بخصومه، ولم يتوانَ عن اتخاذ أية أساليب قمعية في هذا السبيل، ولم تمضِ الأيام حتىٰ ظهر للرأي العام الوجه الآخر لبني العباس، وزيف إدعاءاتهم بطلب الثأر لآل النبي صلى الله عليه وآله، واتضح للجميع أنهم لا همّ لهم سوى التسلّط علىٰ رقاب المسلمين، الأمر الذي أدّىٰ إلى معارضة العلويين الصريحة لجهاز الحكم العباسي وعلى رأسه المنصور الدوانيقي الذي مارس أساليب قمعية من أجل إخماد صوتها، وتعامل مع العلويين بكل قسوة ووحشية ودون أية رحمة، متقدماً بذلك على حكام بني أمية في اقتراف الجرائم.

وقد تعامل المنصور مع العلويين بقسوة، وزجّ بالعديد منهم وتحت أسوء الظروف والأوضاع في زنزانات مظلمة لا يكاد يتميز فيها الليل من النهار ولا أوقات الصلاة إلّا بتلاوة القرآن، وكانت جثث من يقضي منهم تُترك في الزنزانات لتلويث أجوائها ونشر

١. أعيان الشيعة، ج ١، ص ٦٦٤
٢. راجع في هذا الصدد: الشهيد المطهري، سيرى در سيره ائمه اطهار عليهم السلام، ص ١٤٢ ـ ١٤٧.

الأمراض بهدف القضاء على الأحياء منهم، وكان أحياناً يُصدر أوامره بهدم الزنزانات علىٰ رؤوس أصحابها، الأمر الذي أدىٰ إلى استشهاد العديد منهم.[١]

وفي عهده خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن، إلّا أنهما استشهدا بعد مواجهات دامية وتضحيات باسلة علىٰ يد عمّاله،[٢] مما حدا بالمنصور إلى مراقبة الإمام الصادقؑ، واتخاذ موقف الحذر والحيطة منه، وكان يأمر بين الفينة والأُخرىٰ بإحضاره، ويهمّ بقتله، إلّا أنّهؑ كان ينجو من شرّه في كلّ مرّة بعناية إلٰهية، وأخيراً أُستشهِدَ مسموماً.[٣]

وبعد استشهادهؑ وقع خلاف بين الشيعة حول من يخلفه في الإمامة، وعلى إثر ذلك أنقسمت إلى أكثر من فرقة منها الفرقة الإسماعيلية، أما الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، فقد ذهبت إلى إمامة موسى بن جعفرؑ استناداً إلى أدلة عقلية ونقلية، وفي هذا الصدد يقول الشيخ المفيد:

> وكان الإمام بعد أبي عبد الله ابنه أبا الحسن موسى بن جعفر العبد الصالحؑ،لاجتماع خلال الفضل فيه والكمال، ولنصّ أبيه بالإمامة عليهوإشارتهبها إليه.[٤]

لقد دامت إمامة الكاظمؑ (٣٥) سنة (١٤٨ ـ ١٨٣ هـ) عاصر خلالها أربعة من الخلفاء العباسيين، وهم: المنصور والمهدي والهادي وهارون الرشيد، وقد انتهج هؤلاء ـ تبعاً للمنصور ـ سياسة قمعية ضدّ العلويين، وأشاعوا جوّاً من الكبت والرعب، حتى بلغ الحال بالشيعة أنهم لم يجرأوا على التصريح باسمهؑ عند نقل الحديث عنه، بل كانوا يكتفون بذكر لقب له أو كنية، نظير: أبو الحسن، أو أبو إبراهيم، أو العبد الصالح، أو العالِم، وغيرها.

١. انظر: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٢، ص ٤٧٥.
٢. انظر: تاريخ ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٦٣ ـ ٥٩٠.
٣. راجع: الفصول المهمة، ص ٢٢٢ ـ ٢٣٠؛ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٢، ٤٧١ ـ ٤٧٤؛ تاريخ الشيعة، ص ٤٥، ٤٦.
٤. للوقوف علىٰ كيفية ظهور الإسماعيلية وفرق أُخرىٰ، راجع: فرق ومذاهب كلامى، ص ٦٥ ـ ٧٠؛ فرق الشيعة، ص ٧٨ ـ ٨٩.

ولما تولّى الرشيد الحكم أودع الإمامﷺ السجن، ونقله من سجن إلى آخر، حتى أستُشهِدﷺ في سجن بغداد على يد السندي بن شاهك عام (١٨٣هـ) غريباً مظلوماً، مما أثار سخط ونقمة الرأي العام الشيعي في بغداد على الجهاز الحاكم.[1]

وعلى الرغم من سياسة القمع والإرهاب الّتي مارسها خلفاء بني العباس (المعاصرين للإمام الكاظمﷺ)، ضد خصومهم ومناوئيهم لاسيما العلويين، إلّا أن ظهور المذاهب والفرق الدينية والتوجّهات الفكرية والعقائدية المختلفة حالت دون إعمالهم الرقابة عليها وإخضاعها لنفوذهم، وفي خضمّ هذه الصعوبات لم يتوانَ الإمامﷺ عن مواصلة مسيرة النهضة الفكرية والثقافية الّتي ازدهرت على يدي الإمامين الباقر والصادق ﷺ، وتزويد المجتمع بجمع من التلامذة الكبار والرواة الذين نقلوا عنه علماً جمّاً وأحاديث كثيرة، وقد أحصى الشيخ الطوسي عددهم في رجاله، فبلغ ٢٦٢، تلميذاً وراوياً.[2]

وقد كشفت الأبحاث الدقيقة الّتي أجراها بعض الباحثين أن عدد الرواة عنه، يفوق هذا العدد بكثير، وأنه يبلغ (٦٣٨) راوياً.[3]

وبعد استشهاد الإمام الكاظمﷺ، حدثت خلافات بين الشيعة بشأن وفاة الإمام وإمامته، فزاغت بعض الفرق، وتنكّبت طريق الحق، فظنّت فرقة أنّه هو المهدي الموعود، وأنكرت أُخرىٰ وفاته، وآمنت ثالثة بوفاته إلّا أنها اعتقدت أنّه سيعود لينشر العدل في ربوع العالم، وقد أُطلِقَ علىٰ هذه الفرقة اسم (الواقفة) لوقوفها في الإمامة على الكاظمﷺ دون الاعتقاد باستمرارها في ذريته، أما جمهور الشيعة فقالوا بإمامة علي بن موسى الرضاﷺ، وقد أُطلق عليهم اسم (القطعية) لأنهم اعتقدوا عن قطع ويقين بإمامة الرضا ﷺ.[4]

وباستشهاد الإمام الكاظمﷺ بدأت إمامة الرضاﷺ[5] الّتي استمرت إلى عام (٢٠٣ هـ)

١. أنظر: تاريخ الشيعة، ص٤٨؛ أعيان الشيعة، ج ٢، ص ١١، ١٢.
٢. رجال الشيخ الطوسي، أصحاب الكاظمﷺ
٣. الشيخ عزيز الله عطاردي، مسند الإمام الكاظمﷺ؛ بحوث في الملل والنحل، ج ٦، ص ٤٨٩
٤. فرق الشيعة، ص ٩٠، ٩١
٥. ولد الرضاﷺ في المدينة عام (١٤٨ هـ)، وتوفّي بطوس (عام ٢٠٣ هـ). الإرشاد، ج ٢، ص ٢٤٧.

وهو عام استشهاده، أي أن مدة إمامته بلغت زهاء (٢٠) سنة، عاصر خلالها ثلاثة من الخلفاء العباسيين، وهم: هارون الرشيد، ومحمد الأمين، وعبد الله المأمون.[1]

وفي أيام إمامة الرضا‌ عليه‌السلام وخاصة في عهد المأمون العباسي، طرأت تحولات هامة في العالم الإسلامي، تركت تأثيراً بالغاً على تاريخ التشيّع، فمن جهة تمّ تعريب الكتب اليونانية وغير اليونانية في مجال المنطق والفلسفة والنجوم والطبّ وغيرها من العلوم، وهذا الأمر ترك بصمات واضحة على المناخ الاجتماعي والثقافي للعالم الإسلامي، تجلّت في رواج سوق المحاججات والمنظارات العلمية والدينية، ومن الطبيعي أن ظروفاً كهذه تحدّ من قدرات الحاكم الجائر والمستبدّ، ومحاولاته لكبت الحريات ونشر القمع والرعب في صفوف المجتمع، وتعود بداية ترجمة الكتب غير الإسلامية إلى العربية إلى ما قبل العصر العباسي، وعلى وجه التحديد إلى العصر الأموي وعلى يد خالد بن يزيد بن معاوية الذي أُطلق عليه (حكيم آل مروان)، إلّا أنها لم تحظَ باهتمام سائر الخلفاء الأمويين.[2] أمّا في العصر العباسي، فقد أولى الخلفاء لها المزيد من عنايتهم، حيث تُرجمت في عهد المنصور العديد من كتب الطب والنجوم إلى العربية، واستمرت هذه العناية إلى أيام هارون الرشيد، وبلغت أوجها في عهد المأمون.

ومن جهة أُخرى، أدرك المأمون أن انتهاج سياسة الخلفاء السابقين القائمة على القمع والإرهاب ضد العلويين، لا تصبّ في صالح الحكم العباسي، لأن المكانة السامية والمنزلة الرفيعة الّتي حظي بها العلويون وخاصة أئمة أهل البيت‌ عليهم‌السلام لدى الرأي العام أصبحت واضحة كالشمس في رابعة النهار، وفي مثل هذه الظروف فإن انتهاج سياسة الكبت والتنكيل ضدّهم لا يُجدي نفعاً، بل لا يُفضي إلّا المزيد من كراهية الناس للجهاز الحاكم، ولهذا السبب لم يجد المأمون مناصاً إلّا بالإعراض عن هذه السياسة، وإظهار ولائه وحبّه للإمام الرضا‌ عليه‌السلام الذي يُعدّ أبرز شخصية علوية في عصره، وذلك من خلال

١. قضىٰ الإمام الرضا‌ عليه‌السلام عشر سنين من إمامته في زمن هارون الرشيد، وخمس سنين في زمن محمد الأمين، وخمس سنين في زمن المأمون.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٣٨؛ جرجي زيدان، تاريخ الحضارة الإسلامية، ج ٣، ص ٥٥٢

عرض الخلافة عليه، ولكن الإمامﷺ أبىٰ وامتنع عن قبولها، لعلمه بالنوايا السيئة للمأمون، وأخيراً وتحت وطأة إصرار المأمون قَبِل بولاية العهد بشروط وضعها الإمامﷺ منها عدم تدخّله في شؤون الحكم.[١]

وفي ظل ولاية العهد الّتي قبلها الإمامﷺ، تنفس الشيعة الصعداء، حيث تم تعليق سياسة القمع الّتي كانت تمارس ضدّهم من قبل الجهاز العباسي الحاكم، هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ فإن عقد مجالس المناظرة والاحتجاج بين الإمام الرضاﷺ وبين علماء سائر المذاهب والأديان، كشف النقاب عن كثير من الحقائق الّتي كانت غائبة عن الأذهان، الأمر الذي ساهم في نشر وبسط عقائد وأفكار المذهب الشيعي.

جدير بالذكر أن المأمون وإن كان عاشقاً لكرسي الحكم الذي أراق من أجل التربّع عليه دم أخيه الأمين، ولم يكن يتورّع عن قتل الإمام الرضاﷺ من أجل البقاء في الحكم، ولكن الوثائق التاريخية تُثبت هذه الحقيقة، وهي أنه كان محبّاً للعلم والمعرفة، وكانت له ميول شيعية أبان عنها بصراحة أمام الإمامﷺ وجمع من الشيعة. ولم يقتصر الأمر علىٰ ما ذكرنا؛ بل إنه خاض حلبات الجدل والمناظرة حول إمامة أمير المؤمنينﷺ مع علماء أهل السنة ففلجهم واستطال عليهم.[٢]

وقد تهيأت للشيعة في عهد الإمام الرضاﷺ ظروف سياسية واجتماعية مناسبة، خاصّة وأن المأمون أظهر في ذلك الوقت تشيّعه، وعَقَدَ مجالس المناظرة مع علماء الكلام بشأن خلافة أمير المؤمنينﷺ، متصدّياً لدحض حججهم ومزاعمهم بأدلة قاطعة وساطعة، ولكنّ هذه المجالس لم تدم طويلاً، فقد تعطّلت بعد وفاة الإمام الرضاﷺ.[٣]

ولما استشهد الإمام الرضاﷺ، تولّى الإمامة من بعده الإمامُ محمد التقي (الجواد) الذي ولد عام (١٩٥ هـ) واستشهد عام (٢٢٠ هـ) عن (٢٥) عاماً، عاصر خلالها اثنين من خلفاء بني العباس، وهما: المأمون، والمعتصم، وقد توفّي المأمون عام (٢١٨ هـ)، وعلى

١. للاطلاع علىٰ أسباب قبول الإمام بولاية العهد، راجع: سيرى در سيره أئمه أطهارﷺ، ص ١٩٤ـ٢٤٣؛ أعيان الشيعة، ج ٢، ص ١٦، ١٧.
٢. سيرى در سيره ائمة اطهارﷺ، ص ٢٠١، ٢٠٢.
٣. راجع: تاريخ الشيعة، ص ٥٤؛ أعيان الشيعة، ج ٢، ص ١٥، ١٦.

هذا الإساس يكون الإمام الجوادﷺ قد أمضىٰ (١٥) سنة من إمامته في عهد المأمون الذي انتهج معه ذات السياسة الّتي كان ينتهجها مع أبيه الرضاﷺ من قبل، حيث استدعاه إلى بغداد، وبالغ في إجلاله وإكرامه، وزوّجه ابنته أمّ الفضل، وقد أعلن رجال البلاط العباسي عن رفضهم ومخالفتهم لهذا الزواج، مما حدا بالمأمون إلى عقد مجلس، حضره رجال الدولة وكبار العلماء وفي طليعتهم القاضي يحيى بن أكثم الذي طُلب منه أن يطرح على الإمامﷺ مسائل عويصة بغية إحراجه وإظهار مقدار فضله وعلمه، ولكن علائم العجز سرعان ما بدت على ابن أكثم حين وجّه إليه الإمام سؤالاً، فبان للجميع سموّ مقام الإمام العلمي وفضله.[1]

ثم عاد الإمام الجوادﷺ إلى المدينة، فبقي فيها إلى أن تولّى المعتصم الحكم عام (٢١٨ هـ) فاستُدعي مرّة أُخرىٰ إلى بغداد، واستشهد بها مسموماً علىٰ يد زوجته أم الفضل.

وأراد المعتصم أن يمنع تشييع الإمام من قِبل شيعته، ولكنه لم يُفلح، إذ خرج جمع غفير منهم بسيوفهم، فشيّعوا الجسد الطاهر للإمام، وواروه الثرىٰ.[2]

هذه الحادثة تكشف عن قوة شوكة الشيعة في بغداد، وعن وجود ظروف سياسية واجتماعية لم تكن تسمح للخليفة بممارسة سياسة قمعية ضد الشيعة، وإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة الإستفسارات الّتي وُجّهت للإمامﷺ في مجالات دينية مختلفة، وصلنا إلى حقيقة مفادها أن الأوضاع السياسية والاجتماعية الّتي كانت سائدة آنذاك، كانت مؤاتية نوعاً ما.

يُذكر أن حكم المعتصم استمر إلى عام (٢٢٧ هـ). فخلفه في الحكم ابنه الواثق بالله الذي مات سنة (٢٣٢ هـ)، وفي عهد هذين لم يطرأ شيء ذا بال على الشيعة، حيث سار كلا الخليفتين على خطى المأمون في التعامل مع الشيعة، وقد أشارت بعض الوثائق إلى حُسن سيرة الواثق مع الناس عامة، ومع الهاشميين خاصة، وقيامه بتوزيع أموال طائلة عليهم.[3]

وكان الواثق يميل إلى الفكر المعتزلي، وقد عيّنَ لمنصب قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي الذي أصبحت له كلمة مسموعة في البلاط العباسي. وكانت قد طُرحت

١. الإرشاد، ج ٢، ص ٢٨١ـ٢٨٧
٢. تاريخ الشيعة، ص ٥٧
٣. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٤٥

في عصر المأمون مسألة كلامية، وهي مسألة حدوث كلام الله وقِدَمه، وقد مالت المعتزلة إلى القول بحدوث القرآن، في حين نزع أهل الحديث والحنابلة إلى قِدَم كلام الله، ورفضوا الرأي القائل بحدوثه وخلقه، وأصبحت هذه القضية مسرحاً لصراع عنيف بين الطرفين، وكان عمّال الخليفة العباسي يختبرون الناس بها، ويمنحون المناصب الحكومية والدينية لمن يرىٰ حدوث الكلام الإلٰهي، ولهذا أُطلِق على هذا الدور: دور المحنة.

إن نظرية حدوث كلام الله تعالىٰ، وإن كانت نظرية صائبة تنسجم مع رؤية أئمة أهل البيت عليهم السلام، إلّا أنهم عليهم السلام أعرضوا عن الخوض فيها، لأنها اصطبغت بصبغة سياسية على يد الخلفاء ومتكلمي المعتزلة، من أجل تحقيق مآرب سياسية واجتماعية محدّدة، ومع ذلك فإن الأئمة عليهم السلام كانوا يُفصحون عن آرائهم حيال هذه المسألة كلما سنحت الظروف وعلى أية حال، فقد توفرت للشيعة في عهد المأمون والمعتصم والواثق ظروف سياسية واجتماعية مناسبة، تُعدّ أفضل مما سبقها من عهود، ومما أتىٰ بعدها، وقلّما تعرضت في أيام هؤلاء الثلاثة للكبت والقمع والتنكيل، ولكن ما إن أمسك المتوكل بزمام الحكم عام (٢٣٢ هـ) حتى تغيّرت الأوضاع تغيّراً جذرياً، حيث أوغل هذا الحاكم العباسي في تنفيذ سياسة القمع والتنكيل ضد الشيعة، وقام بسلسلة إجراءات معادية، أبرزها ـ والّتي تنمّ عن حقد شديد لأهل بيت النبوة عليهم السلام ـ هدم قبر الإمام الحسين عليه السلام، ومنع الناس من زيارته،[1] وكذلك قتل ابن السكيت مؤدب ولديْه: المعتز والمؤيد، وذلك أنّه سأله يوماً: يا يعقوب من أحبّ إليك، إبناي هذان أم الحسن والحسين؟ فقال: والله إنّ قنبر خادم عليّ، خير منك ومن ابنيك، فأمر به، فسلّوا لسانه من قفاه.[2]

وبعد استشهاد الإمام الجواد عليه السلام، تولّى الإمام الهادي مقاليد الإمامة حتى عام (٢٥٤ هـ). أيّ أن مدة إمامته دامت نحو (٣٤) سنة، عاصر خلالها المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز، وقد استدعاه المتوكل عام (٢٣٦ هـ) إلى مدينة سامراء عاصمة حكمه ليكون تحت المراقبة، ومع ذلك لم تفتأ عيونه ترفع التقارير إليه بين الحين والآخر عن تحرك الإمام وشيعته الذين يترددون إليه، وتزعم أنهم يجمعون المال

١. تاريخ الخلفاء، ص ٣٤٧ ٢. المصدر السابق، ص ٢٤٨؛ بغية الوعاة، ص ٤١٨ ـ ٤١٩

والسلاح للقيام بثورة تُطيح بأركان العرش العباسي، وعلى إثر ذلك يوعز المتوكل إلى جلاوزته بمداهمة بيت الإمام عليه السلام وتفتيشه، وسرعان ما ينكشف زيف هذه التقارير عندما لا يُعثر في بيته على شيء، وحُمل الإمام عليه السلام مرّة ـ بعد مداهمة بيته ـ إلى المتوكل في وقت كان المتوكل يشرب فيه الخمر، فلما مَثُل بين يديه ناوله الكأس الّتي كانت في يده، فقال الإمام عليه السلام: والله ما خامر لحمي ولا دمي فاعفني منه، فعفاه، ثم استنشد الإمام شعراً، فأنشد ـ بعد إلحاح من المتوكل ـ شعراً أثّر في الحاضرين لا سيما المتوكل الذي راح يبكي ويندم على ما صدر منه.[1]

استشهد الإمام الهادي عليه السلام في عهد المعتز العباسي، وتولّى الإمامة من بعده ابنُه الحسن العسكري الذي دامت إمامته (٦) سنوات (٢٥٤ ـ ٢٦٠ هـ) عاصر خلالها المعتز والمهتدي والمعتمد.

وكان عليه السلام قد رافق والده الهادي عليه السلام في رحلته الّتي أشخصه فيها المتوكل من المدينة إلى سامراء، وأقام هناك في محلة تُعرف بالعسكر، وفُرضت عليه رقابة مشدّدة من قبل الجهاز العباسي الحاكم خشية من تغلغل نفوذه الروحي بين الناس، ومن ولادة ابن له، يُطوىٰ علىٰ يديه ـ كما ورد في الروايات ـ بساط الظلم والجور في العالم، ويعمّ العدل في ربوعه.

وانطلاقاً من هذه الهواجس، ضُيّق الخناق على الإمام عليه السلام، وحيل بينه وبين شيعته الذين كانوا ينتشرون في مدن مختلفة، ويرجعون في استفتاءاتهم ومشاكلهم الدينية إلى وكلاء الإمام عليه السلام، وكانت قمْ ـ على سبيل المثال ـ تعدّ من مراكز الشيعة، وللإمام العسكري عليه السلام وكيل فيها، يرجع الناس إليه في المسائل، هو: أحمد بن إسحاق.

وباستشهاد الإمام العسكري عليه السلام، بدأت إمامة الإمام الثاني عشر (المهدي الموعود (عجّل الله تعالى فرجه الشريف))، وبذلك دخل تاريخ التشيّع مرحلة جديدة، هي بداية عصر الغيبة، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن شهد تاريخ التشيع تحولات وتطورات عديدة، لا يتسع المجال للحديث عنها ولو بصورة عابرة.

---

١. مروج الذهب، ج ٤، ص ١١؛ أعيان الشيعة، ج ٢، ص ٣٨؛ تاريخ الشيعة، ص ٦٠

٧
مصادر الشيعة في أُصول الدين وفروعه

إن أحد المباحث الهامة في معرفة الشيعة، هو مبحث مصادر المذهب الشيعي، فمن أين استقى الشيعة عقائدهم وآراءهم في مجال أُصول الدين وفروعه؟ وكيف؟ وما هي نقاط الاشتراك بينهم وبين سائر المذاهب ؟

لقد استقىٰ الشيعة الإمامية أُصول الدين وفروعه من أربعة مصادر، هي:

١. القرآن الكريم؛

٢. السنّة النبوية؛

٣. أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام؛

٤. العقل والتفكير العقلي.

ولأجل التعرّف على هذه المصادر، نتناولها بشيء من التفصيل:

أ) القرآن الكريم

حظي القرآن الكريم باهتمام المذاهب الإسلامية بأسرها، باعتباره مصدراً مشتركاً بينهم، على الرغم من اختلافهم في أسلوب استنطاقه، وفي مدى استيعاب مفاهيمه ومعارفه، فهو عند الشيعة ـ وتبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام ـ يعدّ أوّل وأهمّ مصدر للعقائد والمعارف والأحكام الدينية، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إنّ الله تبارك وتعالىٰ أنزل في القرآن تبيان كل شيء، حتى والله ما ترك الله شيئاً

يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أُنزل في القرآن، إلّا وقد أنزله الله فيه».[١]

وفي حديث آخر يقولعليه السلام:

«ما من أمر يختلف فيه اثنان إلّا وله أصل في كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال».[٢]

فأصالة القرآن الكريم بلغت في نظر أهل البيتعليهم السلام حدّاً أن أصبحت معياراً لقبول الأحاديث أو ردّها، وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادقعليه السلام:

«ما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه».[٣]

ويقول في حديث آخر:

«ما لم يوافق من الحديث القرآن، فهو زخرف».[٤]

صيانة القرآن من التحريف

يقع التحريف في الكتب السماوية على نحوين:

الأوّل: التحريف اللفظي.

الثاني: التحريف المعنوي.

والمراد من التحريف اللفظي: النقص أو الزيادة في آيات الكتاب السماوي.

أمّا التحريف المعنوي، فيُقصد به تفسير وتأويل آيات الكتاب السماوي بنحو مجانب للحق، وهو ما يُعبَّر عنه ـ اصطلاحاً ـ التفسير بالرأي.

وأما التحريف الذي صار مورد تداول وبحث المحقّقين، فهو التحريف اللفظي، وبالذّات التحريف بالنقص، نظراً لعدم القول بزيادة سورة أو آية في القرآن الكريم بإجماع المسلمين قاطبة. فمن هذا الجانب لم يطرأ أي تحريف عليه.

أما التحريف بالنقص، فقد وهِمَ بعضهم أن ثمة سُوَراً أو آيات أو كلمات أحياناً قد

١. أُصول الكافي، ج ١، ص ٥٩، باب الردّ إلى الكتاب والسنّة، ح ١
٢. المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠، باب الردّ إلى الكتاب والسنّة، ح ٦
٣. المصدر السابق، ج ١، ص ٦٩، باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب، ح ١
٤. المصدر السابق، ح ٤

سقطت من القرآن الكريم، وقد وُجد في أوساط الشيعة من يعتقد بهذا النوع من التحريف لاسيّما في بحث الإمامة، الأمر الذي حدا بخصومهم وخاصّة الوهابية إلى التشنيع على الشيعة، وإلصاق تهمة التحريف بهم، إلّا أنَّ هذا الاعتقاد مرفوض من قِبلَ جمهور علماء الشيعة الذين أكّدوا على صيانة القرآن من التحريف زيادة أو نقصاناً.

وقد ذهب معظم الشيعة إلى عدم تطرّق التحريف اللفظي إلى القرآن الكريم، ذلك الكتاب المتداول بين أيدي المسلمين والذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيّه الكريمﷺ. وهذا الأمر أكّد عليه مشاهير متكلّميهم ومفسّريهم وفقهائهم منذ أقدم العصور، أمثال: الشيخ الصدوق (المتوفّىٰ ٣٨١ ه‍)، والشيخ المفيد (المتوفّىٰ ٤١٣ ه‍)، والسيد المرتضىٰ (المتوفّىٰ ٤٣٦ ه‍)، والشيخ الطوسي (المتوفّى ٤٦٠ ه‍)، وأمين الإسلام الطبرسي (المتوفّى ٥٤٨ ه‍)، العلّامة الحلّي (المتوفّىٰ ٧٢٦ ه‍)، والمحقق الكركي (المتوفّىٰ ٩٤٠ ه‍)، والشيخ بهاء الدين العاملي (المتوفّىٰ ١٠٣١ ه‍)، والملّا محسن الفيض الكاشاني (المتوفّىٰ ١٠٩٠ ه‍)، والشيخ جعفر كاشف الغطاء (المتوفّىٰ ١٢٢٨ه‍)، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (المتوفّىٰ ١٣٧٣ ه‍)، والعلّامة السيد محسن الأمين (المتوفّىٰ ١٣٧١ ه‍)، والإمام شرف الدين العاملي (المتوفّىٰ١٣٧٧ ه‍)، والعلّامة الأميني (المتوفّىٰ ١٣٩٠ ه‍)، والعلّامة الطباطبائي (المتوفّىٰ ١٤٠٢ ه‍)، والإمام الخميني (المتوفّىٰ ١٤٠٩ه‍)، والسيد الخوئي (المتوفّىٰ ١٤١٣ ه‍).

وحيث أن نقل كلمات هؤلاء الأعلام لا يتّسع له هذا البحث، فإننا نقتصر علىٰ ذكر عبارات الشيخ الصدوق والإمام الخمينيرح.

قال الشيخ الصدوق في كتاب الاعتقادات:

> اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالىٰ علىٰ نبيّه محمدﷺ، هو ما بين الدفّتين وهو ما بين أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك... ومن نسب إلينا أنّانقول أنّه أكثر من ذلك فهو كاذب.[1]

وقال الإمام الخميني في هذا الصدد:

> إن الواقف على عناية المسلمين على جمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءةوكتابة،

---

١. الاعتقادات في دين الإمامية، ص ٥٩

يقف على بطلان تلك المزعمة، وأنّه لا ينبغي أن يَركَن إليه ذومسكة، وما وردت فيه من الأخبار بين ضعيف لا يستدل به إلى مجعول يلوح منها أمارات الجعل إلى غريب يقضي منه العجب إلى صحيح يدل على أن مضمونه تأويل الكتاب وتفسيره.[١]

وثمة نقطتان جديرتان بالملاحظة في كلام الإمامؒ الآنف الذكر:

الأولىٰ: إقامة الدليل على صيانة القرآن الكريم من التحريف.

الثانية: نقد استدلال القائلين بالتحريف.

أما الدليل على نفي التحريف، فهو استقطاب القرآن الكريم لإهتمام المسلمين الذين لم يألوا جهداً في حفظ القرآن، حتى بلغ بهم الأمر أنهم خالفوا عمر بن الخطاب لما أسقط آية الرجم إبّان جمع وتدوين القرآن في عصر الخلفاء.[٢] هذا الدليل كان محطّ اهتمام منكري تحريف القرآن على الدوام، وهذا المعنى أكّده الشريف المرتضىٰ بقوله:

إن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته... فكيف يجوز أن يكون مغيّراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد.[٣]

وبالطبع فقد أقيمت أدلّة أُخرىٰ على نفي التحريف في القرآن، لا يتسع المجال لذكرها هنا.

وأما استدلال القائلين بالتحريف ببعض الروايات الدالة على ذلك، فلا يمكن الركون إليه لأن هذه الروايات أما مخدوشة سنداً، وأما مجعولة وموضوعة، وعلى فرض التسليم بها، فهي قابلة للتأويل باعتبارها ناظرة إلى التحريف المعنوي لا اللفظي.

هذه الحقيقة ـ وهي صيانة القرآن من التحريف زيادة أو نقصاً عند جمهور الشيعة ـ دفعت بالباحثين من السنّة إلى تنزيه المذهب الإمامي من تهمة التحريف، وفي هذا الإطار يقول الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه النفيس إظهار الحق:

القرآن الكريم عند جمهور علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية محفوظ عنالتعيير والتبديل، ومن قال منهم بوقوع النقصان فيه، فقوله مردود غير مقبولعندهم.[٤]

١. تهذيب الأصول، ج ٢، ص ١٦٥
٢. السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٤٤
٣. مجمع البيان، ج ١، ص ١٥
٤. عبد الحسين شرف الدين، الفصول المهمة، ص ١٧٥

وقال الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر:

وأمـا أن الإمـامية يـعتقدون نـقص القـرآن فـمعاذ الله! وإنـما هـي روايـات رُويت في كتبهم، كما رُوي مثلها في كـتبنا، وأهـل التـحقيق مـن الفـريقين قـد زيّفوها وبيّنوا بطلانها، وليس في الشيعة الإمامية أو الزيدية مَنْ يعتقد ذلك، كما أنّه ليس في السنّة من يعتقده، ويستطيع مَن شاء أن يرجع إلى مثل كتاب الإتـقان للسيوطي ليرىٰ فيه أمثال هذه الروايات التي نضرب عنها صفحاً». [1]

لقد أشار الشيخ المدني إلى أن قول من ذهب إلى التحريف سواء عند الشيعة أو السنّة ـ استناداً إلى بعض الروايات السقيمة ـ لا يعبّر في الحقيقة عن رأي المذهب الذي ينتمي إليه.

يُذكر أن عالماً سنّياً من علماء مصر قام بتأليف كتابٍ سمّاه الفـرقان وأودع فـيه الروايات الدالّة على وقوع التحريف نقصاً في القرآن الكريم، بيد أن جـامعة الأزهـر طلبت من الحكومة مصادرة الكتاب بعد أن بيّنت بالدليل والبحث العلمي أوجه البطلان والفساد فيه، فاستجابت الحكومة لهذا الطلب، وصادرت الكتاب.

وعلى الرغم من هذه التصريحات والتأكيدات، فإن ثلّة من علماء الوهابية تنكّبت جادة الحق والإنصاف، وسلكت سبيل العناد واللجاج، حينما أصرّت على اتهام الشيعة بالتحريف اللفظي للقرآن المجيد، وأغمضت عيونها عن الحـقائق السـاطعة والأقـوال الصريحة في نفي تحريف القرآن عند الشيعة. [2]

حجّيّة ظواهر القرآن

لا شك في أن القرآن الكريم كتاب هداية للبشر فـي حـياتهم الفـردية والاجـتماعية والمادية والروحية، وأن سعادة الإنسان وفلاحه رهن اتّباعه كما جاء في قوله سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. [3]

١. صيانة القرآن من التحريف، ص ٨٤، نقلاً عن مجلة «رسالة الإسلام» الصادرة عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، القاهرة، السنة ١١، العدد ٤٤، ص ٣٨٢ـ٣٨٥.

٢. للاطلاع أكثر على أدلّة نفي تحريف القرآن الكريم ونقد أدلّة الخصوم، راجع: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ١١٤ـ١٣٣؛ البيان في تـفسير القـرآن، ص ١٩٧ـ٢٣٥؛ آلاء الرحـمن فـي تفسير القرآن، ص ١٧ـ٢٩.

٣. المائدة، ١٥، ١٦

إنّ اللهَ تعالى أنزل الذكر الحكيم الحافل بضروب المعارف بلسانٍ عربيّ مبين ليفهم ذلك البشر كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.[١] ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾،[٢] وقوله ﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.[٣]

وبملاحظة هاتين النقطتين (وهما: فلسفة نزول القرآن، وفلسفة نزوله بلسان عربي مبين) يتضح أن ظواهر كلام الله سبحانه حجّة وأساس للنظام العقائدي والأخلاقي والسلوكي للإنسان، لأنه إذا لم يكن كذلك، للزم نقض الغرض المطلوب، وهذا يتعارض مع الحكمة الإلهية. وفي هذا الصدد يقول العلّامة الطباطبائي:

> إن الله سبحانه يخاطب الناس عامّة في القرآن، ويعرض أُموراً دون إقامةحجّة أو دليل، انطلاقاً من قدرة هيمنته كخالق، ويطالب بقبول الأصول والأُسس الاعتقادية كالتوحيد والنبوة والمعاد والأحكام العملية كالصلاةوالصوم وغيرها، كما يأمر بالنهي والامتناع أحياناً، وإذا لم تكن الآياتلتعطي الحجّية لم يكن ليطالب الناس بقبولها واتباعها، إذن لا بدّ من القولبأن هذه الآيات الواضحة الدلالة، طريق لفهم المفاهيم الدينية والمعارفالإسلامية وإدراكها، ونسمّي هذا البيان اللفظي بالظواهر الدينية، مثل﴿ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ و﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ﴾.[٤]

جدير بالذكر أن المعارف القرآنية ليست في مرتبة واحدة، فبعضها بسيط مُيسّر فهمه للجميع، وبعضها الآخر يحتاج فهمه إلى معرفة ومهارة لا تتيسّر للجميع، وبغض النظر عن ذلك، فإن القرآن الكريم فيه المُحكم والمتشابَه، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمُطلَق والمُقيّد، والمُجمل والمُبيّن، ومن دون فهم واستيعاب هذه الأُمور، لا يمكن الإحاطة بمفاهيم القرآن ومعارفه.

وفي الحديث المأثور عن النبيﷺ:

«من فسّر القرآن برأيه، فليتبوّأ مقعدَه من النار».

وليس المراد من التفسير بالرأي، هو خلوّ الذهن من أية تصوّرات وتصديقات علمية، لأن فرضاً كهذا لا واقع له، بل المراد هو عدم إخضاع فهم القرآن لرأي مُسبق،

---

١. يوسف، ٢ ٢. الزمر، ٢٨ ٣. النحل، ١٠٣
٤. الشيعة في الإسلام، ص ٩٤

وبعبارة أُخرىٰ الاحتراز عن الحُكم المتسرع في التـفسير، ورعـاية أسـلوب مـعقول ومشروع في فهم الكلام الإلٰهي.

وبعبارة ثالثة: التفسير بالرأي ليس ناظراً إلى نتيجة التدبّر في القرآن بل نـاظر إلى الأسلوب المتّبع لفهم الكلام الإلهي، وقد ورد في الحديث النبوي:

من تكلّم في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ.[1]

فالحكم بالخطأ على فرض إصابته للواقع، دليل على أن المراد من التفسير بالرأي، هو انتهاج أسلوب غير صائب لفهم الكلام الإلهي.

وهذه هي نظرية جمهور علماء الشيعة خلا الأخباريين[2] منهم، فقد ذهبوا إلى عدم حـجّيّة ظـواهـر القـرآن الكـريم، وإلى حـصر فـهم القـرآن بـالروايـات الواردة عن المعصومين عليهم السلام.

وقد تضمّنت كتب أُصول الفقه الشيعي وبـتفصيل مـصحوب بـالنقد، الأدلة الّـتي أقاموها لدعم رأيهم.

كيف يمكن فهم القرآن الكريم بالرجوع إلى الروايات، مع ورود أخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد على ضرورة جعل القرآن معياراً لقبول الأحاديث أو ردّهـا ـ خـاصّة المتعارضة منها ـ وورود أخبار بفساد الشرط في باب العقود والإيقاعات إذا خـالف القرآن الكريم؟ فإذا لم تكن ظواهر القرآن حجّة، فكيف يُتاح فرز الروايات الصحيحة عن السقيمة، والشرط الصحيح عن الفاسد ؟

وبغضّ النظر عن كلّ ما قيل، فقد حثّ أئمة أهل البيت عليهم السلام تلاميذهم علىٰ ضرورة الرجوع إلى القرآن، واستنباط الأحكام الإلهية من ظواهره.

سأل زُرارة الإمام الصادق عليه السلام وقال: ألا تخبرني من أين علمت وقلت: إن المسـح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟.... فقال: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ فـعرفنا حـين قـال برؤوسكم أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصـل

١. الميزان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٧٦

٢. أُطلقت الأخبارية على جماعة من محدّثي وفقهاء الشيعة. يُذكر أنّ إنكار حجّيّة ظواهر القرآن الكريم نُسب إلى ثلّة منهم.

اليدين بالوجه، فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ فعرفنا حين وصلهما بالرأس أن المسح على بعضها.[١]

المسح هو إمرار اليد أو كل عضو لامس على الشيء بالمباشرة، يقال: مسحت الشيء ومسحت بالشيء، فإذا عُدّي بنفسه أفاد الاستيعاب، وإذا عُدّي بالباء دلّ على المسح ببعضه من غير استيعاب وإحاطة، فقوله ﴿وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ يدلّ على مسح بعض الرأس في الجملة.[٢]

ومن الواضح أن هذا الاستدلال يعتمد على ظاهر الآية الكريمة، فإذا لم يكن ظاهر القرآن حجةً، لما كان لهذا الاستدلال وجه.

وقال الصادقعليه السلام لابنه إسماعيل: فإذا شهد عندك المؤمنون فصدّقهم، مستدلاً بقول الله عزّوجلّ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.[٣]

كما استدلّعليه السلام على النهي عن قبول خبر النمّام بالآية الكريمة: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.[٤]

وموارد أُخرىٰ كثيرة.[٥]

والدليل الآخر على حجّية ظواهر القرآن الكريم، هو حديث الثقلين الذي أكّد فيه النبيصلى الله عليه وآله على ضرورة تمسّك المسلمين بالقرآن والعترة، ومن الواضح أن ذلك لا يتمّ إلّا إذا كان القرآن قابلاً للفهم، وكان التدبّر فيه وفقاً للأصول المقرّرة في فهم الكلام الإلٰهي حجّة.

والدليل الآخر، هو آيات التحدّي في القرآن الكريم، فإذا لم يكن القرآن في متناول فهم البشر، فأي معنىٰ يبقىٰ للتحدي إذن؟! فالتحدي المعقول رهن فهم القرآن من قِبَل المخاطب، كي يُتاحَ له الإتيان بمثل هذا الكلام، وأما إذا افتُرض أن ألفاظ القرآن مستعصية على الفهم وشبيهة بالألغاز، فإنّ التحدي سيصبح حينئذ مجرّد لغوٍ.[٦]

١. وسائل الشيعة، ج ١، ص ٢٩١ — ٢. الميزان، ج ٥، ص ٢٢١

٣. التوبة، ٦١ — ٤. الحجرات، ٦

٥. راجع: البيان في تفسير القرآن، ص ٢٦٥، ٢٦٦. — ٦. المصدر السابق، ٢٤٦

وقد أورد منكرو حجّية ظواهر القرآن لإثبات ادعائهم دلائل، استعرضها علماء الأُصول في مباحث حجّية الظواهر على وجه التفصيل، وقد أعرضنا عن ذكرها مخافة الإطناب.[١]

ب) السنّة النبوية

السنّة لغة هي الطريق والنهج، واصطلاحاً هي قول المعصوم وفعله وتقريره، فالمراد من سنّة النبي ﷺ هو قول النبي ﷺ وفعله وتقريره، وتعتبر السنّة النبوية ثاني مصدر تشريعي وعقائدي وأخلاقي لدى المذهب الشيعي، وهي مورد اتفاق المذاهب الإسلامية قاطبة، على الرغم من اختلافهم في شروط الحديث وكيفيّة تلقّيه عن النبي ﷺ، فإذا نُقل، من طريق معتبر، حديث يضمّ قول النبي ﷺ أو فعله أو تقريره، فهو حجّة.

والدليل الذي أُقيم على حجّية السنّة النبوية ـ إضافة إلى الدليل العقلي ـ هو القرآن الكريم لاسيّما آياته التالية:

١. ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[٢]

وفقاً لهذه الآية، فإن الأحاديث النبوية هي المبيّنة لمعاني ومقاصد الآيات القرآنية، ومن الواضح أن هدف تبيين معاني ومقاصد القرآن ليس سوى هدف نزول القرآن (أي هداية البشر)، إذن فالسنّة أيضاً مثل القرآن حجّة شرعية.

٢. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.[٣]

٣. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.[٤]

٤. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[٥]

٥. ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[٦]

٦. ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.[٧]

١. للاطلاع أكثر، راجع: كتب أصول الفقه، مبحث حجّيّة الظواهر؛ البيان في تفسير القرآن، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٣.
٢. النحل، ٤٤
٣. الاحزاب، ٢١
٤. الحشر، ٧
٥. آل عمران، ٣١
٦. آل عمران، ٣٢
٧. النّجم، ٢ ـ ٤

أئمّة أهل البيت‌ﷺ والسنّة النبويّة

جاءت أحاديث أئمة أهل البيت‌ﷺ لتؤكد المنزلة الرفيعة للسنّة النبوية، ولزومَ الاستناد إليها باعتبارها أهمّ مصدر للمعارف الإسلامية بعد القرآن الكريم.

قال الإمام الصادق‌ﷺ: «ما من شيء إلّا وفيه كتاب أو سنّة».[1]

وسأل سماعة بن مهران الإمام الكاظم‌ﷺ: أكلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه أو تقولون فيه؟ قال: بل كل شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه.[2]

فكما أن موافقة الأحاديث للقرآن تُعدّ معياراً لفرز الصحيح منها عن السقيم، فكذلك سنة النبي‌ﷺ تعتبر معياراً لفرز أحاديث أئمة أهل البيت‌ﷺ صحيحها عن سقيمها.

سأل عبد الله بن أبي يعفور الإمام الصادق‌ﷺ عن ورود أحاديث متضاربة عن الأئمة الطاهرين‌ﷺ، فقال الإمام‌ﷺ:

إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله‌ﷺ وإلّا فالذي جاءكم به أولىٰ به.[3]

وروى زرارة عن الإمام الباقر‌ﷺ أنّه قال: كلّ من تعدّى السنّة رُدّ إلى السنّة.[4]

ونُقل عن الإمام الصادق‌ﷺ قوله: من خالف كتاب الله وسنّة محمد‌ﷺ فقد كفر.[5]

وقد يُقال إن الشيعة تستدل على المباحث الكلامية والفقهية والأخلاقية بأحاديث أئمة أهل البيت‌ﷺ دون الأحاديث النبويّة إلّا في موارد قليلة مما يوحي إلى قلّة اهتمامها بالسنّة النبويّة.

والجواب (كما أشرنا في صدر البحث) أن السنّة النبوية حظيت باهتمام كافة المذاهب، ومع ذلك فثمة اختلافات وقعت بينها بل بين علماء المذهب الواحد حول كيفية الأخذ بالسنّة، ويعود ذلك في الواقع إلى تباين الشروط الّتي وُضعت لقبول الروايات النبويّة، وهذا الأمر هو الذي دعا أبا حنيفة إلى عدّ أحاديث قليلة في باب الأحكام الفقهية كأحاديث معتبرة؛ وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون:

١. أصول الكافي، ج ١، ص ٥٩، باب الردّ إلى الكتاب والسنّة، ح ٤
٢. المصدر السابق، ح ٢ ٣. المصدر السابق، باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب، ح ٢
٤. المصدر السابق، ص ٧١، ح ١١ ٥. المصدر السابق، ص ٧٠، ح ٦

بلغت رواية أبي حنيفة إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها. ومالك إنّما صحّ عنده ما في كتاب الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها.[١]

ويرى الشيعة الإمامية أن أوثق طريق لتلقّي سنّة النبي الأكرم هم أئمة أهل البيت الذين يصدرون عن السنّة الشريفة؛ فعن هشام بن سالم وحمّاد بن عيسى وآخرين عن الإمام الصادق أنه قال: «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدّي وحديث جدّي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله وحديث رسول الله قول الله عزّوجلّ».[٢]

وقد أكّد العلّامة كاشف الغطاء هذه الحقيقة في حديثه عن غياب أي اختلاف بين الفريقين حول الكتاب والسنّة باعتبارهما من مصادر التشريع الإسلامي، وأوضح أن وجه الاختلاف، إنما هو في:

> ان الشيعة لا يعتبرون من السنّة أعني الأحاديث النبوية إلّا ما صح لهم من طرق أهل البيت عن جدّهم يعني ما رواه الصادق عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين السبط عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول‌الله . أما ما يرويه مثل أبي هريرة وسَمُرة بن جُندب ومروان بن الحكم وعمران بن حطّان الخارجي ونظائرهم، فليس لهم عند الإمامية من الاعتبار مقدار بعوضة.[٣]

ج) اقوال أهل بيت النبي وسيرتهم

المراد من أهل بيت النبي ، هم الذين ورد ذكرهم في آية التطهير والأحاديث النبوية، وعُرفوا بالعصمة عن الذنب والزلل والخطأ

١. آية التطهير

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.[٤]

تعتبر ﴿إِنَّمَا﴾ من أدوات الحصر والقصر، وعلى هذا الأساس فالإرادة الإلهية التي

١. مقدمة ابن خلدون، ص ٤٤٤، دار القلم، بيروت
٢. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٥٨
٣. أصل الشيعة وأصولها، ص ٦٦ ـ ٦٥
٤. الأحزاب، ٣٣

تعلّقت بتطهير أهل البيت ﷺ هي إرادة تكوينية لا تشريعية لشمولية الإرادة التشريعية والتطهير الناشيء منها وعدم اختصاصها بأحد كما يقول سبحانه عند بيان حكم الوضوء والغسل والتيمّم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾،[١] وعند بيان الزكاة يقول ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾.[٢]

إن أحد فوارق الإرادة التكوينية عن التشريعية هو إناطة تحقّق المراد في الإرادة التشريعية باختيار الشخص، وعدم لزوم أي محذور من تخلّف المراد عن الإرادة في حالة عدم اختياره.

وبعبارة أُخرىٰ: الإرادة التشريعية هي هداية تشريعية، وهي ليست سوىٰ الهداية إلى طريق السعادة والفلاح، والإنسان خُلِق مختاراً تجاه هذا الطريق، فهو إما أن يختاره أو أن يُعرض عنه ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.[٣] وأما الإرادة التكوينية فلا يتخلف المراد فيها عن الإرادة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.[٤]

ونستخلص ممّا تقدّم الأمرين التاليين:

أ) إرادة الله سبحانه تعلّقت بتطهير أهل بيت النبيﷺ من أي رجس بإرادة تكوينية.

ب) الإرادة التكوينية لله سبحانه متحققة علىٰ نحو الجزم واليقين.

إذن، فتطهير أهل البيتﷺ من الرجس والذنوب يتحقّق جزماً.

ومن جهة أُخرىٰ فإن الذنب والخطأ من المعاصي الّتي نُزِّه أهل بيت النبيﷺ عنها، فهم إذن معصومون.

ومع أخذ تلك النكتة بنظر الاعتبار، يمكن تعيين مصداق أهل بيت النبيﷺ:

١. لم يدّعِ أحد من أهل المذاهب الإسلامية عصمة أزواج النبيﷺ وقرابته، باستثناء فاطمة الزهراءﷺ وبعلها وبنيها الذين آمنت الشيعة بعصمتهم، فإذا تمّ رفض نظرية الشيعة في هذا الشأن، فإن آية التطهير سوف تبقىٰ بلا مصداق، وهذا خلاف مفاد آية التطهير.

٢. إن الآيات الّتي وردت قبل آية التطهير وبعدها تتعلق بأزواج النبيﷺ،

١. المائدة، ٦ ٢. التوبة، ١٠٣ ٣. الإنسان، ٣
٤. يس، ٨٢

والضمائر الواردة فيها، هي ضمائر جمع المؤنث ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ﴾، ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾، ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، بينما الضمائر الّتي وردت في آية التطهير، فهي ضمائر جمع المذكر ﴿عَنْكُمُ..... يُطَهِّرَكُمْ﴾ الّتي لا يمكن تطبيقها على أزواج النبي ﷺ، أما عند الشيعة فهي قابلة للتحقيق، لأن المشمولين بها (ما عدا فاطمة) من الذكور، وهم علي والحسن والحسين، واستعمال ضمائر جمع المذكر بلحاظ أغلبية الذكور متداول في اللغة.

٣. إن الأحاديث الواردة بشأن نزول آية التطهير حصرت مصداق أهل البيت عليهم السلام في علي وفاطمة والحسن والحسين، ولو كان شاملاً لنساء النبي ﷺ لكانت أم سلمة أولى بالدخول فيه لمكانتها السامية عند رسول الله ﷺ ولنزول الآية في بيتها لقولها: أنزل الله عزّوجلّ هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قالت: فأخذ رسول الله فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يده فألوىٰ بها إلى السماء، ثم قال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت: فأدخلت رأسي البيت فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: إنك إلى خير.[١]

وعن عائشة قالت: خرج رسول الله غداة وعليه مرط مرجّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.[٢]

وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بآية التطهير وبنزولها في شأن النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، يبلغ مجموعها سبعين حديثاً، روىٰ أهل السنة أربعين منها عن أمّ سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وابن عباس وعبد الله بن جعفر وواثلة بن الأسقع وعلي عليه السلام والحسن بن علي عليه السلام وآخرين، في حين روى الشيعة ثلاثين منها في الكتب الحديثية عن علي والسجاد والباقر والصادق والرضا عليهم السلام وعن أبي‌ذر وأبي‌ليلىٰ وأبي‌الأسود الدؤلي وآخرين.[٣]

١. أسباب النزول، ص ٢٣٩
٢. صحيح مسلم، ج ٢٤، ص ١٨٨، كتاب فضائل الصحابة، الباب التاسع
٣. للاطلاع أكثر على تفسير آية التطهير، راجع: التبيان، ج ٨، ص ٣٤٠؛ مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٥٧؛ الميزان، ج ١٦، ص ٣٠٩ ـ ٣١٣؛ الشيخ محمد مهدي الآصفي، آية التطهير.

الإجابة عن شبهة

تقدّمت الإشارة إلى أن الارادة المذكورة في الآية، هي ارادة تكوينية لايتخلف فيها المراد عن الإرادة، وهذا يعني ان تطهير أهل البيت من أي رجس وزلل أمر جزمي. وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: هل ثمّة تعارض بين العصمة الموهوبة لأهل البيت، وبين اختيارية الأفعال الصادرة عنهم؟ وبعبارة أُخرى: الإرادة التكوينية في آية التطهير تمهد الأجواء لإثارة شبهه صدور أفعال أهل البيت عن جبر.

وللإجابة عن هذه الشبهة نقول: إن الإرادة التكوينية ليست سوى العصمة والتنزّد عن الذنوب والهفوات، وهي لا تنافي اختيارية الفعل، لأن العصمة الّتي يَهبُها الله سبحانه لها أسباب خاصة، منها علم المعصوم اليقيني بعظمة المعبود من جهة وبالعواقب الوخيمة المترتبة على الذنب من جهة أُخرى. هذا العلم اليقيني تتبعه إرادة قطعية وجزمية بفعل الطاعة وترك المعصية. وليس ذلك سوى العصمة عن الذنوب، وعليه فليس ثَمّة فرق بين أن يكون هذا العلم اليقيني موهوباً لفرد أو فئة منذ البداية (أي مُناحاً) أو مُحصّلاً بعد سلسلة من الأعمال (أيّ مكتسباً)، إنما المهم هو أن العصمة لاتغيّر من حقيقة الإنسان وذاته باعتباره إنساناً، وصدور الذنب منه بهذا اللحاظ أمر ممكن على الرغم من أن صدوره منه بلحاظ العصمة غير ممكن.

وهذا الموضوع يمكن بحثه في شخص يتمتع بدرجة عالية من التقوىٰ، فإنه لا يُقدم على قتل الآخرين عن عمد، وهو بهذا اللحاظ معصوم عن اقتراف مثل هذا الذنب، لأن ملكة التقوىٰ تصدّه عن القيام بذلك، وأما بلحاظ كونه إنساناً، فإنه لا يمتنع صدوره منه.

وهكذا حال الأبوين إزاء ولدهما، فإنهما لا يسعيان إلى قتله في الظروف العادية، لإنّ السعي إلى ذلك في مثل هذه الظروف أمر غير ممكن، على الرغم من امتلاكهما القدرة على ممارسة القتل باعتبارهما من البشر، إلّا أنّ وجود عاطفة الأبوّة والأمومة يحول دون صدور هذا الفعل منهما.[1]

١. راجع في هذا الصدد: تفسير الميزان، ج ١١، ص ١٦٣؛ الالهيات في الكلام المقارن، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

٢. حديث الثقلين

يُعدّ حديث الثقلين من الأحاديث الإسلامية المتواترة، وقد رواه كلا الفريقين عن رسول الله، وإليك نصّ الحديث:

«يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».[1]

وهذا الحديث خالٍ من أية مناقشة في السند، فقد رواهُ أكثر من ثلاثين صحابياً.[2]

وهو يدلّ على الأُمور التالية:

١. وجوب طاعة عترة النبي، والخضوع لمرجعيتهم العلمية في المعارف والأحكام الدينية، لأن المراد من التمسك بالكتاب والعترة ليس إلّا العمل على ضوئهما، وقد أذعن لذلك علماء أهل السنة. قال سعد الدين التفتازاني:

ألا ترىٰ أنّه قرنهم بكتاب الله تعالىٰ في كون التمسك بهما منقذاً من الضلالة، ولا معنىٰ للتمسك بالكتاب إلّا الأخذ بما فيه من العلم والهداية، فكذا في العترة.[3]

٢. عصمة أهل بيت النبي عن الذنب والخطأ، لأنه:

أوّلاً: أهل البيت عِدْل القرآن الكريم، فكما أن القرآن مصون من الزيغ والباطل، فكذلك أهل بيت النبي.

ثانياً: إن التمسك بهم دون قيد أو شرط، كالتمسك بالقرآن، يمنع من الضلال، ومن الواضح أنّه إذا كان هناك أدنى احتمال لإضلال أهل البيت ـ والعياذ بالله ـ لما كان التمسك بهم بنحو مطلق مانعاً من الضلالة والانحراف.

ثالثاً: هم مع القرآن، فكما أن القرآن لا يحيد عن جادّة الحق، فكذلك عترة النبي لا يحيدون عنها أبداً.

١. نُقل حديث الثقلين بعبارات مختلفة، وما جاء في المتن هو المشهور.
٢. راجع حول سند الحديث ورواته: عبقات الأنوار، ج ١، ٢؛ المراجعات، المراجعة ٨.
٣. شرح المقاصد، ج ٥، ص ٣٠٣، منشورات الشريف الرضي، قم.

٣. وجود إمام معصوم في كل زمان. لقوله : «لن يفترقا» أي أهل البيت عن القرآن المجيد، وبالعكس.

ففي كل زمان سيد معصوم من عترة النبي منزّه عن الذنب والخطأ. وعلى هذا الأساس، فإن حديث الثقلين فيه دلالة على وجود الإمام صاحب الزمان (عج)، لأنه لم يبق من عترة النبي من يتسم بالعصمة غيره.[1]

ودلالة الحديث على عصمة العترة الطاهرة ومرجعيتهم الدينية واضحة، لأن التمسك بها كالتمسك بالقرآن يحمي من الضلال؛ علماً أن القرآن الكريم مصون من الخطأ والزيغ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[2] فكذا قول وفعل أهل البيت مصونان من الخطأ والزيغ أيضاً، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى دلّ عدم افتراق أحدهما عن الآخر على ضرورة الانتفاع بإرشادات العترة والقرآن معاً إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك وجود إمام معصوم من عترة النبي على الدوام، وهذه الخصوصية لاتنطبق إلّا على أئمة الشيعة، لأن أحداً لم يقل بعصمة أحدٍ غيرهم (وغير فاطمة الزهراء) من آل النبي

٣. حديث السفينة

قال النبي : «إنّما مَثَلُ أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق».[3]

وجه تشبيه أهل البيت بسفينة نوح هو دعوة المسلمين إلى الاهتداء بعلم أهل البيت في أصول الدين وفروعه واتباع أقوالهم وسيرتهم. وبعكس ذلك فإنهم سوف يغرقون في خضم بحر اختلاف المذاهب والآراء، ولا تكتب لهم النجاة.

يقول ابن حجر في توضيح هذا الحديث:

وجه تشبيههم بالسفينة إن من أحبّهم وعظّمهم شكراً لنعمة مشرّفهم، وأخذ بهدي

١. راجع: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار، ج ٢، ص٢٤٧ـ٢٦٩.
٢. فصّلت، ٤٢
٣. المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٥١؛ ج ٢، ص ٣٤٣. ولمعرفة المزيد من مصادر حديث السفينة من طرق الفريقين، راجع: السيد هاشم البحراني، غاية المرام، ج ٣، ص ١٣ـ٢٤.

علمانهم نجا من ظلمة المخالفات. ومن تخلّف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم، وهلك في مفاوز الطغيان.[١]

٤. حديث أمان أهل الأرض

ورد بشأن أهل البيت عليهم السلام حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو قوله:

النجوم أمان لأهل الأرض، وأهل بيتي أمان لأمّتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيله من العرب اختلفوا، فصاروا حزب إبليس.[٢]

هذه الأحاديث وغيرها تؤكد على ضرورة اتباع المسلمين لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، كما تدل بوضوح على مرجعيتهم العلمية والدينية، وتثبت أن قول وتقرير أهل بيت النبوة ككتاب الله وسنّة نبيّه مصدر لمعرفة أصول الدين وفروعه.

أهل البيت ونهج البلاغة

بعد أن وقفنا على مقام أهل البيت عليهم السلام ومنزلتهم العلمية، وضرورة اتباعهم في القرآن الكريم والأحاديث النبوية؛ نرىٰ من المناسب أن نعطف عنان القلم الىٰ بيان مكانتهم في قيادة الأمة الإسلامية في كلمات الإمام علي عليه السلام، ونرجع في هذا الصدد إلى كتاب نهج البلاغة لنقتطف شذرات منه:

ـ هم عَيْشُ العلم وموت الجهل... لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه. هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه.[٣]

ـ فأين يُتاهُ بكم وكيف تَعمهون وبينكم عترة نبيّكم، وهم أَزِمَّة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، ورِدُوهم ورودَ الهِيمِ العطاش.[٤]

١. المراجعات، المراجعة ٨، نقلاً عن الصواعق المحرقة ٩١، الباب ١١، تفسير الآية السابعة.
٢. المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٤٩. يقول الحاكم النيسابوري بعد نقل الحديث، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه: للاطلاع أكثر على مصادر هذا الحديث من طرق الفريقين، راجع: غاية المرام، ج ٣، ص ١٣٧ ـ ١٤٠. يُذكر أن مسألة خلق النجوم لهداية البشر وردت في القرآن أيضاً، قال سبحانه ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ النحل، ١٦، وقال ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الأنعام، ٩٧. إن إحدى الوسائل الّتي راجت بين البشر قديماً هي الاهتداء بالنجوم في البر والبحر. من هنا نرى اهتمام القرآن والسنة بها.
٣. نهج البلاغة، خ ٢٣٩ ٤. المصدر السابق، خ ٨٧

يقول ابن أبي الحديد عند شرحه لهذه الفقرة من كلامه:

هذا القول من عليّ يشعر بأن العترة معصومة، فما قول أصحابكم في ذلك؟ قلت: نصّ أبو محمد بن متويه في كتاب الكفاية على أن علياً معصوم وإن لم يكن واجب العصمة، ولا العصمة شرطٌ في الامامة، لكن أدلّة النصوص قد دلّت على عصمته والقطع على باطنه ومغيبه، وإن ذلك أمر اختصّ هو به دون غيره من الصحابة.[١]

ـ انظروا أهلَ بيت نبيّكم، فالزموا سمْتَهم، واتّبعوا أَثَرهم، فلن يُخرجوكم من هدىً، ولن يُعيدوكم في ردى، فإنْ لبَدوا فالبدوا وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، وتتأخّروا عنهم فتهلكوا.[٢]

والنكتة الّتي يجب التأكيد عليها في ختام البحث: هي أن أئمه أهل البيت... كانوا في الحقيقة ترجمان الوحي ولسان القرآن وسنّة النبي، فما بيّنوه في مجال المعارف والأحكام الإلهية كان في الواقع تفسيراً وتبييناً للقرآن والسنه، والروايات الّتي نُقلت عنهم في البحث المتعلق بالكتاب والسنّة تؤكّد هذه الحقيقة، وهي أن ما من شيء إلّا وهو في الكتاب والسنّة، وتؤكد في الوقت نفسه أن المعارف والأحكام الّتي وردت في الكتاب والسنّة لا يعلمها إلّا الراسخون في العلم، والوارثون لعلم النبي: يقول الإمام أمير المؤمنين علي في هذا الصدد:

ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أُخبركم عنه، ألا إنّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم.[٣]

ويقول الإمام الصادق: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وفصل ما بينكم ونحن نعلمه.[٤]

ويقول في موضع آخر: نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله.[٥]

ويقول أيضاً: والله إني لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره، كأنّه في كفّي، فيه خبر

١. شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٣١
٢. نهج البلاغة، خ ٩٧
٣. نهج البلاغة، خ ١٥٨
٤. أصول الكافي، ج ١، ص ٥٠. كتاب فضل العلم، باب الرد إلى الكتاب والسنة، ح ٩
٥. المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٦، كتاب الحجة، باب الراسخين في العلم، ح ١

السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿تبياناً لكلّ شيء﴾[1].[2]

والأحاديث المرويّة عن أئمة أهل البيت في هذا الصدد كثيرة.

د) العقل

إنّ أحد مصادر المذهب الشيعي هو العقل والتفكير العقلي، وأوضح دليل على حجيّة التفكير العقلي هو ان إثبات وجود الله، ولزوم الدين والشريعة يعتمد إلى حدّ كبير على التفكير والاستدلال العقلي.

القرآن والتفكير العقلي

أكد القرآن الكريم على التفكير العقلي في آيات عديدة، منها:

﴿إنّ في خلق السمٰوٰت والأرض واختلاف الّيل والنّهار لآيٰت لأُولي الألبٰب * الذين يذكرون الله قيٰماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّمٰوٰت والأرض ربّنا ما خلقت هٰذا باطلاً سبحٰنك فقنا عذاب النّار﴾.[3]

وإلى جانب ثنائه على الذين يتفكرون في نظام الخلقة، ذمّ القرآن الكريم من لا ينصاع لحكم العقل الذي يهدي إلى معرفة حقائق الوجود وأسراره، وبالتالي إلى معرفة الله سبحانه ﴿إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصّمّ البكم الّذين لا يعقلون﴾.[4] ﴿ويجعل الرّجس على الّذين لا يعقلون﴾.[5]

وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّ القرآن الكريم نفسه يعتمد البرهان والاستدلال العقلي لإثبات المعارف الدينية، حيث يستدلّ على التوحيد بقوله: ﴿لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا﴾،[6] ثم يُبرهن على المعاد بقوله: ﴿أفحسبتم أنّما خلقنٰكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون﴾.[7]

ويستدلّ أيضاً على وجوب إطاعة أئمة الحقّ بقوله: ﴿أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدّي إلّا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون﴾.[8] ونماذج أُخرى كثيرة من هذا القبيل.

١. النحل، ٨٩

٢. المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٨، باب أنهم يعلمون علم الكتاب كله، ح ٤

٣. آل عمران، ١٩٠، ١٩١ ٤. الانفال، ٢٢ ٥. يونس، ١٠٠

٦. الأنبياء، ٢٢ ٧. المؤمنون، ١١٥ ٨. يونس، ٣٥

ولم يكتف القرآن بذلك، بل تحدّى المشركين والكافرين أن يقيموا برهاناً علىٰ مزاعمهم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾،[١] ثم أعلن بصراحة أنهم يتّبعون الظنّ وأنّهم ليسوا بأصحاب يقين وبرهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.[٢]

ويرى القرآن أن منطق المشركين والكافرين يتلخّص في اتّباع سيرة الآباء، وهذا المنطق لا يستند إلى أصول عقلانية، ويتنكّب عن جادّة الهداية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.[٣]

النبيّ والتفكير العقلي

فوّض الله سبحانه وتعالىٰ إلى نبيّه الكريمﷺ مهمة القيام بدعوة الناس إلى الدين القويم بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، قال عزّ من قائل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.[٤]

هذه الأساليب الثلاثة وإن انطلقت من وحي العقل، إلّا أنها تختلف باختلاف درجات العقل؛ فالموعظة الحسنة هي أدنىٰ درجة، ثمّ تعقبها المجادلة، وأما الحكمة فهي أعلى درجة منهما، وكان النبيﷺ يلجأ إليها في مجال إثبات العقائد الدينية، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم تكفّل ببيان هذه الأساليب، إلّا أن كُتب الحديث والتاريخ نقلت في هذا الصدد نماذج أُخرىٰ، منها:

١. أتىٰ رسولَ اللهﷺ يهوديٌ، فقال له: يا محمد جئت أسألك عن ربِّك، فإن أجبتني عما أسألك عنه اتبعتك وإلّا رجعت، فقال له: سل عما شئت.

فقال: أين ربك ؟

فقال: هو في كل مكان وليس هو في شيء من المكان بمحدود.

قال: فكيف هو ؟

فقال: وكيف أصف ربي بالكيف، والكيف مخلوق لله، والله لا يوصف بخلقه.[٥]

٢. دخل علىٰ رسول اللهﷺ في مسجده رجل من اليهود، فقال: يا محمد إلى ما تدعو؟

---

١. البقرة، ١١١ ٢. الأنعام، ١١٦ ٣. البقرة، ١٧٠

٤. النحل، ١٢٥ ٥. الصدوق، توحيد، ص ٣١٠، الباب ٤٤، ح ١

قال: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وإني رسول الله.

قال: يا محمد أخبرني عن هذا الربّ الذي تدعو إلى وحدانيته وتزعم أنك رسوله، كيف هو؟

قال: يا يهودي إن ربّي لا يوصف بالكيف، لأن الكيف مخلوق وهو مكيّفه.

قال: فأين هو ؟

قال: إن ربّي لا يوصف بالأين، لأنّ الأين مخلوق، وهو أيّنه.

قال: فهل رأيته يا محمد؟

قال: إنه لا يُرى بالأبصار، ولا يُدرك بالأوهام.

قال: فبأي شيء نعلم أنّه موجود؟

قال: بآياته وأعلامه.

قال: فبأي شيء اصطفىٰ منهم قوماً لرسالته ؟

قال: بسبقهم إلى الإقرار بربوبيته.

قال: فأخبرني عن ربّك هل يفعل الظلم ؟

قال: لا.

قال: ولِمَ؟

قال: لعلمه بقبحه، واستغنائه عنه.[1]

الجدير بالذكر أن هذا الدليل، هو نفس الدليل العقلي الذي أقامه متكلمو العدلية لإثبات العدل الالهي؛ يقول المحقق نصير الدين الطوسي في تجريد الاعتقاد:

وعلمه واستغناؤه يدلّان على انتفاء القبح عن أفعاله.[2]

أئمة أهل البيت والتفكير العقلي

كان المسلمون في عهد رسول الله يعيشون أجواء الوحدة، فليس ثمّة خلافات حادّة نشبت بينهم، ولا مناهج كلامية مختلفة فرّقت كلمتهم.

وكانت المناقشات الكلامية والعقائدية محدودة ومقتصرة على الجدال مع المشركين

١. المصدر السابق، ص ٣٩٧، الباب ٦١

٢. كشف المراد، المقصد الثالث، الفصل الثالث

وأهل الكتاب، إلّا أن هذا الوضع لم يبق كما هو عليه في عصر أئمة أهل البيت، فقد برزت على الساحة الفكرية خلافات مذهبية ومناهج كلامية متعددة. مال بعضها إلى الجمود على ظواهر الآيات والروايات، والنأي عن البحث والتفكير العقلي، وجنح آخر إلى إثبات المعارف والأحكام عن طريق العقل؛ فأهل الحديث هم ممثّلو المنهج الأوّل، والمعتزلة هم ممثّلو المنهج الثاني. وفي هذا الخضمّ انتهج أئمة أهل البيت منهجاً وسطاً، بعيداً عن الإفراط والتفريط.

وللإمام علي كلام حول مكانة العقل في معرفة الله تعالى، يقول فيه:

لم يُطلع العقول على تحديد صفته، ولم يَحجبها عن واجب معرفته.[1]

وتتلخص نظرة أهل البيت حيال العقل في أنّه يمتلك القابلية على معرفة أصول الدين ومبادئه في حقلي الرؤية الكونية والايديولوجية، ولكنه يظل بحاجة ماسّة إلى هداية الوحي لمعرفة تفاصيل الأحكام الإلٰهية؛ وعلى هذا الأساس فالعقل والوحي حجّتان إلهيتان على العباد. يقول الإمام الكاظم في هذا الصدد:

إنّ لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة، أما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول.[2]

فالعقل والوحي عند أهل البيت يُكمل بعضهما بعضاً، فمن جهة جاء الأنبياء بهداية ربّانية لإثارة دفائن العقول. ومن جهة أُخرىٰ قدّمت العقول البشرية دعمها للحجج الإلٰهية؛ وقد أشار الإمام علي ضمن كلام له إلى أحد أهداف بعثة الأنبياء، وهو «ليثيروا لهم دفائن العقول».[3] كما أشار الإمام الكاظم إلى تكميل العقول لدور الحجج الإلهية من خلال القول: «إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول».[4]

علماء الشيعة والتفكير العقلي

احتلّ العقل عند علماء الشيعة منزلة رفيعة في حقل المعرفة الدينية تبعاً للكتاب والسنّة، فمن جهة لم يُنكر متكلمو الامامية أصل الحُسن والقُبح العقليين، بل عمدوا إلى

١. نهج البلاغة، خ ٤٩
٢. أصول الكافي، ج ١، ص ١٣، كتاب العقل والجهل، ح ١٢
٣. نهج البلاغة، خ ١
٤. أصول الكافي، ج ١، ص ١٣، كتاب العقل والجهل، ح ١٢

تأسيس العدل الإلهي على هذا الأصل. ومن جهة أخرى جعلوا العقل مصدراً من مصادر التشريع، وقاموا على ضوئه بتشييد قاعدة التلازم بين حكمي العقل والشرع، هذا إلى جانب اعتبار العقل كأحد آليات فهم الكتاب والسنة عبر قرائن واعتبارات عقلية فتحت الباب على مصراعيه أمام المفسرين والمجتهدين لتفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام الشرعية من القرآن والسنة.

الجدير بالذكر أن المستقلّات أو الملازمات العقلية البيّنة هي الّتي تعدّ حجّة إلهية على البشر وفي عرض الوحي، لا الاحتمالات الفكرية من قبيل القياس والاستحسان، وانطلاقاً من ذلك فإن مدرسة أهل البيت (ومن ضمنها فقه الإمامية) منحت العقل صفة قانونية لما جعلته أسلوباً ثابتاً لاستنباط الأحكام، ونددت بالقياس والإستحسان لاعتمادهما على الظن والحدس، يقول الإمام الصادق مخاطباً أبان بن تغلب:

«إن السنّة لا تُقاس، ألاترى أن المرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها، يا أبان إن السنّة إذا قيست مُحق الدين».[1]

فتلخّص مما سبق أن العقل تصدّىٰ لتمثيل أدوار مختلفة في باب المعرفة الدينية، منها:

١. إثبات أصول الدين؛ نظير إثبات وجود الله وبعض الصفات الإلهية الّتي تعدّ أساساً لإثبات الشريعة وإثبات ضرورة الدين والشريعة.

٢. استنباط بعض أحكام الشريعة؛ وهو في ذلك يعدّ في عرض الوحي كأحد مصادر التشريع الإسلامي (المستقلّات والملازمات العقلية).

٣. آليّته لفهم الكتاب والسنّة؛ ويظهر هنا دوره المعرفي الهامّ. ويكون في طول الوحي (الكتاب والسنة) لا في عرضه، كالنّور يكشف الأشياء حين يسطّع عليها، دون أن يضيف إليها شيئاً جديداً.

٤. التصدّي لبيان الأحكام الدينية بياناً عقلانياً في نطاق محدود من خلال بيان فلسفة الأحكام وحكمتها؛ وبالطبع فإنّ دور العقل في هذا النطاق محدود للغاية لاسيّما

١. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٢٥

في العبادات، وكل ما يُقال في التفكير العقلي أو المعرفة العلمية يمكن أن يقال في فلسفة الأحكام وحكمتها، ويتعذّر عليه ـ العقل ـ غالباً بيان السبب الرئيس والفلسفة الغائيّة، ومن وحي ذلك، فإنّ تعميم الحكم في موضوع ما على مواضيع أُخرىٰ متشابهة في غاية الصعوبة.[١]

١. للاطلاع أكثر على دور العقل ومنزلته في استنباط أحكام الشريعة، راجع: الأستاذ الشهيد المطهري، الإسلام ومقتضيات الزمان؛ المفكر الشهيد محمد باقر الصدر، دروس في علم الأُصول؛ آية الله الجوادي الآملي، شريعت در آينه معرفت؛ القواعد الكلامية، للمؤلف.

الباب الثّاني

التوحيد والعدل

١
التوحيد والشرك

يعتبر التوحيد ونفي الشرك من أهم العقائد الإسلامية، وقد شكّل المحور الأساسي لأهداف بعثة الأنبياء ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾،[1] وهذا الاعتقاد هو مورد اتفاق المذاهب الإسلامية كافة، وعلى الرغم من ذلك فقد طُرحت آراء ونظريات متضاربة في تفسيره وتبيينه، وسنكتفي هنا بذكر عقيدة الشيعة الإمامية بشأن التوحيد وأقسامه ومراتبه، دون الخوض في الآراء التي دارت حوله.

ينقسم التوحيد ـ عادة ـ إلى ذاتي وصفاتي وأفعالي وعبادي، وقد يُذكر بدل التوحيد الأفعالي أحياناً، التوحيدُ في الخالقية والربوبية، وهذا الاصطلاح الأخير يوائم نصوص الكتاب والسنّة، وسنعقد بحثنا هذا على أساس هذا المنهج.

١. التوحيد الذاتي

ويُقصد به أنّ الذات الإلٰهية لا مثيل لها ولا شبيه؛ يعني أن ثَمَّة موجوداً واجب الوجود بالذات، غنيّاً بوجوده وكمالاته عن كلّ شيء وليس هذا الموجود سوى الله سبحانه وتعالىٰ، وأما غيره من الموجودات فهي ممكنة الوجود ذاتاً، وفقيرة. من هنا فإن كل موجود ـ خلا الله سبحانه ـ مركّب الوجود سواء أكان مركباً من أجزاء ذهنية أم عقلية، وسواء أكان مركّباً من أجزاء خارجية أم عينية. ولازم كون واجب الوجود واحد

١. النحل، ٣٦

بالذات هو بساطة ذاته والتنزّه عن التركيب. وهذان المعنيان ورد التأكيد عليهما في كلمات أئمة أهل البيتعليهم السلام. ونقتصر هنا على إيراد كلام للإمام عليعليه السلام في هذا الصدد:

سأل أعرابي أمير المؤمنينعليه السلام، وقال: أتقول إن الله واحد؟ فقال أمير المؤمنينعليه السلام:

يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لايجوزان على الله عزوجلّ، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه، فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد... وقول القائل: هو واحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لايجوز عليه، لأنه تشبيه وجلّ ربّنا عن ذلك وتعالى،وأما الوجهان اللّذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد، ليس له فيالأشياء شبه، كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه عزّوجلّ أحدي المعنىٰ، يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا عزّوجلّ.[1]

٢. التوحيد الصفاتي

ويقصد به اتحاد الصفات الذاتية لله سبحانه (كالعلم والقدرة والحياة) مصداقاً على الرغم من اختلافها مفهوماً، ومصداقها جميعاً هو الذات الإلٰهية البسيطة، وإلّا لزم تطرّق الكثرة والاختلاف إليها، وهو ينافي التوحيد الذاتي، لذلك فالتوحيد الصفاتي لا ينفك عن التوحيد الذاتي؛ فإذا لم تكن الصفات الذاتية لله سبحانه عين ذاته، فإن ذلك يستلزم ـ بالاضافة إلى الاختلاف والكثرة في الذات الإلٰهية ـ تعدّد واجب الوجود؛ لأن الصفات الإلٰهية اذا كانت ممكنة الوجود، لأدّىٰ ذلك إلى تطرّق الحاجة إلى الذات الإلٰهية، لأن الإمكان يلازم الحاجة، وقد أشار الامام عليعليه السلام إلى هذه الحقيقة، وهي أن كمال توحيده هو نفي الصفات الزائدة عنه، فقالعليه السلام:

كمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه[2]... فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله.[3]

١. توحيد الصدوق، الباب ٣، ح ٣
٢. لا يخفى أن مراد الإمامعليه السلام ليس هو نفي حقيقة الصفات عن الذات الإلٰهية، لأنّه، أوّلاً، يستلزم النقص في الذات الإلٰهية، وثانياً، إنّه ينافي كلامه الآخر الذي وصف فيه سبحانه بصفات ذاتية كالعلم والقدرة.
٣. نهج البلاغة، خ ١

٣. التوحيد في الخالقية والربوبية

ويقصد به أنّه لا ربّ ولا خالق سوى الله سبحانه، وأنّه لا شريك له في الخلق والتدبير، وعلى الرغم من أن نظام الخلق يقوم على سلسلة من الأسباب والعلل، إلّا أنها تفتقر إلى أي نوع من أنواع الاستقلال، بل ان تأثيرها خاضع لمشيئة الله وحوله وقوته، ويستفاد ذلك من طائفتين من الآيات القرآنية الكريمة، فالطائفة الأُولى أشارت إلى أن الخالقية والربوبية تختصّ بالله سبحانه، والطائفة الثانية نسبت الأفعال والآثار إلى الموجودات المادية والمجردة كالإنسان، كما أن ثمّة طائفة منها نسبت فعلاً واحداً، مرّة إلى الله سبحانه، وثانية إلى موجودات أُخرى، نحو قبض الروح حين الموت، حيث نسبته إلى الله سبحانه تارة ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1] وإلى ملك الموت تارة أُخرى ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[2] وإلى الملائكة تارة ثالثة ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.[3]

٤. التوحيد في العبادة

ليس ثمة موجود يستحق العبادة غير الله سبحانه، والعبادة هي الخضوع أمام موجود مع الاعتقاد بألوهيته، أي استقلاله في الذات والصفات والأفعال، وحيث أن مقام الألوهية يختصّ بالله سبحانه، فالعبادة أيضاً مختصّة به، وعبادة ما سواه شرك. نعم الخضوع لغير الله بدافع الاحترام دون الاعتقاد بألوهيته لا يعتبر شركاً وإن كان بنحو السجود الذي يُعدّ من أعلى درجات الخضوع والتسليم، فقد أشار القرآن الكريم إلى سجود الملائكة لآدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾،[4] وسجود يعقوب وزوجه وأبنائه ليوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ﴾.[5]

إن سجود الملائكة كان بأمر الله تعالى، وإن النبي يعقوب عليه السلام كان أيضاً معصوماً من الذنب ـ خصوصاً الشرك ـ فذكر سجود إخوة يوسف له يدلّ على جوازه وعدم ذمّه، ومن جهة أُخرى: الشرك ظلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[6] والظلم قبيح ذاتاً، ولا يفعل الله القبيح أبداً ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[7]

من مجموع الآيات المتعلقة بسجود الملائكة لآدم، وسجود يعقوب وأبنائه ليوسف،

١. الزمر، ٤٢ ٢. السجدة، ١١ ٣. الأنعام، ٦١
٤. البقرة، ٣٤ ٥. يوسف، ١٠٠ ٦. لقمان، ١٣
٧. الأعراف، ٢٨

نستنتج أن السجود إذا لم يكن بقصد العبودية، بل بقصد التكريم وأداء التحية، فليس هو بشرك وحرام، ولكن لا يستبعد أن يقال إنّه يُستفاد من الظواهر الدينية أن السجود لغير الله ـ وإن لم يكن بقصد العبودية ـ ممنوع في الشريعة الإسلامية.

يقول العلّامة الطباطبائي في هذا الصدد: لكن الذوق الديني المتخذ من الاستيناس بظواهره يقضي باختصاص هذا الفعل به تعالى، والمنع عن استعماله في غير مورده تعالى، وإن لم يقصد به إلا التحية والتكرمة فقط.[١]

من هنا يُعلم خطل رأي الوهابية التي تعتقد أن التوسل بالأنبياء والمرسلين والتبرّك بقبورهم وآثارهم الباقية شرك، لأن المسلمين لا يقصدون بذلك العبادة أبداً، ولا تأليهَ الأنبياء والمرسلين، وإنما يبتغون التقرّب إلى الله سبحانه، وتكريم الأنبياء والمرسلين.

قالت الوهابية: كان المشركون في عصر الرسالة يعبدون الأصنام تقرّباً إلى الله ﴿نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٢] واتخذوها شفعاء لهم ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾،[٣] لذلك فعبادة غير الله وطلب الشفاعة منه شرك، وإنْ كان بدافع التكريم والتقرّب الإلٰهي.

هذا الاستدلال بعيد عن الصواب، لأن مشركي عصر الرسالة كانوا يعبدون الأصنام اعتقاداً بربوبيّتها ـ كما صرّحت به الآية ـ ولو في بعض الأمور، وسيعترفون بخطأهم هذا يوم القيامة بالقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾،[٤] كما أنهم آمنوا أيضاً بشفاعة الأصنام على نحو الاستقلال، دونما حاجة إلى المشيئة الإلٰهية. وقد زيّف القرآن الكريم هذه العقيدة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾،[٥] ولا شك أن اعتقاداً كهذا هو شرك في الربوبية والتدبير، ولا يمكن أن يتفوّه به أي مسلم واعٍ.

التنزيه والتشبيه

إن البحث في التنزيه والتشبيه يتعلق بصفات الله سبحانه التي تنقسم إلى صفات ثبوتية وسلبية، فالصفات الثبوتية هي التي تدلّ على كمال وجودي ثابت لله سبحانه، والصفات السلبية هي التي تدلّ على نقص وجودي، وهو سبحانه منزّه عنه.

كما تنقسم صفات الله بلحاظ آخر إلى صفات ذاتية وصفات فعلية، فالصفات الذاتية هي التي تتصف بها الذات الإلٰهية دون أن تمس جانب الفعل والخلق كالحياة والعلم

١. الميزان، ج ١، ص ١٢٣ ٢. الزمر، ٣ ٣. يونس، ١٨
٤. الشعراء، ٩٧، ٩٨ ٥. البقرة، ٢٥٥

والقدرة. وأما الصفات الفعلية، فهي التي تتصف بها الذات الإلٰهية والتي تمس جانب الفعل والخلق، كالخالق والرازق والغافر والمميت ونظائرها.

وبما أن الله سبحانه منزّه عن كلّ نقص، فالصفات السلبية في حقّه تعني سلب نقص لا سلب كمال، بمعنى رجوعها إلى تقديس الذات الإلٰهية وتنزيهها عن كل نقص سواء أكانت صفات ذاتية أو صفات فعلية، أما التشبيه في قبال التنزيه، فيعني إثبات صفات ـ تختص بالمخلوقات والموجودات الممكنة ـ لله سبحانه، وهناك في تاريخ الأديان والمذاهب من حاد في الاعتقاد بالصفات الإلٰهية عن جادة الحق، وجنح إلى التشبيه.

كما ظهرت المشبّهة في عالم الإسلام أيضاً، حيث ذكرت كتب الملل والنحل المجسّمة والمشبّهة باعتبارهما من النحل العقائدية والكلامية.

وبالرغم من أن النزوع إلى التشبيه طرأ في معظم صفات الله سبحانه، إلّا أنّه راج على نطاق واسع في الصفات المذكورة في الآيات المتشابهة، وقد ذهب بعضهم استناداً إلى ظواهر الآيات مثل ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿جَآءَ رَبُّكَ﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، ذهب إلى الاعتقاد بجسمانية الله سبحانه، وإثبات أعضاء له كاليد والرجل والوجه، وصفات كالقعود والمشي.

وقد ذهبت الشيعة اقتداءً بأهل البيت عليهم السلام إلى الاعتقاد بالتنزيه وإبطال التجسيم والتشبيه. ويمكن الوصول إلى مغزى هذه الحقيقة عبر الإمعان في الآيات الآنفة الذكر ونظائرها، فمفردة «يد» كناية عن قدرة الله سبحانه التي تفوق كل قدرة، ومفردة «وجه» كناية عن الذات الإلٰهية؛ أي أن كلّ شيء هالك إلّا ذاته سبحانه، والاستواء على العرش كناية عن إحاطة علم الله، وقدرته بتدبير العالم.

والتنزيه لا يقتصر على ما ذُكر من الصفات التي يُعبّر عنها بالصفات الخبرية، بل يعمّ كافة الصفات الإلٰهية، فمثلاً علم الله عين ذاته؛ أي بعلم حضوري غير متناه، وليس علماً حصولياً زائداً على ذاته متناهياً، وهكذا الكلام في القدرة والحياة والإرادة.

وخلاصة البحث أن كمال الصفات الإلٰهية ثابت لله سبحانه، ونقصها منزّه عنه سبحانه، وهذا هو السبيل السويّ في بحث التوحيد، وإليه أشار الإمام الرضا عليه السلام لمّا قال: للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب، فمذهب النفي لا يجوز، ومذهب التشبيه لا يجوز، والسبيل في الطريقة الثالثة إثبات بلا تشبيه.[1]

---

١. الصدوق، كتاب التوحيد، الباب ٧، ح ٨

نفي الرؤية البصرية

يعد نفي الرؤية البصرية من لوازم نفي التجسيم عن الله سبحانه، لأنّ رؤية شيء تستلزم وجوده في مكان وجهة محددة، ووقوعه على مسافة معينة، ولولا ذلك لاستحالت الرؤية البصرية، ومن الواضح أن هذه الشرائط كلها تستلزم جسمانية الشيء التي يتنزّه عنها سبحانه. نعم الرؤية القلبية له سبحانه ممكنة، لأن مآل حقيقتها هو اليقين والإيمان الراسخ به سبحانه، وانطلاقاً من ذلك، أنكر أئمة أهل البيت الرؤية البصرية لله تعالى أشدّ الإنكار، وأكدوا على رؤيته القلبية.

سئل الإمام علي: هل رأيت ربّك؟ فقال: أفأعبد ما لا أرى؟ فقيل له: وكيف تراه؟ فقال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان.[١]

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن الرؤية البصرية لله تعالى محال عقلاً، فلا يمكن إثباتها اعتماداً على ظواهر القرآن والروايات، لأنّه كما يتعذر التمسك بظاهر آية ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ لإثبات جلوس الله على عرشه وكرسيّه كسائر الملوك، كذلك يتعذرالتمسك بظاهر آية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ...﴾[٢] لإثبات رؤية المؤمنين لله سبحانه يوم القيامة.

كما لا يمكن الأخذ بظاهر ما روي عن رسول الله: (ستَروْن ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر)، لأنّه يقود الى التجسيم والتشبيه المنافييْن لحكم العقل القطعي، فلابدّ من تأويله أو التوقف عنده.

نفي الحلول والاتحاد

من اللوازم الأُخرىٰ لأصل التنزيه هو نفي الحلول والاتحاد عن الله سبحانه، فالذات الإلٰهية المقدسة ما حلّت ولن تحلّ في شيء أبداً، سواء أكان ذلك الشيء إنساناً أم غير إنسان، وسواء أكان نبياً أم غيره، كما أنها ما اتّحدت بشيء أبداً ولن تتحد، لأن الحلول والاتحاد في معناهما الحقيقي يستلزمان النقص والحاجة، فالحالّ بحاجة الى محلّ، والاتحاد يستلزم التركيب.

من هنا فإن العقيدة المنسوبة الى النصارى من حلول الله تعالى في جسد المسيح

١. نهج البلاغة، خ ١٧٩ ٢. القيامة، ٢٢، ٢٣

او اتحاده به، عقيدة مجانبة للصواب، وأما ما ورد على لسان العرفاء المسلمين والمتصوفة من الحلول او الاتحاد فلابدّ من تأويله، ومن اعتقد بهما فهو كافر.[١]

الإيمان والكفر

يعدّ هذا المبحث من أهم المباحث العقائدية في دنيا الإسلام خلال التاريخ، ولم يكن يخلو من إفراط وتفريط، فقد ذهبت المرجئة الى أنّه لا تضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.[٢]

وذهب بعض فرق الخوارج الى أن العمل الصالح من دعائم الإيمان وأن مرتكب الكبائر كافر، ولكن عقيدة جمهور المسلمين من الفريقين هي أن الإيمان عبارة عن التصديق القلبي بالله تعالى وبما جاء به رسوله من قول أو فعل، والقول اللساني سبب ظهوره، وسائر الطاعات ثمرات مؤكدة له،[٣] وأن مرتكب الكبائر مؤمن فاسق، لذا فالإيمان وحده لا يكفي للوصول الى الكمال الروحي، مالم يقترن به العمل الصالح.

فحقيقة الإيمان ـ كما تقدّمت الإشارة إليها ـ هي التصديق القلبي، ومتعلّقه هو التوحيد والنبوة والمعاد وما جاء به رسول الله ﷺ من لدن الله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.[٤]

إن الأسلوب المتعارف لإثبات إيمان الأشخاص وترتيب آثاره العملية على حياتهم الدنيوية والاجتماعية، هو اللسان، فإن تعذّر فالإشارة أو الكتابة وأمثالها.

الكفر في قبال الإيمان، وهو عبارة عن إنكار التوحيد أو النبوة أو المعاد أو ما جاء به النبي ﷺ من عند الله تعالى، بنحو أن إنكار ذلك يساوق إنكار النبوة.[٥]

وللإيمان درجات مختلفة أوّلها الإيمان بالتوحيد والنبوة والمعاد وما أنزل الله، فمن

---

١. ابن ميثم البحراني، قواعد المرام، ص ١٧٠
٢. انظر: تلخيص المحصّل، ٢٦٠
٣. انظر: الملل والنحل، ج ١، ص ١٣٩؛ شرح المواقف، ج ٨، ص ٣٩٦.
٤. البقرة، ٢٨٥
٥. الكافر مَنْ كان منكراً للألوهية أو التوحيد أو الرسالة، أو ضرورة من ضروريات الدين مع الالتفات الى كونها ضرورة بحيث يرجع إنكارها إلى إنكار الرسالة. (السيد محمد كاظم اليزدي، العروة الوثقى).

اعتقد بها تترتّب عليه سلسلة من الأحكام الدينية التي تتعلق بحياته الدنيوية، والتي تكفّل الفقه الإسلامي ببيانها.

عن جعفر الكناسي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما أدنىٰ ما يكون به العبد مؤمناً؟ قال: يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، ويُقرّ بالطاعة، ويعرف إمام زمانه، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن.[١]

وأعلى درجات الإيمان هو الالتزام بما يعتقده، والعمل وفق الأوامر والنواهي الإلٰهية، وقد ورد في الحديث (الايمان ما خلص في القلب وصدّقه الأعمال)،[٢] وأيضاً (الايمان قول وعمل أخوان شريكان).[٣]

فالدرجات العالية للإيمان هي التسليم والرضا بالقضاء والقدر الإلهي، وعدم تعلّق القلب بأيّ شيء سوى رضا الله تعالى. روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنّه قال:

> بينا رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض أسفاره اذ لقيه ركب، فقالوا: السلام عليك يارسول الله، فقال: ما أنتم؟ قالوا: نحن مؤمنون، قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا:الرضا بقضاء الله والتسليم لأمر الله والتفويض الى الله تعالى، فقال: علماءحكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين، فلا تبنوا مالاتسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون.[٤]

إن الالتفات الى درجات الإيمان كفيل بتحقيق الأخوّة الاجتماعية بين المسلمين، وضمان الوحدة الإسلامية؛ لأن أولى درجات الإيمان، هي عدم تكفير أتباع المذاهب الإسلامية بعضهم البعض، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.[٥]

وفي ختام البحث نقول: إنّ مصطلح الإسلام في المداولات الفقهية والكلامية يعني الإقرار بالشهادتين وإن لم يكن مصحوباً بالإذعان والاعتقاد القلبي، وبذلك تحصل أدنى درجات الإيمان التي تترتب عليها الأحكام الظاهرية للإسلام.

ومن الواضح أنّ إسلاماً كهذا لن يكون وسيلة للنجاة في الآخرة.

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٦ ٢. معاني الأخبار، ص ١٨٧، باب معنى الإسلام والايمان
٣. المصدر السابق ٤. المصدر السابق ٥. النساء، ٩٤

٢
العدل الإلهي

حقيقة العدل الإلٰهي

لاشك أن الله عادل، لا خلاف في ذلك بين المسلمين، لأن القرآن الكريم تحدث بصراحة عن نفي الظلم عنه سبحانه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.[1]

بيد أن ثمة اتجاهين في تفسير العدل الإلٰهي:

الاتجاه الأوّل: العدل حسن ذاتاً، والظلم قبيح ذاتاً، وحيث أن الله سبحانه موصوف بكل كمال ومنزّه عن كل نقص، فهو عادل لا يجور، وبه قالت الشيعة وبعض المذاهب الإسلامية كالمعتزلة والماتريدية.

الاتجاه الثاني: نفي الحسن والقبح العقليين، وبه قالت الأشاعرة التي ذهبت الى أن كلّ فعل يصدر عنه سبحانه، فهو حسن وعدل وإنْ كان العقل يراه قبيحاً وظلماً، فإذا أراد الله ـ مثلاً ـ أن يُدخل أباذر النار وأبا جهل الجنة، فلا ينبغيالاعتقاد أن هذا الفعل قبيح وخلاف العدل والحكمة.

ومن الواضح أن هذا التفسير للعدل الإلٰهي يعني في حقيقته إنكار العدل، الأمر الذي حدا بالشيعة والمعتزلة الى عدّه من أصول المذهب، لإيضاح عدم صحة الاتجاه الثاني، ومن هنا أُطلق عليهما اسم «العدلية».

---

١. النساء، ٤٠

مظاهر العدل الإلٰهي

العدل من الصفات الإلهية التي تجلّت في مقام التكوين والتشريع والجزاء، فالعدل التكويني لله سبحانه هو خلق كلّ موجود على أساس العلم والحكمة، وتيسير سبل الهداية له ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.[١]

وعلى هذا الأساس، امتاز نظام الخلق بالاتقان والانسجام ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾،[٢] وبالتالي خُلق كل شيء بصورة حسنة ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.[٣]

فالحوادث الطبيعية المأساوية لا تخرج عن نطاق هذه القاعدة، وإن كان العلم المحدود للبشر من جهة، وجعل المنافع البشرية الضيقة ملاكاً للحكم على نظام الخلق العظيم من جهة أُخرى، قد دفعا ببعضهم الى توهّم عدم خضوع هذه الحوادث لنواميس عالم الطبيعة؛ إلّا أن إلقاء نظرة كلية فاحصة على هذا العالم كافٍ للإذعان بأن كلّ شيء في مكانه حسن وجميل.

أما العدل التشريعي، فيتعلّق بالموجودات لاسيّما الإنسان الذي يمتلك الاستعداد اللازم لاكتساب الكمالات، ولا يتحقّق ذلك إلّا بمعرفتها ومعرفة سبل الوصول إليها، عبر هداية إلٰهية تتمثّل بالعقل والوحي.

ويُعدّ بعث الرسل وتشريع الشرائع الالهية وإنزال الكتب السماوية من مظاهر العدل التشريعي لله عزّوجلّ، ومن جانب آخر فإن الله تعالى لم يكلّف الإنسان فوق طاقته واستطاعته. من هنا فإن أصل التكليف وخصوصياته لا يزيغ عن جادة العدل والحكمة، وقد أشار القرآن الكريم الى الهداية الفطرية والعقلانية والوحيانية للإنسان، فقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾،[٤] وقال عزّوجلّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾،[٥] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.[٦]

ويقول تعالى بشأن عدم التكليف بما لا يُطاق: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.[٧]

١. طه، ٥٠ ٢. النمل، ٨٨ ٣. السجدة، ٧
٤. الشمس، ٧، ٨ ٥. الإنسان، ٣ ٦. البلد، ٨ـ١٠.
٧. البقرة، ٢٨٦

العدل الإلٰهي هو أنّه تعالى لا ينظر الى المؤمن والكافر والصالح والطالح على حدّ سواء ثواباً وعقاباً، بل إن كلّ إنسان ينال ما يستحقه ويليق به، يقول سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾،[1] كما أنّه سبحانه لا يُعذّب البشر ما لم يبلّغهم ما يكلّفهم به ويتمّ الحجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.[2]

الحسن والقبح العقليان

تقدّمت الإشارة الى أن الشيعة فسّرت العدل الإلهي على أساس الحسن والقبح العقليين، والمقصود من الحسن والقبح العقليين هو أن الأفعال الصادرة عن الفاعل المختار هي نفسها تتصف بالحسن او القبح، وللعقل القابلية على إدراكهما في بعض الأفعال على الرغم من أن معرفتهما في كل الأفعال خارج عن قابلية العقل، ولهذا السبب فهو بحاجة الى هداية وحيانية.

وبعبارة أُخرى إن الحسن والقبح العقليين عامّان في مقام الثبوت ونفس الأمر، دون مقام الإثبات، فإدراك العقل لهما في هذا المقام محدود.

ويمكن أن يُستفاد ذلك من الآيات الكريمة، قال تبارك وتعالى بشأن مهمّة النبي ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3] وظاهر هذه الآية أن الأفعال بنفسها تنقسم الى قسمين: بعضها حسن، وبعضها قبيح، فيأمر النبيُّ ﷺ بما هو حسن في الواقع، وينهى عمّا هو منكر في الواقع. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته للإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «إنّه لم يأمرك إلّا بحسن، ولم ينهَكَ إلّا عن قبيح».[4]

وقد حفل القرآن الكريم بموارد عديدة دُعي فيها العقل الى الحكم، بمعنى أنّه أضفىٰ على العقل ومهارته في إدراك الأُمور النظرية والعملية صفة قانونية، كما في قوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[5] و﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾،[6] و﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾،[7] و﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾،[8] وغيرها من الآيات.

وإذا ما رفضنا الحسن والقبح العقليين، فإنّه لا يمكننا إثبات الحسن والقبح

---

١. الأنبياء، ٤٧ ٢. الإسراء، ١٥ ٣. الاعراف، ١٥٧
٤. نهج البلاغة، قسم الرسائل، رقم ٣١ ٥. الرحمن، ٦٠
٦. الزمر، ٩ ٧. يونس، ٣٥ ٨. ص، ٢٨

الشرعيين، لأن إثبات ذلك منوط بإثبات النبوة والعصمة، وإثبات هذين المطلبين عن طريق الشرع يستلزم الدور، أما مع القبول بهذا الحكم العقلي، وهو: أن تأييد مدّعي النبوة كذباً بالمعجزة، واصطفاء المذنب والعاصي لمنصب النبوة وهداية البشر أمر قبيح وأن الله لا يفعل القبيح، فإنه يتيسّر ـ على ضوء هذا الحكم ـ إثبات أصل النبوة والشريعة، وبالتالي إثبات الحسن والقبح الشرعييْن.[١]

هدف الخلق

مقتضى الحكمة الإلٰهية، هو أنه سبحانه خلق العالم لغاية وهدف معيّن، اذ لا يُعقل صدور فعل من فاعل حكيم دون غاية وهدف معقول، يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾.[٢] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلاً﴾.[٣]

هذه الآيات ونظائرها تؤكد أن الله سبحانه لم يخلق عالم الطبيعة عبثاً وبلا غاية، وإنما خلقه بالحق ولحكمة معينة، وقد صرّحت آيات أُخرى بأن الهدف من خلق الطبيعة هوالإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.[٤]

وسيتجلّىٰ هذا الهدف في الدار الآخرة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.[٥] فعبادة الله ـ إذن ـ هي السبيل لتحقّق الهدف المنشود للحياة الإنسانية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[٦]

الإنسان والاختيار

من مقتضيات الحكمة الإلٰهية، هوخلق الإنسان مختاراً في أفعاله، اذ من العبث تكليفه بما لا يطيق، وكذا عقاب من لا يمتلك القدرة على الفعل أو الترك، فإنه ينافي العدل الإلٰهي، يقول سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾،[٧] فكون الإنسان شاكراً أو كفوراً للنعم الإلٰهية دليل ساطع على اختياره، يقول الإمام علي﵇ ردّاً على من توّهم أن القضاء والقدر يستلزم الجبر:

ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي ولسقط معنى الوعد والوعيد.[٨]

١. للمزيد من الاطلاع، راجع: القواعد الكلامية للمؤلف.
٢. الأنبياء، ١٦
٣. ص، ٢٧
٤. البقرة، ٢٩
٥. المؤمنون، ١١٥
٦. الذاريات، ٥٦
٧. الإنسان، ٣
٨. الشيخ الصدوق، التوحيد، باب القضاء والقدر، ح ٢٨

وعن محمد بن عجلان، قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: أَجَبَرَ اللهُ العبادَ على أفعالهم؟ فقال: الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعلٍ ثم يعذّبه عليه.[١]

إن أقصر الطرق وأوضحها لمعرفة الاختيار، هو التأمّل في النفس وحالاتها، والعزم على إنجاز عمل ما، فالإنسان يشعر في قرارة نفسه بهذه الحقيقة الناصعة، وهي امتلاكه للإرادة والعزم والاختيار.

وبالطبع فإن الإدراك الوجداني يكشف عن الفقر الذاتي للإنسان، وعدم استقلاله الوجودي.

ونستخلص من هاتين النقطتين (التأثير الذي يتركه الإنسان على أفعاله، وعدم استقلاله الوجودي) حقيقة «الأمر بين الأمرين»، ذلك التعبير الذي ورد على لسان أئمة أهل البيت ﷺ، والمقصود بالأمرين: الجبر والتفويض، أي أن الاعتقاد بالجبر والتفويض باطل من رأسه، والصحيح هو الأمر بين الأمرين «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».[٢]

ويعتبر الاعتقاد بالقضاء والقدر الإلٰهي من الاعتقادات الإسلامية المُسلَّم بها، وقد ورد التأكيد عليه في كثير من الآيات والروايات.

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾،[٣] وربّما يُتصوّر أن الاعتقاد بالقضاء والقدر ينافي اختيار الإنسان، بيد أنه بالتأمل الدقيق يتّضح أن القضاء والقدر لا يستلزم جبر الإنسان فحسب، بل إن اختياره مظهر من مظاهر القضاء والقدر الإلٰهي، لأن القدرة الإلٰهية ليست سوى خلق كلّ موجود وفق مزايا خاصة، وميزة الإنسان هي امتلاكه حقّ الإرادة والاختيار في أفعاله.

قال عزّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾؛[٤] أيْ أنّ التقدير الإلٰهي يستلزم الهداية، والإنسان يحظى بالهداية التشريعية الى جانب الهداية التكوينية، والهداية التشريعية قائمة على أساس الاختيار: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.[٥]

والقضاء الإلهي يعني سيادة القوانين والنواميس الحتمية التي لا تتخلّف عن نظام الخلق لاسيّما النظام الحاكم على حياة الإنسان، وهو إنجاز أفعاله بإرادته ووعيه.

ومن الواضح أنّه حينما يتم اتخاذ القرار بشكل قطعي على إنجاز عمل ما وتتعلق به إرادة دون أن يكون هناك أي مانع من وقوعه، فذلك العمل سيتحقق جزماً، هذه

---

١. المصدر السابق، باب نفي الجبر والتفويض، ح ٦
٢. بحار الأنوار، ج ٥، ص ٥٧
٣. القمر، ٤٩
٤. الأعلى، ٣
٥. الانسان، ٣

الجزمية ناشئة عن اختيار الإنسان وإرادته، وليس ثمّة تضادّ بينهما.

اتّضح مما تقدّم أن علم الله وإرادته الأزلية وقدرته وخالقيته لا تنافي اختيار الإنسان بتاتاً، لأن كل أصل من الأصول المذكورة لا يغيّر من الواقع شيئاً، ما دام قد تعلّق علم الله وإرادتُه الأزلية بأن تمضي أفعال الإنسان وفق اختياره وإرادته، وهذا هو مقتضى عدل الله وحكمته.

البداء والمصير

ذُكر في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت‰ أنّ الاعتقاد بالبداء هو أحد الاعتقادات الدينية المهمة.

قال الإمام الصادق‰: ما عُظِّم الله عزّوجلّ بمثل البداء.[1]

وقال: ما عُبد الله بشيء مثل البداء،[2] وقال أيضاً: ما بعث الله نبياً قطّ إلّا أن يُقرّ لله بالبداء.[3]

والبداء لغة هو الظهور بعد الخفاء، فإذا أُطلق في حقّ الإنسان فهو بمعنى أن أمراً كان خافياً عليه ثم ظهر وعُلم، ومن الواضح أن المعنى المذكور يستلزم الجهل وتبدّل الرأي، وهو محال في حقّ الله سبحانه، لأنّه بعلمه الأزلي الثابت يعلم كل شيء ولا سبيل الى التبدّل والتغيّر في إرادته، وقد ورد في أحاديث أئمة أهل البيت‰ التأكيد على بطلان هذا المعنى للبداء في حقّ الله سبحانه، يقول الإمام الصادق‰ في هذا الصدد: من زعم ان الله عزّوجلّ يبدو له في شيء لم يعلمه أمس، فأبرأوا منه.[4] وقال في حديث آخر: فكلّ أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يصنعه، ليس شيء يبدو له إلّا وقد كان في علمه إنّ الله لا يبدو له من جهل.[5]

ونلمس بوضوح ـ من خلال أخذ تلك الأحاديث بنظر الاعتبار ـ أن حقيقة البداء في حق الله سبحانه هو الكشف والإظهار، أي أن كلّ ما يعلمه الله من قبل، وجهله الإنسان، فإن الله يكشفه ويبيّنه، والبداء بهذا الاعتبار يكون من فعل الله سبحانه على الرغم من أن الجهل والتغيّر لا يتطرق الى الذات الإلهية.

كما بيّن القرآن الكريم أن العناية الربانية الغيبية بالأنبياء والرسل، إنّما هي من أجل صيانتهم من الوقوع في الخطأ عند إبلاغ الوحي للبشر، قال تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا

---

١. أُصول الكافي، ج ١، باب البداء، ح ١ ٢. المصدر السابق

٣. المصدر السابق، ح ١٥ ٤. بحار الأنوار، ج ٤، ص ١١ ٥. بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٢١

رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾،[١] ومن الجليّ أن الله يعلم أن الرسل سيقومون بمهمة إبلاغ رسالته الى البشر، فيكون المقصود ـ إذن ـ من ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ هو تنجّز المهمة المذكورة على أرض الواقع ليطّلع عليها البشر، وهكذا الحال بالنسبة الى الآيات التي ذكرت أن الغرض من امتحان البشر هو أن يعلم الله الصادقين من الكاذبين، والمجاهدين من القاعدين.

فكما أن المقصود من «عَلِمَ» في الآيات السالفة الذكر هو الإعلام والإعلان، كذلك يكون المقصود من البداء في الأحاديث المذكورة هو الإبداء، هذا التعبير ورد في حديث نقله البخاري في صحيحه، حيث جاء فيه: إنّ ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً.[٢]

وقد علّق ابن الأثير على هذا الحديث بقوله: أي قضى بذلك وهو معنى البداء هاهنا، لأن القضاء سابق، والبداء استصواب شيء عُلم بعد أن لم يُعلم، وذلك على الله غير جائز.[٣]

لذلك لا ينبغي حمل البداء الوارد في أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام على معناه الحقيقي، واعتبار ذلك خدشاً يمسّ عقائد الشيعة، لأن هذا المعنى قد أُنكر في الروايات أشدّ الإنكار، كما رفضه علماء الشيعة قاطبة، وحينذاك لاتُصبح نسبته الى الشيعة إلا مجرّد افتراء.

والبداء في حقل التكوين كالنسخ في حقل التشريع، فالحكم المنسوخ كان معلوماً لله تعالى من قبل، وكان في الواقع ونفس الأمر قد شُرّع وسُنّ بصورة مؤقتة، ولكنه ذُكر في ظاهر الخطاب بصورة مطلقة، ممّا يبعث المرءَ على الظن بأبدية ذلك الحكم، ولكن سرعان ما يتبدّد ذلك الظن ويقف على خطئه عند مجيء الحكم الناسخ، وفي هذا الصدد يقول الشيخ الطوسي: ومن هذا يتأوّل ما روي من أخبارنا المتضمنة للفظ البداء وتبيّن أن معناها النسخ على ما يريده جميع أهل العدل فيما يجوز فيه النسخ أو تغيير شروطها إن كان طريقها الخبر عن الكائنات، لأن البداء في اللغة هو الظهور فلا يمتنع أن يظهر لنا من أفعال الله تعالى ما كنا نظن خلافه او نعلم ولا نعلم شرطه.[٤]

البداء وقدرة الله المطلقة

أشارت روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام الى ان الاعتقاد بالبداء جاء كردّ على عقيدة اليهود الذين وضعوا حدّاً لقدرة الله سبحانه. قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: ﴿وَقَالَتِ

---

١. الجنّ، ٢٨
٢. صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٥٨، كتاب بدء الخلقة
٣. النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ص ١٠٩
٤. كتاب الغيبة، ص ٢٦٤، ٢٦٥

ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[١]: لم يعنوا أنه هكذا، ولكنهم قالوا: قد فرغ من الأمر، فلا يزيد ولا ينقص، فقال الله جلّ جلاله تكذيباً لقولهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، ألم تسمع الله عزّوجلّ يقول: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[٢].[٣]

كما احتجّ الإمام الرضاﷺ على سليمان المروزي الذي كان ينكر البداء وقال: أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب. قال سليمان: وما قالت اليهود؟ قال: قالت ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يعنون أن الله قد فرغ من الأمر، ذليس يُحدِث شيئاً.[٤]

يتضح مما تقدّم من الروايات أن الاعتقاد بالبداء يستبطن أعلى درجات تعظيم الربّ، وأصدق عبادة لله سبحانه.

البداء ودور الأعمال الحسنة والسيئة في مصير الإنسان

كل ما قيل حول البداء كان يتعلق بجانبه الإلهي أي الاعتقاد بإحاطة القدرة الإلٰهية وهيمنتها، وثمّة جانب آخر له يتعلق بالأعمال الحسنة والسيئة ودورها في تغيير مصير الإنسان، أي ارتباط التحولات الحاصلة في حياته ومصيره بما يرتكبه من أعمال صالحة كانت أم غير صالحة، فصلة الرحم ـ مثلاً ـ تزيد في العمر، وقطعها يُنقص منه، وصدقة السر تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان، وعقوق الوالدين يقرّب من الأجل، والإحسان يُفيض الخير والبركة على المحسن.

وبالتأكيد فإن هذه الموارد تعتبر من العقائد المسلّم بها لدى كافة المسلمين، وقد صرّحت بها الآيات القرآنية والروايات الشريفة.

أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَن سرّه أن يُبسَط عليه رزقُه او يُنسَأ في أثره فليصلْ رحِمَه.[٥]

وروى السيوطي عن عليﷺ أنّه سأل رسول الله ﷺ عن الآية ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ فقال له: لأقرنّ عينيك بتفسيرها، ولأقرنّ عين أمتي بعدي بتفسيرها: الصدقة

١. المائدة، ٦٤ ٢. الرعد، ٣٩

٣. الشيخ الصدوق، التوحيد، ص ١٦٧؛ بحار الانوار، ص ٤، ص ١٠٤

٤. المصدر السابق، ص ١٤٤؛ بحار الأنوار، ج ٤، ص ٩٦

٥. صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٩٨، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

على وجهها، وبرّ الوالدين، واصطناع المعروف، يحوّل الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء.[١]

وروى العيّاشي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن المرء ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة، فيقصّرها الله الى ثلاث سنين او أدنى، وكان الإمام عليه السلام يتلو هذه الآية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[٢]

وقد يُثار الإشكال التالي وهو أن الاعتقاد بالقضاء والقدر الإلهي ينافي الاعتقاد بالمحو والإثبات وتغيّر المصير.

فنقول في الجواب عنه إن المحو والإثبات وتغيّر المصير وفق سلسلة من الأسباب والشروط المحدّدة، يندرج تحت القضاء والقدر الإلهي، لأن الله سبحانه ـ كما تقدّمت الإشارة الى ذلك ـ لا يخفى عليه شيء ويعلم به عن طريق علمه الأزلي، ولكن حوادث العالم تجري بصورة متسلسلة وفق أسباب خاصة، وقد قدّرت المشيئة الإلهية الحكيمة نظام العالم على هذا النحو.[٣]

ويتضح من المباحث الآنفة الذكر أن النزاع في المسألة لفظيّ، لأن منكري البداء إنّما أنكروا بداءً لم يعتقد به القائلون به (وهو الذي يستلزم تغييراً في العلم الإلهي)،[٤] لا البداء الذي صرّحت به روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام. واعتقد به علماء الإمامية كما مرّ تفصيله.[٥]

وجوب اللطف

يعتبر اللطف من صفات فعل الله تعالى ومن لوازم حكمته، والمراد به تمهيد سبل هداية المكلفين من قبل الله تعالى، ولما كان الهدف من خلق الإنسان هو تحقيق السعادة الأخروية القائمة على عبادة الله تبارك وتعالى وفعل الأعمال الصالحة: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾،[٦] ونيل ذلك الهدف لا يتيسر إلّا

١. الدر المنثور، ج ٤، ص ٦٦ ٢. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٢٠
٣. راجع: الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ١٩، ص ٦٥، ٦٦؛ الشهيد الأول، القواعد والفوائد، ج ٢، ص ٥٤ ـ ٥٦. ٤. انظر: التفسير الكبير، ج ١٩، ص ٦٦
٥. الميزان، ج ١١، ص ٣٨١، ٣٨٢، وراجع: الإلهيات في مدرسة أهل البيت عليهم السلام للمؤلف.
٦. العصر، ١ ـ ٣

بإرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية، باعتبارهما من أبرز مصاديق اللطف، من هنا اقتضت الحكمة الإلٰهية وجوب فعلهما.

ومن مصاديق اللطف أيضاً: الوعد والوعيد، التبشير والإنذار، أساليب الدعوة الى الله، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الإمامة وضرورة تمتع القائد بمواصفات ومؤهلات علمية وعملية، تخوّله حقّ ملْء الفراغ الناشيء عن رحيل النبيﷺ، وكل هذه الأُمور واجب فعلها على الله بمقتضىٰ حكمته.

وقد أشار القرآن الكريم الى وجوب الهداية على الله تعالى بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾،[2] وفي هذا الإطار يأتي لزوم رزق الموجودات انطلاقاً من ربوبيّته تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.[3]

ومن المعلوم أن وجوب الهداية على الله لا يعني فرضها عليه ـ والعياذ بالله ـ اذ ليس ثمّة ربّ غيره ليفرض عليه مثل ذلك، بل يعني حتميّة الهداية منه اقتضاءً لرحمته وحكمته، وما دور العقل في هذا الصدد إلّا معرفة ذلك الأصل الحتمي والضروري؛ لذا فالشبهة[4] المثارة بأن اللطف على الله يستلزم الحدّ من قدرته وسلطانه، إنما نشأت عن غياب فهم صحيح لقاعدة اللطف ولمعنى الوجوب على الله في مصطلح متكلّمي العدلية.

ومن الذين وقفوا على هذا الخطأ الشيخ محمد عبده، فقد قال ـ بعد أن نقل كلام الأشاعرة الذين نسبوا الى المعتزلة القول بإلزام التكليف والمسؤولية على الله:

> مذهب السلف الصالح هو الحقّ في المسألة. وما كانوا ينكرون الوجوب ولايقولون به على إطلاقه، وإنما مذهبهم إنه لا يجب على الله تعالى إلّا ما أوجبه وكتبه على نفسه، وما هو مقتضى صفاته ومتعلقاتها.[5]

١. النحل، ٩ ٢. الليل، ١٢ ٣. هود، ٦

٤. هذا الإشكال أورده الأشاعرة على المعتزلة والإمامية القائلين بالحسن والقبح العقليين، وباللطف ووجوبه على الله، وقد أجاب عنه متكلمو العدلية وقالوا، ليس المراد من وجوبه على الله الوجوب في مصطلح الفقهاء، بل المراد هو الوجوب العقلي، أي الملازمة بين الكمال الذاتي والكمال الفعلي، وحيث أن النقص لا يتطرّق الى ذات الله، فهو لا يتطرّق الى فعله أيضاً لذا فإنه تعالى لايُقدم على عمل خلاف حكمته ورحمته أبداً. راجع: القواعد الكلامية، ص ٧٤ـ٧٧.

٥. تفسير المنار، ج ٨، ص ٥٠

الباب الثّالث

النبوة والإمامة

١
النبوة والرسالة

الاعتقاد بالنبوة من ضروريات الإسلام بل من مسلّمات الأديان السماوية كافة، ويعدّ بعث الأنبياء على امتداد التاريخ لهداية البشر (ابتداءً بآدم‌علیه‌السلام وانتهاءً بمحمد‌صلی‌الله‌علیه‌وآله) مما لا خلاف فيه بين المذاهب الإسلامية.

وعلى الرغم من اختلاف آراء متكلّمي الإسلام حول بعض مسائل النبوة كحقيقة المعجزة وأركانها، وحقيقة العصمة وحدودها ودرجاتها، ووجه إعجاز القرآن، ومسائل أُخرى، فإننا سنتناول في هذا الفصل وبإيجاز مباحث عامة حول النبوة من وجهة نظر الشيعة الإمامية.

فلسفة النبوة

ذكر الإمام علي‌علیه‌السلام بشأن هذا الموضوع النقاط التالية:

١. ليستأدوهم ميثاق فطرته؛

٢. ويذكّروهم منسيّ نعمته؛

٣. ويحتجّوا عليهم بالتبليغ؛

٤. ويثيروا لهم دفائن العقول؛

٥. ويروهم الآيات المُقدّرة، من سقفٍ فوقهم مرفوع، ومهادٍ تحتهم موضوع....[١]

---

١. نهج البلاغة، خ ١

٦. وجعلهم حجّة له على خلقه، لئلّا تجب الحجّة لهم بترك الإعذار إليهم.[١]

وقال الإمام الصادق عليه السلام في جواب الزنديق الذي سأله من أين أثبتّ الأنبياء والرسل؟

١.١ إنه لما أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق:

١.٢ وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه ويحاجّهم ويحاجّوه.

١.٣ ثبت أن له سفراء في خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده ويولونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم، وإن تركه فناؤهم.

١.٤ فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبّرون عنه جلّ وعزّ، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه حكماء ومؤدّبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس ـ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من أحوالهم، مؤيّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة.

١.٥ ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء ومن الدلائل والبراهين لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته.[٢]

في هاتين الروايتين دلالةٌ واضحة على ضرورة النبوة، وتأكيدٌ على حاجة البشر إلى هداية سماوية.

وتتبلور هذه الحاجة على نحوين: حاجات معرفية وتربوية وأخلاقية، لأن مصادر المعرفة البشرية المتمثلة بالعقل والشهود والإحساس محدودة ولا تلبّي كافة الطموحات المعرفية للإنسان في سيره نحو الهداية والفلاح، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن وجود غرائز وميول إنسانية كثيراً ما يحول دون تقنين قانون عادل وشامل، فالانكباب على الدنيا ـ مثلاً ـ يجعل الإنسان في غفلة عن الهدف النهائي للخلق وعن القيم الإنسانية السامية.

هذه الأُمور تكشف عن مغزىً حاجة البشر إلى هداية وصيانة وقيادة سماوية.

ومن جهة أُخرى، فإن من مقتضيات الحكمة الإلهية هو تلبية الحاجات الرئيسية للبشر، ولولا ذلك لفتح باب الحجة عليه تعالى، كما ورد ذلك في القرآن الكريم:

١. نهج البلاغة، خ ١٤٤ ٢. أصول الكافي، ج ١، كتاب الحجة، الباب ١، ح ١

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.[١]

وقد ذكر القرآن الكريم بشأن فلسفة النبوة ـ إلى جانب إتمام الحجة على البشر ـ الأهداف التالية:

١. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّـٰغُوتَ﴾.[٢]

٢. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.[٣]

٣. ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.[٤]

٤. ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.[٥]

ويتضح من كل هذا أن ثمّة ارتباطاً بين النبوة والحياة العقلانية للانسان في جوانب حياته الفردية والاجتماعية والمادية والروحية، والهداية النبوية تشمل كافة أبعاد حياة البشر دون أن تُلغي دور الحسّ والعقل في الهداية الإنسانية. وفي الحقيقة أن البشر كما هم بحاجة إلى هداية علمية وعقلية، فهم بحاجة أيضاً إلى هداية وحيانية. وهاتان الهدايتان كلتاهما حجة لله تعالى، ولذا أطلق الإمام الكاظمعليه السلام عنوان الحجج الظاهرة على الأنبياء والأئمة، وعنوان الحجة الباطنة على العقل.[٦]

قال الخواجه نصير الدين الطوسي بشأن فلسفة بعثة الأنبياء:

> ضرورة وجود الأنبياء لتكميل الأشخاص بالعقائد الحقّة والأخلاق الفاضلةوالأفعال المحمودة النافعة لهم في عاجلهم وآجلهم وتكميل النوعباجتماعهم على الخير والفضيلة، وتساعدهم في الأُمور الدينية وسياسةالخارجين عن جادة الخير والصلاح.[٧]

المعجزة والنبوة

النبوة من أرفع المناصب البشرية، وادعاء هذا المنصب الخطير، لا يمكن القبول به دون دليل معتبر. والمعجزة هي أعم وأرسخ دليل لمعرفة الأنبياء والرسل.

---

١. النساء، ١٦٥ ٢. النحل، ٣٦ ٣. الحديد، ٢٥
٤. الجمعة، ٢ ٥. البقرة، ٢١٣
٦. أصول الكافي، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ١٢ ٧. تلخيص المحصّل، ص ٣٦٧

وبالتأكيد ان من ثبتت نبوته، ويبشّر بنبود شخص يأتي من بعده، فإن هذا الشخص ستثبت نبوته قطعاً، وهكذا تثبت النبوة بدراسة سيرة وعقائد وسلوك من يدّعيها، والتي تكشف إلى حدّ كبير عن صدقه، إلّا أن السبيل الأول ليس عاماً، والسبيل التالي لا يولد جزماً ويقيناً منطقياً للجميع، ولهذا تبقى المعجزة أظهر دلالة على صدق مدّعي النبوة، وقد أطلق عليها القرآن الكريم اسم البيّنة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ﴾.[1]

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَٰتِ﴾.[2]

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ﴾.[3]

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.[4]

المعجزة أمر خارق للعادة لا يصدر عن أسباب طبيعية، يستعين بها الأنبياء لإثبات نبوّتهم، وحيث أنها لا تصدر عن سبب طبيعي، تحتّم القول بصدورها عن سبب يتعلّق بما وراء الطبيعة.

وتنكشف حقيقة المعجزة وأنها إلهية المنشأ من خلال الوقوف على أحقية دعوة الأنبياء، وعدم صدور المعجزة عن القوى الشيطانية التي تمتلك القدرة على تنفيذ أمور خارقة للعادة، وقد اقتضت حكمة الله وعدله الحيلولة دون تزويد الكاذب بها. وبهذا الطريق تثبت نبوة من جاء بالمعجزة.

وفي هذا الصدد يقول الخواجه نصير الدين الطوسي:

ويعرف صدق مدّعي النبوة بثلاثة أشياء:

أولها: أن لا يقرّر ما يخالف ظاهر العقل كالقول بأن الباري تعالى أكثر من واحد.

والثاني: أن تكون دعوته للخلق إلى طاعة الله والاحتراز عن معاصيه.

والثالث: أن يظهر منه عقيب دعوة النبوة معجزة مقرونة بالتحدّي[5] مطابقة لدعواه، والمعجز هو فعل خارق للعادة يعجز عن أمثاله البشر.[6]

١. الحديد، ٢٥ ٢. المائدة، ٣٢ ٣. البقرة، ٩٢

٤. البقرة، ٨٧

٥. التحدي هو أن يقول لأمته إنْ لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل هذا الفعل.

٦. قواعد العقائد، ص ٨٧، ٨٨

ويُعبّر عن الأعمال الخارقة للعادة التي تظهر على يد أولياء الله ولم تقترن بالتحدّي وكذلك دعوى النبوة إذا لم تقترن بها، تعبّر عنها بالكرامات. وفي هذا الصدد يقول القرآن الكريم بشأن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[1]

ويمكن أن نوجز الفروق بين المعجزة والأعمال الخارقة للعادة التي تصدر عن السحرة والمرتاضين بما يلي:

١. معجزات الأنبياء والرسل تصدر عن أسباب غير طبيعية اقتضاءً لمشيئة الله سبحانه، بينما يصدر السحر وأمثاله عن إرادة وقدرة شيطانية.

٢. ليست الغاية المتوخاة من المعجزات سوى رضا الله سبحانه وخير وسعادة البشر، بينما الغاية المتوخاة من السحر والارتياض هي إشباع رغبات النفس ونيل مصالح فردية ومادية.

٣. إن تربية الروح وتقويتها تنحصر عند الأنبياء والمرسلين في الإتيان بالعبادات والأعمال الصالحة، وأما عند السحرة والمرتاضين فتعمّ القيام بكافة الأعمال المؤثرة على هذا الصعيد.

٤. معجزات الأنبياء لا تُهزم أبداً، لأنها تستند إلى إرادة الله القاهرة. أما الأعمال الخارقة للعادة التي يأتي بها السحرة والمرتاضون، فإنها تُهزم على أيدي أمثالهم أو من قبل أصحاب المعاجز والكرامات.

٥. ما يأتي به السحرة والمرتاضون من أعمال خارقة للعادة محدد بما تعلّموه من سحر وارتياض، بينما هو غير محدود بل متنوع عند الأنبياء، ويتحقق بإرادة الله ومشيئته دون أي تعليم مسبق، وقد أشار القرآن الكريم إلى معاجز متنوعة ظهرت على يد موسى وعيسى [2] وعلى يد نبي الإسلام والتي من أهمّها معجزة القرآن الكريم الخالدة.

١. آل عمران، ٣٧ ٢. الإسراء، ١٠١؛ آل عمران، ٤٩

النبوة والعصمة

تعتبر العصمة من الخطأ والذنب من شروط النبوة، إذ بدونها لا يتحقق الهدف المنشود من النبوة وهو هداية البشر وإرشادهم، ولا خلاف بين المسلمين بل بين أتباع كافة الديانات السماوية في أصل لزوم العصمة، وإنما اختلف متكلّمو الإسلام في حدودها ودرجاتها، ويعدّ تعريف الشيعة للعصمة من أكمل وأعمّ التعاريف، حيث ذهبت إلى الاعتقاد بأن عصمة الأنبياء تتبلور في محورين:

المحور الأوّل: عصمتهم في مجال التلقي عن الوحي وحفظ الشريعة وتبليغها وتبيينها من كل خطأ عمدي وسهوي.

المحور الثاني: عصمتهم من المعاصي والذنوب كبيرها وصغيرها عمدها وسهوها قبل النبوة وبعدها، وإلى هذا أشار السيد المرتضى، فقال:

> قالت الشيعة الإمامية لا يجوز عليهم شيء من المعاصي والذنوب كبيراً كان أو صغيراً، لا قبل النبوة ولا بعدها.[١]

وقال العلامة الحلّي:

> ذهبت الإمامية إلى أن الأنبياء معصومون من قبل البعثة وبعدها، من الصغائر عمداً وسهواً، ومن الكبائر كذلك.[٢]

يُذكر أن بعض المحققين من أهل السنة وافق الشيعة في ذلك، فقد كتب الملا علي القاري يقول:

> هذه العصمة ثابتة للأنبياء قبل النبوة وبعدها على الأصحّ.[٣]

وقال مؤلف كتاب النبراس:

> ذهب جمع من العلماء إلى عصمة الأنبياء عن الصغائر والكبائر قبل الوحي وبعده.[٤]

وقال الشيخ أحمد الخليلي ـ أحد كبار علماء الإباضية المعاصرين ـ:

١. تنزيه الأنبياء، ص ٢ ٢. أنوار الملكوت في شرح الياقوت، ص ١٩٦

٣. شرح الفقه الأكبر، ص ٦٨، ٦٩، قال تلك الكلمة عقب شرح قول أبي حنيفة، «الأنبياء كلّهم منزهون عن الصغائر والكبائر».

٤. محمد عبد العزيز الفرهاري، النبراس، ص ٤٥٤

ذهب أصحابنا إلى أنهم معصومون عن الكبائر والصغائر في حال النبوة وقبلها. ثم أشار إلى مختار الإمامية من أن العصمة ثابتة للأنبياء منذ ولادتهم، وقال: هذا النظر يليق بمقام من اختاره الله تبارك وتعالى واصطفاه. لأن كل عاقل يُدرك هذه الحقيقة، وهي أن الله لا يختار لهذه المهمة الخطيرة إلّا من هو أطهر منبتاً وأكمل عقلاً وأحسن سيرة.[١]

أما الدليل العقلي الذي أُقيم على عصمة الأنبياء، فهو أنّ الهدف من نبّوتهم لا يتحقق بكامل أبعاده من دون العصمة، لأن احتمال وقوع الخطأ والذنب منهم يسلب الاعتماد عليهم. وهذا يعني أن الوثوق الكامل بهم رهن ثبوت العصمة في مجال التلقّي عن الوحي، وحفظ الشريعة وتبليغها وتبيينها وتجسيدها، وقد أوضح نصير الدين الطوسي هذا الدليل على النحو التالي:

يجب في النبي العصمة، ليحصل الوثوق، فيحصل الغرض.[٢]

كما يمكن إثبات عصمة الأنبياء عن طريق الأدلة النقلية، ذلك أنّه بعد إثبات عصمة الأنبياء في مجال التلقّي عن الوحي وحفظه وتبليغه، والتي هي محلّ اتفاق المسلمين قاطبة بلا أدنى شك، فإنه يمكن الاستناد إلى القرآن الحكيم لإثبات عصمة الأنبياء، حيث ذكر أن الأنبياء يحظون بهداية ربّانية خاصة، قال تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.[٣]

تُفيد هاتان الآيتان إلى أن الله تعالى اصطفى لمقام النبوة والرسالة، من اختصّه بعناية إلهيّة وحباه بهداية ربّانية، يقول عزّ من قائل:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.[٤]

وانطلاقاً من ذلك، فإن الأنبياء لم يحظوْا بعناية إلهية خاصة، وهداية ربّانية بعد اختيارهم لمقام النبوة، وإنما شملتهم هذه العناية والهداية أولاً ومنذ البداية لكي تبرز مؤهلاتهم ويظهر استحقاقهم لمقام النبوة والرسالة ويتمّ انتظامهم في زمرة عباد الله المخلصين والمصطفَين، ومن جهة أُخرى بيّنت آيات كريمة وبوضوح أنّ مَن حظي

١. انظر: جواهر التفسير، ج ٣، ص ١١٧ ـ ١٢٩.
٢. تجريد الاعتقاد، مبحث النبوة
٣. الأنعام، ٨٧، ٨٨
٤. الأنعام، ١٢٤

بهذه الهداية لا يستزلّه الشيطان بإضلاله وإغوائه، قال تعالى ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾،[١] وقال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.[٢]

سهو النبيّ

يتضح مما تقدّم أن الرأي القائل بتجويز السهو والنسيان على الأنبياء لا يستند إلى أصل صحيح، سواء أكانا في القول أم في الفعل وسواء أكانا في الأُمور الشرعية أم في الأُمور العادية، لأن السهو والنسيان في بعض الأُمور المذكورة يوجب خدشاً في مهمة إبلاغ الوحي الإلهي، وينافي أحياناً أصل الوثوق بالنبوة والاطمئنان إليها، وفي هذا الصدد يقول الفاضل المقداد:

> ولا يجوز على النبي السهو مطلقاً، أي في الشرع وغيره، أما في الشرع فلجواز أن لا يؤدي جميع ما أمر به فلا يحصل المقصود من البعثة، وأما في غيره فإنه ينفّر عنه.[٣]

وهذا هو مختار جمهور علماء الإمامية، بيد أن علماء أهل السنة وبعض علماء الشيعة جوّزوا عليهم السهو والنسيان. هذا الاختلاف في وجهات النظر أدى إلى طرح مسألة سهو النبي في الاعتقادات. ويعتبر الشيخ الصدوق أبرز شخصية شيعية ذهبت إلى جواز سهو النبي، وكان يصرّ على هذا الاعتقاد، وينسب من يُنكر ذلك إلى الغلو، ومستنده في ذلك الروايات التي تحدثت عن سهو النبي في عدد ركعات صلاة الظهر أو قضاء صلاة الصبح.[٤]

وعلى الرغم من أن بعض روايات هذا الباب معتبرة سنداً ودلالة إلّا أن أغلب علماء الشيعة تركوا العمل بها، وهذا يعني:

أولاً: مقتضى حكم العقل هو بطلان سهو الأنبياء كما مرّت الإشارة إليه، وروايات هذا الباب من قبيل خبر الواحد، هي في الواقع أدلة ظنّية لا تقوى على النهوض بوجه الأدلة العقلية، خاصة وأن سهو النبيّ ﷺ مسألة عقائدية ـ باعتباره وصفاً من أوصاف النبي وإن كان مفاد الروايات يتعلّق بفروع الدين ـ لا تقيم للأدلة الظنية أي وزن أو اعتبار، ولذلك قال الشهيد الأول في كتاب الذكرى بعد إشارته إلى حديث ذي اليدين[٥]:

---

١. الزمر، ٣٧   ٢. ص، ٨٢، ٨٣   ٣. إرشاد الطالبين، ص ٣٠٥

٤. من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٦٠؛ الكافي، ج ٣، ص ٣٥٥، باب من تكلّم في صلاته، ح ١

٥. أشارت روايات سهو النبي إلى شخص كانت يداه أطول من المتعارف، فاشتهر بهذا الوصف.

وهو متروك بين الإمامية لقيام الدليل العقلي على عصمة النبي عن السهو.[1]

وثانياً: إن الروايات الدالة على سهو النبيﷺ تـنافي الروايـات ا لدالة عـلى تـنزيهه عنهﷺ، والتي جمعها المحدّث الشيعي الشيخ الحرّ العاملي (المتوفي ١١٠٤ هـ) فـي مؤلّف أسماه التنبيه بالمعلوم من البرهان على تنزيه المعصوم عن السهو والنسيان.

إن كثرة هذه الروايات من جانب، وموافقة روايات السهو مع أحاديث أهل السنّة في هذا الشأن من جانب آخر، يؤديان إلى نتيجة مفادها أن روايات سهو النبيﷺ مضطربة، وأن روايات تنزيهه عنه ثابتة.

ولذا فإن الاعتقاد بجواز سهو النبي في قول أو فعل، اعتقاد غـير صـحيح وفـاقد للدليل المعتبر.

يُشار إلى أن الشيخ الصدوق لم يفوته التأكيد على اختلاف سهو النبي ﷺ عن سهو الآخرين، معتبراً سهو النبيﷺ سهواً رحمانياً لئلا يغلو فيه الناس ويعبدوه، ولئلا يُذم ويُلام من سها في صلاته وعباداته الأُخرى، وفي الحقيقة أراد الشيخ الصدوق بـذلك الكلام تنزيه مقام النبوة الشامخ عن شبهة الخطأ والسهو الشيطاني.

ومهما يكن، فإن شبهة سهو النبيﷺ ـ وكما قلنا ـ لا يمكن قبولها بوجه من الوجوه.

وفي الختام يجدر بنا أن نشير إلى أن هناك نوع من التناقض وعدم الانسجام يمكن ملاحظته في أحاديث سهو النبي الواردة في المجاميع الحديثية لأهل السنّة، الأمر الذي يجعل حجّيتها واعتبارها في مهبّ الريح؛ هذه التناقضات عبارة عن:

١. دلت بعض الروايات على أن الصلاة التي سها فيها النبيﷺ كانت صلاة الظهر، في حين ذكرت أُخرى أنها صلاة العصر، بينما ذهبت ثالثة إلى أنها صلاة الظهر مـع صلاة العصر.

٢. ذكرت بعض الروايات وقوع السهو بزيادة ركعة، وبعض آخر وقوعه بـنقصان ركعة، وبعض آخر وقوعه بنقصان ركعتين.

٣. ورد في الروايات أن النبيﷺ لما ذكّره ذو اليدين بسهوه لم يُعر له اهتماماً، بل

١. الذكرى، ١٣٤

راح يستفسر عنه الآخرين، ولما أجمعوا على تصديق ذي اليدين عندئذ أيقن النبي بسهوه، ويلزم من ذلك عدم سهو النبي ﷺ في صلاته فحسب، بل إنه كان أيضاً متردداً فيه، الأمر الذي لا ينسجم ومقام النبوة والرسالة بتاتاً.

٤. اختلفت هذه الروايات في زمان سهو النبي ﷺ حيث أشار بعضها إلى وقوعه بعد الصلاة مباشرة، وبعض آخر إلى وقوعه بعد أن قام من مكانه واتكأ على أُسطوانة في المسجد، وبعض آخر بعد دخول حجرته، ومن المعلوم أن هذه الحادثة لم تقع أكثر من مرة واحدة، ولذا فإن هذا النوع من التعارض لا يمكن تأويله أبداً.

جاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ غضب حينما أطلعه ذو اليدين على سهوه، ومن الواضح أن الغضب لا يتماشىٰ مع مقام النبي ﷺ ذي الخلق العظيم.[١]

الإجابة عن إشكال

قد يُثار إشكال في باب عصمة الأنبياء، وهو وجود آيات قرآنية نسبت إلى بعض الأنبياء الذنب والمعصية، كما أن بعض الأنبياء كانوا ينعتون أنفسهم بالمذنبين ويستغفرون الله عما فعلوه. وهذا الإشكال لا يختص بباب النبوة، بل يشمل باب العصمة أيضاً، خصوصاً عصمة أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وللإجابة عن هذا الإشكال، نقول:

أولاً: إن مصطلحات العصيان، والذنب، ونظائرها لها استعمالات مختلفة ولا تنحصر بارتكاب الحرام وترك الواجب، فقد تشمل أحياناً ـ بلحاظ مقام ومنزلة وطبيعة الإنسان ـ الإقدام على فعل هو خلاف الأوْلى، مع ان هذا الفعل ليس بحرام وتركه ليس بواجب، فهذا النوع من الفعل لا يعتبر مصداقاً للمعصية بالمعنى الأخص، بل مصداقاً لترك الأوْلى.

ثانياً: مهما بذل الإنسان من جهد في سبيل عبادة الله، واحترز عن الوقوع في الخطأ والمعصية، وتوجّه بكلّ وجوده إلى هذه الحقيقة وهي أن كل ما يملكه نعمة وموهبة أسبغها الله تعالى عليه، فإنه لا يلبث أن يُدرك عجزه عن عبادته حقّ عبادته وكما يليق

١. للتوسّع في ذلك، راجع: الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة والعقل، ج ٢، ص ١٩٤ـ١٩٦.

به تعالى. يقول النبي ﷺ: «لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وبما أن الأنبياء والأولياء أكثر من غيرهم إدراكاً لهذه الحقيقة، فإنهم كانوا يقومون بين يديه سبحانه بالدعاء والتضرّع والخشوع، وينعتون أنفسهم بالمذنبين في جنب الله تعالى ويلتمسون لطفه ورحمته ومغفرته، فصدور كلمات نظير (ظلمت نفسي) و(تجرّأت بجهلي) وطلب الاستغفار من شخص مثل علي ؑ كلها من هذا القبيل، ولا صلة لها بمعنى الظلم والجهل لدى الأفراد العاديين.

وصفوة الكلام أن الذنب بمعنىٰ ترك الواجب وفعل الحرام لا يُتصوّر في حقّ الأنبياء وسائر أئمة أهل البيت ؑ بل المتصوّر في حقهم أمران: الأوّل: ترك الأوْلىٰ، والثاني: الاعتراف بالعجز والتقصير عن أداء شكر النعم الإلهية وحق العبودية كما يليق بساحته.

يُذكر أن الأنبياء والرّسل متفاوتون في هذين الأمرين، نظراً لتفاوت درجاتهم المعنوية، يقول تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾،[1] وعلى هذا الأساس، قيل: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين.

وجاء في دعاء عرفة لسيد الشهداء الحسين ؑ: «يا مَن ألْبَس أولياءه هيبته، فقاموا بين يديه مستغفرين».[2]

والنكتة الأُخرىٰ التي ينبغي الإشارة إليها هي أن ثمّة تعابير أُخرىٰ لها دلالة على الذنب والمعصية وردت في شأن الأنبياء، ولكنها في الواقع من قبيل (إياك أعني واسمعي يا جارة)، فالمقصود بهذه التعابير بعض الأشخاص من أمة النبي كان قد صدر منهم ذنب ومعصية، ولكن الله تعالى وجّه خطابه إلى النبي وهو يريد به الآخرين، وهذا الأسلوب متداول ومعروف بين العقلاء، فقد يلجأ الأب مثلاً إلى معاتبة ابنه وتوبيخه بهدف تنبيه خادمه على خطئه.

إن كل ما قيل في هذا الصدد كان بمثابة تأويلات عامة، وتفصيل هذا البحث خارج عن عهدة هذا الكتاب.[3]

١. البقرة، ٣٥٣ ٢. اقبال الأعمال، ص ٣٥٠
٣. للتوسّع في هذا الموضوع، راجع كتب التفسير والعقائد. نظير: مجمع البيان، الميزان، الكشاف،

ختم النبوة

لا شك أن النبوة بدأت بآدم﷣ وانتهت بمحمدﷺ، وتعدّ نبوة محمدﷺ وخاتميتها من ضرورات الإسلام، وقد أجمعت عليها الأمة الإسلامية، وإذا ما برز ثمّة خلاف فإنما هو في المسائل الفرعية. أما البرهان العقلي الذي أُقيم على نبوة محمدﷺ، فيتلخص في أن الوثائق التاريخية القطعية أثبتت أن محمداًﷺ قد ادعى النبوة، وجاء بمعجزة لإثبات مدّعاه وتحدىٰ بها البشر، فتقارن معجزته بالتحدّي برهان ساطع على نبوّته، ويعدّ القرآن الكريم المعجزة الخالدة لرسول اللهﷺ، وبه تمّ التحدّي وبصور مختلفة، فتارة يتحدّاهم بالإتيان بمثله، وأخرى بالإتيان بعشر سور مثله، وأُخرى بالإتيان بسورة واحد فقط، ولم يعجز فصحاء العرب وبلغاؤهم عن الإتيان بمثل القرآن فحسب، بل أن بعضهم أذعن بأن القرآن الكريم فوق كلام البشر. ولكنهم وتحت وطأة التعصب الجاهلي أنكروا نبوتهﷺ وقالوا إنه ساحر بغية صرف الناس عن الإيمان به.

وإذا غضضنا الطرف عن القرآن الكريم، فإن لرسول اللهﷺ معاجز أخرى كثيرة، تبلغ بمجموعها حدّ التواتر على الرغم من أن نقل كلّ واحدة منها لا يبلغ ذلك، ويطلق على هذا النوع من التواتر اسم التواتر المعنوي، أي أن نبوة محمدﷺ وتحدّيه بمعجزاته، يُعدّان من المسلّمات التاريخية القطعية.

وقد أعلن القرآن الكريم صراحة وكذا الأحاديث الإسلامية عن ختم النبوة بمحمد ﷺ، وفي هذا الإطار وُصفﷺ في القرآن الكريم بـ(خاتم النبيين)، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.[1]

كما ورد في حديث المنزلة وهو من الأحاديث الإسلامية المتواترة قول النبي لعلي ﷺ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبيّ بعدي.

وثمة اتجاهان في بيان النسبة بين النبوة والرسالة، الأول أن النبوة أعمّ من الرسالة،

← مفاتيح الغيب، شرح المواقف، شرح المقاصد، وغيرها. ومن أوسع الكتب الكلامية في هذا المجال كتاب تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى، كما تطرّق إلى ذلك بعض عرفاء الإسلام كمحيي الدين ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية، ج ٣، ص ٤٤٠، والشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر، ج ٢، ص ٣٠٥ـ٣٣٢.

١. الأحزاب، ٤٠

والثاني أنهما متلازمان، وأيّاً كان، فختم النبوة يستلزم ختم الرسالة لا محالة، فكما أن نفي أحد المتلازمين يستلزم نفي الآخر، فكذلك نفي العام يستلزم نفي الخاص أيضاً، وعلى ضوء ذلك يصبح الادّعاء بأن أدلة الخاتمية تتعلق بختم النبوة لا بختم الرسالة، وأن ذلك لا ينفي مجيء رسول آخر، يصبح مجرّد ادعاء فارغ لا يعضده أي دليل.

شبهة امتناع النسخ

بعد أن ادعى النبيﷺ النبوة، ودعمها بالمعجزة، آمنت به طائفة من اليهود، وآثرت أُخرى سبيل العناد واللجاج، وأثارت حول نبوته شبهة امتناع النسخ.

إن النسخ في الشريعة ـ على حدّ زعمهم ـ يستلزم البداء أي التغيير في العلم الإلٰهي، أو الفعل على خلاف الحكمة، ذلك لأن الحكم إما أن يكون فاقداً لملاك الحكمة في بداية التشريع، وعندئذ سيكون التشريع سفاهة، وإما أن يكون حائزاً للملاك، وملاكه باق على حاله، فسوف لا يُنسخ.

وإذا كان الملاك مؤقتاً، والله سبحانه لم يكن يعلم بذلك، فشرّع الحكم بصورة غير محدودة وغير مؤقتة، وبعد أن اطّلع على ما خفي عنه نَسخَه، فهذا الأمر يستلزم التغيير في العلم الإلٰهي ونسبة الجهل إليه سبحانه، وهو ممتنع عليه دونما شك.

وللإجابة عن هذه الشبهة نقول: إن الأحكام التي تنسخ لها ملاك ومصلحة مؤقتة ومحدودة، والله سبحانه خبير بذلك منذ البداية، وفي الواقع ونفس الأمر شرّع الحكم بصورة مؤقتة، ولكن في مقام الإبلاغ لم يبيّن ذلك، كما لم يصّرح بأبديته أيضاً، بل لم يقيّده بزمان، وببيان حكم الناسخ أظهر محدودية أمد الناسخ وتوقيته.

هذا النوع من التعبير في مجال الأحكام الشرعية يعني الناسخ والمنسوخ نظير العام والخاص، والمطلق والمقيّد، والمحكم والمتشابهة، حكمة خاصة أهمها اختبار وامتحان المكلّفين.

يُذكر أن عبارة (النسخ تابع للمصالح) في كتاب تجريد الاعتقاد للمحقق الطوسي ناظرة إلى تلك الشبهة والجواب عنها.

٢
حقيقة الإمامة وأحكامها

الشيعة والإمامة

لا خلاف بين الفريقين في ضرورة ووجوب الإمامة، ولكن مع هذا الفارق، وهو أن الشيعة تعتقد بوجوبها العقلي، بينما يعتقد أهل السنة بوجوبها النقلي، كما لا خلاف بينهما في أن الإمامة هي خلافة رسول الله ﷺ، إذن ماهي حقيقة الإمامة؟ وما هي الصفات اللازم توفرها في الإمام؟ وكيف يتمّ تعيينه ؟

ثمة نظرتان مختلفتان للفريقين تجاه هذه المواضيع، وسنتناول في هذا الفصل عقيدة الشيعة حول حقيقة الإمامة وصفات الإمام، وستتجلىٰ تبعاً لذلك رؤيتهم حول كيفية تعيين الإمام.

أ) حقيقة الإمامة وأبعادها

على الرغم من أن أهل السنة ينظرون إلى الإمامة من زاوية أنها خلافة رسول الله ﷺ بيْد أنهم يعتبرونها أمراً بشرياً، يتشاور بشأنه المسلمون ويتبادلون الآراء لانتخاب شخص للإمامة، قادرٍ علىٰ تأمين مصالح المجتمع الإسلامي، وتنفيذ الأحكام الإسلامية، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: وقصارىٰ أمر الإمامة أنها قضية مصلحية

اجتماعية ولا تلحق بالعقائد.[١]

أما الشيعة فتعتقد أن الإمامة هي استمرار لخطّ النبوة والرسالة، وهي مسألة إلٰهية، فالإمام كالنبي يتمّ تعيينه من قِبَل الله سبحانه، ولا تختلف الإمامة عن النبوة سوىٰ في تلقّي الوحي وإبلاغه، فهذه المهمة من مختصات النبيﷺ وقد انتهىٰ أمدها بالنبوة الخاتمة. وسنبيّن أبعاد الإمامة انطلاقاً من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأدلة العقلية.

١. الإمامة والنموذج الأخلاقي والسلوكي

يتمتع الإمام بأعلىٰ درجات الكمال النفسي والفضائل الأخلاقية، وهو كالمشعل الوضاء على قمّة شمّاء، يتطلّع إليه الجميع، ليستهدوا به في معرفة مسير الإنسانية، فهو الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة لها في تربية النفس وتزكيتها، وكسب الفضائل وتجنّب الرذائل، وقد بيّن الإمام الرضاؑ أوصاف الإمام بقوله:

الإمام النار على اليفاع، الحار لمن اصطلىٰ به، والدليل في المهالك، مَن فارقه فهالك.[٢]

وكتب الإمام عليؑ كتاباً إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة، يقول فيه:

ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً يهتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفىٰ من دنياه بطمْريْه، ومن طُعْمه بقُرصيْه، ألا وإنّكم لا تقدرون علىٰ ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسَداد.[٣]

في كلام الإمامؑ هذا ـ وقبل كل شيء ـ تأكيد على البعد الأخلاقي والتربوي للإمامة، وفيه تأكيد على الصفات الأخلاقية (الاجتهاد والعفّة)، وعلى السلوك الأخلاقي (الورع والسداد)، ومن بين الصفات الأخلاقية التي ورد الحثّ عليها، هي القناعة والبساطة، فقد دُعي إلىٰ مأدُبة، شهدها الأغنياء، وغاب عنها الفقراء.

وثمرة الكلام أن الأسوة الحسنة، كما هي بُعد من أبعاد النبوة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾،[٤] فكذلك هي أيضاً بُعد من أبعاد الإمامة، ذلك أن حاجة البشر إلىٰ قائد جدير، يكون أسوة لهم في تربية النفس والأخلاق حاجة دائمة لا تختص بعصر الرسالة والنبوة.

١. مقدمة ابن خلدون، ٤٦٥

٢. أصول الكافي، ج ١، ص ١٥٥، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته

٣. نهج البلاغة، الكتاب رقم ٤٥

٤. الاحزاب، ٢١

٢. الإمامة وتعليم الأحكام والمعارف الدينية

يعدّ تعليم الكتاب والحكمة أحد الأهداف الكبيرة للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وهو يلي قراءة آيات الذكر الحكيم وتلاوتها، وإبلاغ الوحي للناس ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾. وعلى الرغم من أن إبلاغ الوحي والشريعة من مختصات النبوة، وبختمها سوف لا ينزل وحي ولا شريعة جديدة كي يكون إبلاغها من مهام الإمام وخليفة النبيﷺ، بيد ان مسؤولية تعليم وتبيين معارف ومقاصد الوحي والشريعة سوف لا تتعطّل بختم النبوة، خاصة وأن قصر مدّة النبوة وما حفلت به من أحداث ومستجدات سياسية واجتماعية، حال دون توفّر الفرص والظروف المناسبة لتعليم وتبيين معارف ومقاصد الوحي للمسلمين، هذا من جانب ومن جانب آخر، إذا لم يتمّ تبيين هذه المعارف والحقائق الوحيانية، فإن غرض النبوة سوف لا يتحقق، من هنا اقتضى العقل والحكمة ايداع هذه المعارف من قبل النبي ﷺ لدىٰ شخص جدير بتبيانها بعده كلّما سنحت الفرص وتهيّأت الظروف، ولذا جاء التأكيد في أحاديث أئمّة أهل البيتعليهم السلام على هذا الموضوع وأنهم هم الراسخون في العلم، المحيطون بكل حقائق القرآن ومعارفه،[1] وقد ورد في الحديث النبوي بشأن عليعليه السلام: أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب.[2]

وبعبارة أُخرىٰ إنّ الله تعالىٰ عرّف القرآن بأنه كتاب يحمل بين دفتيه كافّة الأحكام والمعارف الإلهية ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾،[3] ومع هذا ـ وبحسب الظاهر ـ لا يكاد يُعثر علىٰ كافّة الأحكام والمعارف الدينية في القرآن الكريم. من هنا يتضح أن للقرآن ظاهراً وباطناً، والعلم بباطنه ليس في متناول أيدي الجميع، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾،[4] وبنصّ القرآن الكريم.

١. قد تقدّم في بحث مصادر الشيعة بعض الروايات التي تتعلّق بهذا الموضوع.
٢. المستدرك، ج ٣، ص ١٢٦، ١٢٧، وللتوسع في معرفة مصادر هذا الحديث وأحاديث أُخرىٰ حول علم عليعليه السلام، راجع: قادتنا كيف نعرفهم، ج ٢، الباب ٢٣.
٣. النحل، ٨٩
٤. الواقعة، ٧٧ ـ ٧٩

فالمطّهرون هم أهل بيت النبيﷺ [الأحزاب: ٢٣] الذين قرن إكمال الدين بإمامتهم، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.[١]

وصفوة ذلك:

أ) أن القرآن الكريم يحتوي علىٰ كافة المعارف والأحكام الإلٰهية، وإن كان هذا لا يُستفاد من ظاهر القرآن، فعلم ذلك ليس في متناول الجميع.

ب) أن الرسول الأكرمﷺ مُكلَّف ببيان حقائق القرآن المجيد ومعارفه للمسلمين ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. ولكن لا يكاد يعثر علىٰ أكثر المعارف والأحكام الدينية في الأحاديث النبوية. هذا من طرف، ومن طرف آخر لا يمكن القول بعدم بيانها من قبل النبيﷺ، فلا بد إذن من حيازة خليفة النبي على تلك العلوم والمعارف ليبيّنها في الظروف المناسبة.

ج ـ أنّ آية إكمال الدين، وحديث (أنا مدينة العلم)، وأحاديث أُخرى تتعلّق بسعة علم عليؑ، تكشف النقاب عن هذه الحقيقة، وهي أن تعليم الأحكام والمعارف الدينية للمسلمين، هو أحد أبعاد وشؤون الإمامة، وقد تصدّىٰ أمير المؤمنين عليؑ بصفته وارث علوم النبيﷺ لبيان قسم منها، وترك القسم الآخر لسائر الأئمةؑ.

٣. الإمامة والقيادة السياسية للمجتمع الإسلامي

إنّ ضرورة وجود نظام سياسي في المجتمع البشري يعتبر من الأُمور البديهية، ولهذا لا نكاد نجد عبر التاريخ مجتمعاً لا يحكمه نظام سياسي، على الرغم من اختلاف الأنظمة التي جرّبتها البشرية طول تاريخها غاية الاختلاف. نعم، بما أن أغلب الحكومات التي أخذت على عاتقها إقامة النظم السياسية قد تبنّت منهج الاستبداد والطغيان في حكمها، لذا ذهب بعضهم ـ كردّ فعل لذلك ـ إلى إنكار أصل ضرورة الحكومة، وقد أُطلق على هؤلاء في الفلسفة السياسية اسم (الفوضويين)[٢] وعلىٰ مذهبهم اسم (الفوضوية)[٣].[٤]

١. المائدة، ٣

2. Anarchist

3. Anarchism

٤. راجع: المذاهب السياسية، ص ٣٣

وفي تاريخ الإسلام وعلىٰ وجه التحديد في مسألة التحكيم، وقع جماعة في شراك خطأ فكري، كان مبعثه عدم الفصل بين حدود الحكم بمعنى القانون كأساس للنظام السياسي وبين الحكم بمعنىٰ تطبيق القانون في المجتمع، ولذلك ذهبوا إلى تخطئة علي‌عليه‌السلام بل تكفيره هو ومَن وافقه في مسألة التحكيم، رافعين شعار «لا حُكْمَ إلّا للهِ» كذريعة للطعن في شرعية التحكيم.

وقد بيّن الإمام‌عليه‌السلام من خلال محاججاته الكثيرة والواضحة معهم في هذا المجال ـ بيّن خطأهم وأكدّ أن التحكيم في ظل تلك الظروف ليس عقلانياً ولا يلبّي أية مصلحة، إلا أنّه‌عليه‌السلام وتحت ضغوط وإصرار بعض فصائل جيشه (الذين أصبحوا خوارج فيما بعد) قبل بالتحكيم خلافاً لرغبته، ولكن أصل التحكيم لم يكن علىٰ خلاف العقل والوحي. من هنا قال‌عليه‌السلام في تجلية الموقف وبيان خطأ الخوارج: (نعم لا حكم إلّا لله لكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلّا لله، ولابدّ للناس من أمير برٍّ أو فاجر)[1] أي أن الناس يصبحون عند فقدان الحاكم الصالح أمام طريقين: إما حاكم طالح أو سيادة الفوضىٰ وانعدام الأمن، ولا ريب في أن الحاكم الطالح مقدم على الفوضىٰ.[2]

يُذكر أن الخوارج الذين كانت لهم اتجاهات غوغائية وفوضوية، لما عسكروا بحروراء، فإن أول خطوة قاموا بها هي تقسيم الأعمال والوظائف، وجعلوا على رأس كل منها مسؤولاً.

هذا الموضوع، وهو اعتبار القيادة السياسية للمجتمع الإسلامي إحد أبعاد أو أهداف الإمامة، قد حظي بقبول كافة المذاهب الإسلامية، فإقامة النظام وسيادة الأمن في المجتمع.. إخماد الفتن واستئصال حركات العصيان والتمرّد.. صدّ هجمات الأعداء.. إجراء الأحكام والحدود الإلهية.. تحقيق العدل والقسط في المجتمع، تعدّ كلها من أهداف الإمامة. والتعريف المشهور لها عند المتكلّمين (الإمامة رئاسة عامة في أُمور الدين والدنيا) ناظر إلى الإمامة السياسية. وفي حديث للإمام الرضا‌عليه‌السلام بشأن الإمامة، جاء في مقطع منه:

---

١. نهج البلاغة، خ ٤٠

٢. شرح المواقف، ج ٨، ص ٣٤٦؛ شرح المقاصد، ج ٥، ص ٢٣٣، كتاب الألفين، ص ٧ـ ٩

إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين. إنالإمامة أسّ الإسلام النامي وفرعه السامي. بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام،ومنع الثغور والأطراف. الإمام يحلّ حلال الله ويحرّم حرام الله ويقيمحدود الله ويذبّ عن دين الله ويدعو إلىٰ سبيل ربّه بالحكمة والموعظةالحسنة والحجّة البالغة.[١]

يتضح مما سبق أن مهامّ الإمامة والقيادة السياسية لا تتلخص في تأمين المصالح الدنيوية للمجتمع الإسلامي فحسب، بل بتحقيق المصالح الدينية والروحية أيضاً، وليس ثمّة اختلاف بين الشيعة وأهل السنّة في هذه المسألة. وبعبارة أُخرىٰ إن نظرية فصل الدين عن السياسة مرفوضة من قِبل كافة المذاهب الكلامية في الإسلام. والاختلاف الواقع بين الشيعة وبين سائر المذاهب في هذا الصدد إنما يتعلق بأبعاد أُخرىٰ للإمامة لاسيما البعد الأول والثاني. ومحصّل عقيدة الشيعة، هو أن النموذج الكامل للقيادة الإسلامية إنما يتحقق إذا اقترن بأبعاد أُخرىٰ للإمامة، وبعبارة أوضح: تعتقد الشيعة أن قيادة المجتمع الإسلامي ينبغي أن يتولّاها أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ في الصفات والكمالات الإنسانية ليكون خليفة له وحجّة لله على العالمين بعد النبي ﷺ وهادياً ومرشداً وحاكماً، وبه يتمّ ملء الفراغ الحاصل برحيل النبي ﷺ، وهذا الهدف السامي لا يتحقق إلّا بوجود شخصية مثل أمير المؤمنين ؑ الذي وصفه الله تعالىٰ بأنه نفس النبي ﷺ.[٢]

إن المجتمع البشري لا يخلو على الدوام من أشخاص لهم استعداد وقابلية علىٰ أن يطووا طريق التكامل، وأن ينالوا الكمالات المطلوبة فيما إذا ساروا علىٰ ضوء الهداية الباطنية للهداة الإلٰهيين. والبُعد العرفاني للإمامة يؤمّن هذه الحاجة البشرية.

كما لا شك في أن الإسلام دين أبدي خالد، يلبي كافة المتطلبات البشرية في إطار الفعل والترك والحلال والحرام. ولمّا كان القرآن الكريم لم ترد فيه إلّا كلّيات الأحكام والشرائع، والسنة النبوية لم تتعرّض لكافة تفاصيل الأحكام، فلا بد إذن من وجود

١. أصول الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب جامع في فضل الإمام
٢. إشارة إلى آية المباهلة. (آل عمران، ٦١).

شخص يتصدّىٰ بعد رحيل النبيﷺ لرفد المجتمع الإسلامي بتفاصيل الأحكام دون أية زيادة أو نقص، والبُعد التعليمي للإمامة كفيل بتلبية هذه الحاجة.

إن توفّر أسوة في الأخلاق والفضيلة وبأرفع درجاتها له دور مهم في تربية النفوس، وتنمية الفضائل الأخلاقية وبسطها في المجتمع. من هنا تتأكد الحاجة الدائمة إلى وجود هكذا أسوة في المجتمع البشري، والبُعد الأخلاقي والتربوي للإمامة هو الذي يُلبّي هذه الحاجة البشرية.

الدين من وجهة نظر الإسلام لا ينفكّ أبداً عن السياسة، يعني أن للسياسة صبغة دينية، والقائد السياسي يترك بصمات واضحة على ثقافة ومعنويات المجتمع، لذلك يتحتّم على القائد أن يتحلّىٰ بأسمى المزايا العلمية والمعنوية والأخلاقية. هذه المسألة تتبلور في الوحدة المصداقية للقيادة السياسية والدينية. ثم إن الإمامة السياسية تعتبر درجة من درجات الإمامة، تتحد مع سائر الدرجات لتتجسّد وتتحقق في خليفة رسول اللهﷺ وإمام المسلمين. هذه الأمنية وهي تبلور وتمركز الأبعاد والشؤون المختلفة في شخص الإمام لا تتحصل إلّا في عقيدة الشيعة.

وإذا تأملنا الحديث النبوي المعروف «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» لاتضح أن الإمامة لا تتلخص في البعد السياسي، ذلك أنه لا توجد أية ملازمة بين الجهل بالقائد السياسي للمجتمع وبين الموت ميتة جاهلية، فلو فُرض أن مسلماً عاش في عزلة عن الناس وجهل بالكامل القائد السياسي للمجتمع الإسلامي، لكنه امتثل الأحكام الإلٰهية على الوجه المطلوب، فهل يُعقل أن ننعت موته بموتة جاهلية.[1]

كما يتضح من هذا الحديث أن للإمام شأناً ومقاماً يصبح علىٰ ضوئه معياراً للهداية والضلالة والإيمان والكفر.

---

١. استدل متكلمو أهل السنة بهذا الحديث علىٰ وجوب الإمامة، ذلك أن وجوب معرفة الإمام دون وجوده أمر متعذّر. طالع في هذا الصدد: شرح المقاصد، ج ٥، ص ٢٣٩؛ شرح العقائد النسفية، ص ١١٠.

٤. الإمامة والهداية الباطنية

إن أحد أبعاد الإمامة هو البُعد العرفاني والمعنوي، وهذا البعد هو أعلىٰ رتبة من النبوة والرسالة، فقد نال إبراهيم الخليل عليه السلام مقام الإمامة بعد ما حاز مقام النبوة والرسالة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.[١]

ويُعلم من طلب إبراهيم هذا المقام لذريته وأبنائه ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾، ومن تبشير الله له بغلام بعد ردح طويل من نبوته، ومن منحه غلاماً آخر في أيام شيخوخته.. يُعلم من ذلك كله أنه كان نبياً قبل تتويجه بالإمامة. وعندما أُمر الملائكة بإهلاك قوم لوط وحلّوا ضيوفاً علىٰ إبراهيم عليه السلام وبشروه بغلام ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾[٢] كان ابراهيم في ذلك الوقت شيخاً طاعناً ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.[٣] وحينما تحقّق الوعد الإلٰهي، ومنّ الله عليه بإسماعيل وإسحاق، أطلق ابراهيم لسانه بالدعاء وقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾،[٤] هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإن إعطاء هذا المقام لإبراهيم عليه السلام كان رهن ابتلاءات إلٰهية صعبة ابتلاه الله بها ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾[٥] كجهاد نمرود وأتباعه، ومواجهة آزر وسائر عبدة الأوثان والشمس والقمر والنجوم، وعزمه علىٰ ذبح ابنه إسماعيل (وهذا من الابتلاءات العظيمة التي أشار إليها القرآن الكريم)، هذه القرائن تكشف بوضوح عن المنزلة الرفيعة لمقام الإمامة.

وبالتأكيد فإن علو مقام الإمامة علىٰ مقام النبوة والرسالة لا يستلزم أبداً علو مقام الإمام علىٰ مقام النبي، ذلك أنه من الممكن أن يحوز النبي ـ كإبراهيم عليه السلام ـ كلا المقامين. هذا الموضوع ـ وهو هل أن مقام الإمامة عام لكل الأنبياء أو أنه خاص ببعضهم؟ وإذا كان عاماً للجميع، فهل هو ذو مراتب تشكيكية ودرجات أو لا؟ ـ بحث آخر. وعلىٰ ضوء ما يستخلص من الآيات القرآنية يمكن القول: أن جميع الأنبياء كان لهم مقام الإمامة، لكن بدرجات متفاوتة، وقد أشارت إلى ذلك الآيات التالية:

---

١. البقرة، ١٢٤ ٢. الحجر، ٥٣ ٣. الحجر، ٥٤

٤. إبراهيم، ٣٩ ٥. البقرة، ١٢٤

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾.[١]

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.[٢]

ومن الطبيعي أنه إذا كان لإسحاق ويعقوب وسائر أنبياء بني إسرائيل مقام الإمامة، فلاشك في أن لسائر الأنبياء هذا المقام أيضاً، ذلك لأن أنبياء بني إسرائيل لا يمتازون عن الأنبياء الآخرين بأية ميزة.

أما الآيات التي تتحدث عن وجود التمايز والاختلاف بين الأنبياء، فإنما تشير إلى اختلاف مقام إمامتهم المعنوية والعرفانية، يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.[٣]

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.[٤]

هذا وقد أشارت أحاديث أئمة أهل البيت‰ بصراحة[٥] إلى أن إبراهيم‰ نال مقام الإمامة بعد مقام النبوة والرسالة، حيث ورد في حديث مطوّل عن الإمام الرضا‰ حول حقيقة الإمامة وأهدافها ومقام الإمام وخصوصياته، ما هذا نصّه:

هل يعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم ؟

إن الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلىٰ مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم. إن الإمامة خصّ الله عزوجل بها إبراهيم الخليل‰ بعد النبوة. والخلّة مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره فقال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٦] فقال الخليل‰ سروراً بها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ قال الله تبارك وتعالىٰ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلىٰ يوم القيامة وصارت في الصفوة، ثم أكرمه الله تعالىٰ بأن جعلها في ذريته أهل الصفوة والطهارة، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ۝ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً

---

١. الأنبياء، ٧٢ ٢. السجدة، ٢٤ ٣. الإسراء، ٥٥
٤. البقرة، ٢٥٣ ٥. أصول الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب طبقات الأنبياء
٦. أصول الكافي، ج ١، ص ١٥٤، كتاب الحجة، باب في فضل الإمام

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[١] فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتىٰ ورّثها الله تعالىٰ النبيَّ ﷺ فقال جلّ وتعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فكانت له خاصة، فقلّدها ﷺ علياً ؑ بأمرالله تعالى علىٰ رسم ما فرض الله فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهمالله العلم والإيمان بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾[٢] فهي في ولد علي ؑ خاصة إلىٰ يوم القيامة إذ لا نبيّ بعد محمد ﷺ.[٣]

إلىٰ هنا اتضح أن البُعد العرفاني يُعدّ من أبرز أبعاد الإمامة، وهو يقترن بنوع من الهداية، يُطلق عليها الهداية الباطنية، والتي تتحقق بأمر إلٰهي، قال تعالىٰ: وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ والمراد من هذا الأمر ما أشار إليه تعالىٰ في آية أُخرىٰ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾،[٤] وقال في آية أخرىٰ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[٥] وبملاحظة آية: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يتضح أن الأمر حقيقة ملكوتية تتعلّق بالبعد الباطني للموجودات وتتنزه عن التغيّر والتدرّج والزمان والمكان السائد في عالم الخلق.

هذا وقد تجلّت هداية الإمام في الهداية الباطنية المتحققة بأمر إلٰهي، فمن تعلّق قلبه بالإمام ينشدّ إلىٰ ولايته انشداداً، ويتفانىٰ في حبّه وطاعته، ولم يعلق قلبه بشيء سوىٰ نيل رضاه لما فيه رضا الله سبحانه، وبالتالي يصل إلىٰ غايته المنشودة. إذن فالهداية والولاية الباطنية للإمام ليست هي إملاء خطّ أو اتجاه، بل هي نوع وصول إلى المطلوب.[٦]

وقد ورد عن الإمام محمد الباقر ؑ أنّه قال: لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار.[٧]

---

١. الأنبياء، ٧٣ ٢. الروم، ٥٦

٣. أصول الكافي، ج ١، ص ١٥٤، كتاب الحجة، باب في فضل الإمام

٤. يس، ٨٢، ٨٣ ٥. القمر، ٥٠

٦. راجع: الميزان، ج ١، ص ٢٧١ ـ ٢٧٣

٧. أصول الكافي، ج ١، ص ١٥٠، كتاب الحجة، باب إن الأئمة نور الله عزّوجلّ

ب) صفات الإمام

يتضح من خلال بيان عقيدة الشيعة حول ماهية الإمامة وأبعادها وأهدافها، عقيدتها في مجال صفات الإمام، ذلك أن الإمامة تستلزم صفات ومؤهلات عديدة نظراً لمنزلتها الرفيعة وأهدافها السامية وأبعادها المهمة.

١. عصمة الإمام

لابدّ أن يتمتع الإمام بالعصمة، لئلا تزلّ قدمه ـ والعياذ بالله ـ عند بيان الأحكام الإلٰهية، وهي مهمة فُوّضت إليه من قبل النبي ﷺ، وفي غير ذلك لا يتم تبليغ الأحكام للبشر، ولا تحصيل الغرض من تشريع الدين، ونقض الغرض لا يتفق والحكمة الإلهية.

ومبنىٰ هذا الاستدلال ـ كما أشار إليه متكلمو الإمامية ـ هو أن حفظ الشريعة من التحريف يعدّ من وظائف الإمام، وهذا يعني أن الأقوال والآراء التي يفسّر بها الكلام الإلٰهي والأحكام لابدّ أن تُخضع لكلام الإمام عليه السلام وتُقاس به، ليتميز علىٰ ضوئه الحق من الباطل، ويوصد الباب بوجه أي تحريف في الشريعة، فإذا لم يكن الإمام معصوماً عن الخطأ، فلا يتحقق ذلك الهدف. قال العلامة الحلي في توضيح هذا الدليل:

> إن الحافظ للشرع ليس هو الكتاب لعدم إحاطته بجميع الأحكام التفصيليةولا السنّة لذلك أيضاً، ولا إجماع الأمة، لأن كل واحد منهم علىٰ تقديرعدم المعصوم فيهم يجوز عليه الخطأ، فالمجموع كذلك... فلم يبق إلّاالإمام، فلو جاز الخطأ عليه لم يبق وثوق بما تعبّدنا الله تعالىٰ به وما كلفناه،وذلك مناقض للغرض من التكليف، وهو الانقياد إلىٰ مراد الله تعالى.[١]

وتدل الآية الشريفة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢] علىٰ لزوم عصمة الإمام، ذلك لأن المعصية التي هي عبارة عن التجاوز على الأحكام الإلٰهية من المصاديق الواضحة للظلم، يقول تعالىٰ في محكم كتابه الكريم: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾،[٣] ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤] فكل من ارتكب ظلماً فلا ينال منصب الإمامة أبداً.

١. كشف المراد، مبحث الإمامة، المسألة الثانية
٢. البقرة، ١٢٤
٣. البقرة، ٢٢٩
٤. لقمان، ١٣

توضيح الاستدلال: إن جملة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ جاءت جواباً من الله سبحانه علىٰ سؤال إبراهيم‌ؑ الإمامة لذريته، ذلك أن الله سبحانه حينما وهب لإبراهيم‌ؑ الإمامة، وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ طلب‌ؑ هذا المقام والمنصب الخطير لذريته ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فقال سبحانه جواباً لسؤاله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. ويمكن تقسيم ذرية إبراهيم‌ؑ إلىٰ أربعة أقسام:

١. من لم يكن ظالماً طوال عمره، وعند ذاك لا يصدق عليه عنوان الظالم؛

٢. من كان ظالماً في بداية عمره دون أواخره؛

٣. عكس القسم الثاني؛

٤. عكس القسم الأوّل.

ومن الواضح أن إبراهيم‌ؑ أجلّ من أن يسأل الإمامة للقسمين الأخيرين، ذلك لأنه ليس ثمة شك في عدم استحقاقهما لهذا المنصب الخطير، ومن المستبعد أن يسأل إبراهيم‌ؑ الذي يسعىٰ إلىٰ هداية وسعادة البشر، ذلك المنصب لمن يقترف الذنوب والمعاصي خلال حياته كلها، أو لمن يرتكب ذلك في أواخر عمره، فبقي القسمان الأولان، وقد استثنى الله سبحانه القسم الثاني، فلم يبق ـ إذن ـ إلّا القسم الأوّل، ولا يتحقق ذلك إلّا بالعصمة، لأنّ من المحال عادة أن يتحقق في شخص غير معصوم لم يرتكب من بداية عمره إلىٰ نهايته خطأ أو ذنباً، صغيراً كان أو كبيراً، عمداً كان أو سهواً.[1]

وبعبارة أُخرىٰ إن عبارة الظالمين، فيها إطلاق وشمول من جهتين. الأول من جهة الأفراد، والثاني من جهة الزمان. ومفادها أن كل من ارتكب ظلماً ومعصية وذنباً، فسوف يُحرم من منصب الإمامة، سواء أكان طيلة عمره هكذا أم في بدايته أم في نهايته، لذلك فاحتمال أن الشخص الذي تاب بعد اقترافه المعصية دون أن يعود إليها لا يصدق عليه عنوان الظالم ليكون جديراً بمنصب الإمامة، احتمال لا أساس له من الصحة.[2]

إشكال: قد يُراد من الإمامة في الآية الكريمة النبوة والرسالة، أي أن الله سبحانه بعد

---

١. راجع: الميزان، ج ١، ص ٢٧٤.

٢. راجع: مجمع البيان، ج ١، ص ٢٠٢.

أن ابتلىٰ إبراهيمﷺ بامتحانات خاصة، واجتازهاﷺ بنجاح، اختاره الله للنبوة والرسالة، ثم سألﷺ مقام النبوة لذريته، فأجابه الله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، بمعنىٰ أن الأنبياء لابدّ أن يكونوا معصومين، وبهذه الصورة فإن الآية الكريمة سوف لا تدلّ على لزوم عصمة الإمام.

الجواب: أولاً: إن إبراهيمﷺ حينما سأل مقام الإمامة لذريته كان له ولد، واحتمال أنه طلب ذلك في وقت لم يكن عنده ولد لا ينسجم مع ظاهر الآية، ومن جهة أُخرىٰ فإن إبراهيمﷺ لم يُرزق بولد حتىٰ طعن في السن، كما يقول سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.[١]

ثانياً: إن ظاهر جملة ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ يشير إلىٰ أنهﷺ تعرّض لاختبارات صعبة، وإذا رجعنا إلىٰ سيرتهﷺ نجد أن هذه الاختبارات عبارة عن محاججاته مع الوثنيين وعبدة الشمس والقمر والكواكب، وكسر الأصنام، وجهاده ضد نمرود وأعوانه، وإلقائه في النار، وقصة ذبح ابنه إسماعيل. وهذا كله قد حدث في عهد نبوّته، وهذا يعني أنه حينما نال مقام الإمامة، كان نبياً.

ثم إن الآية الكريمة ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ تدل علىٰ عصمة أولي الأمر، ذلك أنه:

أوّلاً: إن لزوم الإطاعة المطلقة لشخص أو أشخاص ـ مع الأخذ بعين الاعتبار أن إطاعة غير الله في المعصية حرام ـ تدلّ علىٰ عصمة أولي الأمر عن الخطأ والذنب.

ثانياً: عطف أولي الأمر على الرسول يدلّ علىٰ أن ملاك إطاعة أولي الأمر هو نفس ملاك إطاعة الرسولﷺ، وبما أن الرسول معصوم، فكذلك أولي الأمر أيضاً.

ودلالة هذه الآية علىٰ لزوم عصمة أولي الأمر من الوضوح بمكان حدت بفخر الدين الرازي ـ وهو من علماء السنّة الذين لم يرتضوا عقيدة الشيعة حول عصمة الإمام ـ إلى التسليم بدلالة الآية علىٰ عصمة أولي الأمر، وإليك ما قاله في هذا الصدد:

ثبت أن الله تعالىٰ أمر بطاعة أولي الأمر علىٰ سبيل الجزم، وثبت أن كل من أمر الله

١. إبراهيم، ٣٩

بطاعته علىٰ سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أن أولي الأمر المذكور في هذه الآية لابدّ وأن يكون معصوماً.

ومع ذلك فقد أخطأ في بيان مصداق أولي الأمر المعصوم، وزلّت قدمه لما قال:

المراد من اولي الامر اما مجموع الأمة أو بعض الأمة، والفرض الثاني بعيدعن الصواب ذلك لانا عاجزون عن معرفة ذلك البعض المعصوم، ولما بطل هذا وجب ان يكون ذلك المعصوم هم أهل الحل والعقد من الأمة وذلك يوجب القطع بان اجماع الأمة حجة.[1]

فكلام الرازي حول تشخيص مصداق أولي الأمر لا يمكن الركون إليه بتاتاً، لأنه: أولاً: إجماع أهل الحلّ والعقد لا ينتهي إلى العصمة، على الرغم من إمكانية تضاؤل احتمال الخطأ، وثانياً: معرفة ذلك الصنف الخاص المعصوم من الأمة أمر متيسّر من خلال الاستعانة بالكتاب والسنة نظير آية التطهير، وحديث الثقلين، وأحاديث أُخرىٰ تُثبت عصمة أهل بيت النبيﷺ، وتبيّن أن المراد من أولي الأمر هم أئمة أهل البيتعليهم السلام.

وحاصل ما تقدم أن هناك مبحثين في مجال عصمة الإمام، وهما:

١. لزوم عصمة الإمام، إذ ينبغي لمن أُلقيت إليه مقاليد الإمامة وزعامة الأمة الإسلامية بعد النبيﷺ أن يتمتع بالعصمة (العصمة في الإمامة العامة).

٢. إن أئمة أهل البيتعليهم السلام قد تبوّؤا مقام العصمة، وانطلاقاً من ذلك، فهم جديرون بقيادة وزعامة الأمّة الإسلامية بعد النبيﷺ، والإمامة لائقة بهم (العصمة في الإمامة الخاصة).

وقد بيّنا بتفصيل أدلة المبحث الأول في هذا الفصل، أما أدلّة المبحث الثاني فقد تعرّضنا لها في مبحث منابع ومصادر الشيعة في أُصول الدين وفروعه، فلا نجد هنا ضرورة لتكرارها.

يُذكر أن حديث الإمام الرضاعليه السلام حول الإمامة،[2] قد تكرّرت فيه مسألة لزوم عصمة الإمام وبالشكل التالي:

أ) بالاستناد إلى الآية المباركة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. قالعليه السلام: فأبطلت هذه

١. انظر: مفاتيح الغيب، ج ١٠، ص ١٤٤.

٢. أصول الكافي، ج ١، ص ١٥٤، كتاب الحجة، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته

الآية إمامة كل ظالم إلىٰ يوم القيامة، وصارت في الصفوة.

ب) بعد بيان أن الإمام أمين الله علىٰ خلقه، وحجّته علىٰ عباده، والداعي إليه، والمدافع عن أحكامه، قال: الإمام المطهّر من الذنوب، والمبرّأ من العيوب.

ج) بعد بيان أن الله اختار الإمام من بين عباده، وأودع في قلبه كنوز الحكمة، قال: فهو معصوم مؤيَّد موفَّق مسدّد، قد أمِنَ من الخطايا والزلل والعثار، يخصّه الله بذلك ليكون حجّته علىٰ عباده، وشاهده علىٰ خلقه.

٢. العلم وسائر الكمالات الروحية

ينبغي أن يكون الإمام خبيراً بأحكام الدين ومصالح المسلمين، رائداً في مجال تربية النفوس لكي يتمكن من تحقيق أهداف الإمامة، وينبغي أيضاً أن يكون متحلّياً بكافة الفضائل والكمالات الروحية، ليصبح أُسوة وقدوة للآخرين في أخلاقه وسلوكه، وفي هذا الصدد يقول الإمام الرضا عليه السلام:

> والإمام عالم لا يجهل، وراع لا ينكل، معدن القدس والطهارة، والنسك والزهادة، والعلم والعبادة، لا مغمز فيه في نسب، ولا يدانيه ذو حسب...نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة.

مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام

هناك مصدران رئيسيان لعلوم أئمة أهل البيت عليهم السلام في مجال المعارف والأحكام الإلٰهية:

أ) المعارف التي وصلت إليهم عن النبي صلى الله عليه وآله باعتبارهم ورثة علمه صلى الله عليه وآله. هذه العلوم والمعارف نقلت في أحاديث أئمة أهل البيت بنحوين:

الأوّل: أنها نُقلت عن النبي صلى الله عليه وآله بالواسطة أو بدونها، فقد أُثرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أحاديث كثيرة عن هذا الطريق، تشكّل ـ لو جُمعت ـ مسنداً ضخماً، ويعتبر حديث سلسلة الذهب الوارد عن الإمام الرضا عليه السلام في موضوع كلمة التوحيد نموذجاً لذلك.[١]

الثاني: أنها نُقلت من كتاب عليّ عليه السلام الذي عاش في كنف النبي صلى الله عليه وآله ولازمه ملازمة

١. الشيخ الصدوق، توحيد، الباب ١، ح ٢١ـ٢٣

الظلّ، ونهل من علمه، الأمر الذي أتاح له تسجيل أحاديث جمّة عنه ﷺ في كتاب. والحقيقة أنه ؑ كان يكتب بخطّه ما يُمليه عليه النبي ﷺ، وكان أئمة أهل البيت ؑ يصدرون في رواياتهم عن هذا الكتاب[1] الذي عُرف عندهم بالجامعة، لكونه جامعاً للأحكام الإلٰهية.

قال الإمام جعفر الصادق ؑ: أما الجامعة فهو كتاب طوله سبعون ذراعاً، إملاء رسول الله ﷺ من فلق فيه، وخطّ علي بن أبي طالب ؑ بيده، فيه والله جميع ما تحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة.[2]

ب) الحقائق والمعارف التي أُلهموا بها من جانب الله تعالى. فعلى الرغم من أن الوحي كان مختصاً بالنبي، وبختم النبوة أوصد باب الوحي، إلّا ان باب الإلهام الغيبي بقي مفتوحاً بوجه أولياء الله لا سيما أئمة أهل البيت ؑ الذين هم من خاصة أوليائه، وكانوا يحظَوْن بإلهامات ربوبية علىٰ مستوى رفيع. يُذكر أن كلمة المُحدَّث تُطلق علىٰ من استلهم حقائق ومعارف من عالم الغيب دون أن يكون نبيّاً، وقد ورد هذا المعنىٰ في أحاديث الفريقين، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه: لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء.[3]

وما رواه الكليني في الكافي من أن محمد بن مسلم سأل الإمام الصادق عن معنى المُحدَّث، فقال ؑ: إنه يسمع الصوت ولا يرى الشخص، فقلت له: جُعلت فداك، كيف يعلم أنه كلام المَلَك؟ قال: إنه يُعطى السكينة والوقار حتىٰ يعلم أنه كلام مَلَك.[4]

فأهل البيت ؑ ـ كما تقدّم بيانه ـ معصومون، يتمتّعون بعلم لدنّي وراسخون في العلم، ومطّلعون علىٰ ظاهر القرآن وباطنه، فهم ورثة علم النبي ﷺ والمعارف النبوية. وبكلمة واحدة هم تراجمة الكتاب والسنّة.

ومما يجدر ذكره في الختام أنه وردت في أحاديث أئمة أهل البيت ؑ الإشارة إلى (مصحف فاطمة) الذي أُودعت فيه حقائق وأسرار تتعلّق بمستقبل العالم. ويعدّ هذا

١. راجع: المراجعات، ص ٣٢٧، المراجعة ١١٠، ط دار القرآن الكريم. قم.
٢. بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٨ ٣. صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٤٩
٤. أصول الكافي، ج ١، ص ٢٧١، كتاب الحجة، باب أن الأئمة ؑ محدَّثون، ح ٤

الكتاب أحد مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام أيضاً، ولكننا أغفلنا ذكره، لأن محتواه لا يتعلق بأصول الدين وفروعه، بل يتعلق ـ كما تقدّم ـ بحقائق العالم وأسراره والغيبيات لا سيما بما يجري على أهل الوحي والنبوة، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون.[1]

والكتاب الآخر الذي يعتبر من مصادر علوم أئمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً، هو كتاب الجفر الذي يحوي علوم الأنبياء الماضين وأوصيائهم،[2] ويتضح من مطالعة الروايات أن كتاب علي عليه السلام هو أهم كتاب ومصدر ومرجع لأئمة أهل البيت عليهم السلام في بيان المعارف والأحكام الإلٰهية.

وعوداً إلىٰ بدء، فالحديث الوارد بشأن صفات الإمام كقائد وأسوة للبشر، وبأنه عالم لا يجهل، هو علمه من هذه الزاوية، ولا يعني ذلك أن أية حقيقة في عالم الوجود لا تخفىٰ على الإمام أبداً، ذلك أنّه ورد في أحاديث كثيرة عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام أن الله سبحانه نحوين من العلم:

علم مكنون لا تحيط به الملائكة والأنبياء، وعلم وهبه الله تعالىٰ للملائكة والأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً.[3]

وقد وردت في موضوع البداء أيضاً أحاديث مفادها أن الله تعالىٰ ستَر بعض الحقائق عن الملائكة والأنبياء والأئمة.

ومهما يكن من أمر فموضوع بحثنا هو العلوم التي وُهبت للإمام عليه السلام والتي يرتكز عليها في هداية البشر على كافة الأصعدة، فلابدّ له إذن من أن يتمتع بعلم واسع ومعارف جمّة.

وقد ورد التأكيد علىٰ ذلك في أحاديث كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لاسيما الحديث الآنف الذكر، كما ورد التأكيد علىٰ أن كلّ علوم الأنبياء السابقين هي عند

١. أصول الكافي، ج ١، ص ٢٤٠، كتاب الحجة، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة، ح ٢
٢. المصدر السابق، ح ١، ٣. وللتوسع في معرفة أبواب علوم أهل البيت عليهم السلام، والمصاحف والكتب التي لديهم، راجع: بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٨ ـ ٦٦.
٣. أصول الكافي، ج ١، ص ١٩٩، كتاب الحجة، باب أن الأئمّة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم

رسول الله ﷺ الذي أودعها بدوره عند أمير المؤمنين ؛ وسائر الأئمة ؛

ومما لا ريب فيه أن دائرة علوم أهل البيت ؛ لا تنحصر بما قيل حتى الآن، بل هي ـ بإذن الله تعالىٰ ومشيئته ـ أوسع من ذلك، فقد أُتيح لهم الاطلاع علىٰ حقائق العالم وأسراره، وليس العلم الواسع هذا للإمام هو موضع بحثنا، بل ذلك العلم الذي له مساس بأهداف الإمامة وهداية البشر.

وبعبارة أخرىٰ إن الذي نعتني بشأنه في هذا البحث، هو علم الإمام ؛ من منظار علم الكلام، لا من منظار الفلسفة أو العرفان وما إلىٰ ذلك.[١]

٣. الأفضلية على الآخرين

لاشك في أن تقديم المفضول على الفاضل قبيح عقلاً، والله منزّه عن كل قبيح. من هنا كان حكم الشرع في هذا الصدد منسجماً وموافقاً لحكم العقل، وانطلاقاً من ذلك لابدّ أن يكون الإمام أفضل من الآخرين في العلم والسياسة والزهد والورع والأهلية لقيادة المجتمع وتحقيق أهداف الإمامة، وتشير عبارة (لا يدانيه ذو حسب) التي وردت في الحديث المروي عن الإمام الرضا ؛ إلىٰ هذه الصفة، كما يقول الإمام في موضع آخر:

الإمام واحدُ دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله، من غير طلب منه ولا اكتساب.[٢]

يُذكر أن بعض متكلّمي أهل السنة اشترطوا صفة الأفضلية للإمام، ولكنهم ـ بالطبع ـ قيّدوا ذلك بغياب أي مانع أو مصلحة عليا، وممن ذهب إلىٰ هذا القول القاضي أبابكر الباقّلاني (المتوفّىٰ ٤٠٣ هـ)، حيث استدل علىٰ ذلك بطائفة من الأحاديث النبوية التي ورد فيها أن الإمام أفضل الناس، كما ذهب إلىٰ تواترها المعنوي، ومن جانب آخر اتفق المسلمون علىٰ أن الإمامة الكبرىٰ ـ أي إمامة المجتمع الإسلامي ـ أعظم إمامة. وإذا كان الأفضلية مطلوبة لإمام الجماعة، فهي من باب أولىٰ مطلوبة لإمام المجتمع الإسلامي.[٣]

ومن الروايات التي استدل بها الباقلاني: «من تقدّم علىٰ قدم من المسلمين، يرىٰ أن

١. للاطلاع أكثر علىٰ إحاطة أئمة أهل البيت ؛ بالعلوم، راجع: أصول الكافي، ج ١، كتاب الحجة؛ آية الله المجاهد السيد عبد الحسين الموسوي اللاري، المعارف السلماني؛ المظفر، علم الإمام.

٢. أصول الكافي، ج ١، ص ١٦٥، كتاب الحجة، باب جامع في فضل الإمام وصفاته

٣. راجع: تمهيد القواعد، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٥.

فيهم من هو أفضل منه، فقد خان الله ورسوله من المسلمين».[1]

وقد علّق الخواجه نصير الدين الطوسي علىٰ هذا الشرط بقوله: قُبح تقديم المفضول معلوم، ولا ترجيح مع التساوي.

ومن جانب آخر، إذا كان كل الأشخاص متساوين في الفضل والكمال، فإن اختيار أحدهم للإمامة يُعتبر ترجيحاً بلا مرجّح وهو قبيح، ولذا لابدّ أن يكون الإمام أفضل الناس كمالاً وفضلاً.

كل ما قيل كان يتعلق بالأفضلية في باب الإمامة العامة، وأما الأفضلية في باب الإمامة الخاصة، وأن أهل البيت عليهم السلام أفضل الناس في كل عصر ومصر، فقد مرّ بيانه عند البحث عن أفضلية علي عليه السلام علىٰ سائر الصحابة والخلفاء، ويصدق ذلك أيضاً علىٰ سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام ويُعتبر ذلك من مسلّمات التاريخ، ذلك أنهم لم يتلقوا العلم عن أحد قط، بل تلقّاه عنهم الآخرون، وهذا هو الإمام أبو حنيفة يقول: «لولا السنتان لهلك النعمان»،[2] مشيراً بذلك إلىٰ المدة التي حضر فيها على الإمام الصادق عليه السلام، وتلقّىٰ فيها عليه العلم، وقال أيضاً: «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد».[3]

إن من يدرس تاريخ أئمة أهل البيت عليهم السلام وسيرتهم وسيرة العلماء والشخصيات المعاصرة لهم، سوف تبرز أمامه هذه الحقيقة، وهي أنهم أفضل الناس علماً وعملاً، إذ لم يعجزوا عن أي سؤال وُجّه إليهم قط، ولم يأخذوا العلم عن أحد قط. وقد اعتبر الشيخ الصدوق هذا الأمر أهمّ دليل وأوضحه على إمامتهم حيث قال: لم يتعلم أئمة أهل البيت عليهم السلام من أحد من الناس، فأي دليل أدلّ من هذا علىٰ إمامتهم وإن النبي صلى الله عليه وآله نصبهم وعلّمهم وأودعهم علمه وعلوم الأنبياء عليهم السلام قبله.[4]

ج) أسلوب تعيين الإمام

يتضح مما تقدّم أنه لا سبيل إلىٰ تعيين الإمام سوى النصّ، ذلك لأن الصفات والشرائط لاسيما صفة العصمة لا يحيط بها سوى الله تعالىٰ. من هنا قال الله تعالى بشأن النبوة:

١. المصدر السابق، ص ٤٧٤ ٢. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٥٨
٣. المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣
٤. كمال الدين وتمام النعمة، ص ٩١، ط مؤسسة النشر الإسلامي.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾،[1] وهذه القاعدة جارية في شأن الإمامة أيضاً، فكما أن النبوة رحمة خاصة لله سبحانه يجعلها في من يشاء من عباده ولا يحقّ للآخرين فعل ذلك ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾،[2] فالإمامة أيضاً رحمة إلٰهية خاصة، وأمر تقسيمها وتعيينها بيد الله سبحانه.

روى ابن هشام أن النبيﷺ دعا بني عامر إلى الإسلام لما وردوا في موسم الحجّ إلىٰ مكة، فقال له زعيمهم: إذا بايعناك ونصرك الله على خصومك، ألنا من الأمر شيء؟

فقال لهﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

إنّ كلام النبيﷺ هذا بشأن الإمامة يتفق مع الكلام الإلٰهي حول النبوة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.[3]

١. الأنعام، ١٢٤   ٢. الزخرف، ٣٢   ٣. الأنعام، ١٢٤

١
نصوص الإمامة

تقدّم في الفصل السابق بيان حقيقة الإمامة وأبعادها، وخصوصيات الإمام ومؤهلاته عند الشيعة، ووصلنا إلى هذه النتيجة، وهي أن تعيين الإمام يتمّ عن طريق النصّ الشرعي، وسنستعرض في هذا الفصل النصوص على الإمامة، يُذكر أن متكلّمي الإمامية أودعوا في كتبهم الكلامية نصوصاً كثيرة علىٰ إمامة أئمة أهل البيت عليهم السلام من القرآن والسنّة، وبما أن سرد هذه النصوص برمّتها يحتاج إلىٰ تأليف مستقلّ، لذا آثرنا ذكر نماذج منها:

١. آية الولاية

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.[1]

لاشكّ في أن المخاطب بهذه الآية هم المسلمون، والحكم الذي أشارت إليه، هو أن الذين لهم الولاية هم الله ورسوله والمؤمنون الذين يتمتّعون بمزايا خاصة، ولفظة «إنما» الواردة في الآية دالة على الحصر والاختصاص،[2] ومفادها أن الولاية على المسلمين مختصّة بالله ورسوله وبعض المؤمنين، أي أنّه ليس لأحد ولاية على المسلمين سوى

---

١. المائدة، ٥٥

٢. لفظة «إنّما» تفيد النفي والإثبات، مثل قولنا، إنما زيد قائم، ومعنىٰ ذلك أن ليس لزيد سوىٰ حالة القيام، وهكذا الحال في، ما زيد إلا قائماً. راجع: مختصر المعاني،ص ٨٢، باب القصر.

الله ورسوله والمؤمنين ذوي الخواص المحدّدة، يقول الزمخشري: ومعنىٰ «إنّما» وجوب اختصاصهم بالمولاة.

وثمة معانٍ محتملة لمفردة الولاية في الآية، وهي: النصرة، والمحبة، والزعامة (حقّ التصرّف بشؤون الآخرين). وتعبير النصرة والمحبة المذكور، هو من اعمّ التعابير ومن لوازم الإسلام والايمان، أي أن من مستلزمات الإسلام والإيمان هو محبة المسلم والمؤمن لأخيه المسلم والمؤمن ونصرته، وهذا لا ينسجم مع حصر الولاية واختصاصها. لكن الولاية بالمعنى الثالث ليست من لوازم الإسلام والإيمان، وليست عامة، بل هي بحاجة إلىٰ إذن وتشريع خاص، فالله خالق الإنسان له ولاية ذاتية، والنبي ﷺ باعتبار تفويض الولاية إليه من قبل الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] له ولاية على المسلمين أي التصرف بشؤونهم. كما أشارت الآية إلىٰ صنف آخر لهم هكذا ولاية، وهم بعض المؤمنين المختصين بمزايا معروفة.

ويتضح من كلّ ذلك أن معنى الولاية في الآية الشريفة هو حقّ التصرّف بشؤون المسلمين أي الولاية والزعامة والقيادة.

وينبغي ـ قبل كل شيء ـ بيان ما هو المراد بالمؤمنين الذين هم حقّ الولاية على المسلمين؟ ومن هم ؟

ثمّة أحاديث كثيرة وردت عن طريق الفريقين تدلّ علىٰ نزول الآية في شأن عليّ ﷺ،[2] فالآية الكريمة تدلّ علىٰ إمامة عليّ وزعامته للأمة الإسلامية.

لقد كان للنبي ﷺ في حياته ولاية على المسلمين كافة، وعلي ﷺ كسائر المؤمنين

---

١. الأحزاب، ٦

٢. الأحاديث المتعلقة بشأن نزول الآية في علي ﷺ بلغت حدّ التواتر عند الشيعة، ودون ذلك الحد عند أهل السنة. راجع في هذا الصدد: الميزان، ج ٦، ص ١٦ ـ ٢٠؛ تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٥٩٧؛ تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٢٢١؛ الحسكاني، شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٦١؛ الواحدي، أسباب النزول، ص ١٣٣؛ الطبري، الرياض النضرة، ج ٣، ص ٢٠٨. وقد سلّم فقهاء الإسلام بشأن النزول هذا، واستندوا إليه في باب الفعل الكثير في الصلاة، وباب الزكاة، وهل أن الصدقة زكاة. ومع هذا كله يدّعي ابن تيمية بأن الحديث مختلق، وهذا من العجائب. الميزان، ج ٦، ص ٣٥؛ المراجعات، ص ١٦٠، ١٦١.

مخاطب بهذه الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، ومن المؤكد أن ولايته وإمامته عليه السلام بدأت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، والسؤال الذي يُطرح هنا: إذا كانت الآية نازلة في علي عليه السلام، فلماذا ورد فيها لفظ «المؤمنين» الدالّ علىٰ الجماعة؟ وقد تصدّىٰ المفسّرون للإجابة عن هذا السؤال بأجوبة مختلفة.

يقول الزمخشري:

> إن الغرض من هذا التعبير هو أن يكون منهج الإمام علي عليه السلام قدوة لسائرالمؤمنين، ليرغبوا في مثل فضله فينالوا مثل ثوابه، ولينبّه علىٰ أن سجيّةالمؤمنين يجب أن تكون علىٰ هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسانوتفقّد الفقراء.[1]

ويقول الطبرسي:

> الغرض من هذا التعبير هو بيان عظم شخصية علي عليه السلام، وذلك أن أهل اللغةقد يعبّرون بلفظ الجمع عن الواحد علىٰ سبيل التفخيم والتعظيم.[2]

ومما ينبغي ذكره أن الزكاة لغةً أوسع معنىً منها اصطلاحاً، فالزكاة لغةً تشمل الانفاق المالي الأعم من الواجب والمندوب، والدليل الواضح علىٰ ذلك، هو استعمالها في السور والآيات المكية في وقت لم يُبيّن فيه حكم الزكاة اصطلاحاً في الفقه الإسلامي.[3]

واستناداً إلىٰ ما تقدّم من إطلاق لفظ الجمع على الواحد وتعبير الزكاة على الصدقة المندوبة، يتضح خطل رأي صاحب «المنار» الذي شكّك في الأحاديث الواردة بشأن النزول.

والتشكيك الآخر الذي أثير في هذا الموضوع، هو أن بداية إمامة علي عليه السلام تعود إلى ما بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله، والآية لا توحي بأكثر من أن علياً عليه السلام سيصبح إماماً للمجتمع الإسلامي عقب النبي صلى الله عليه وآله وليست ناظرة إلىٰ إمامته بلا فصل أو عقب مدة من الزمن، وفي هذه الصورة، سيتفق مفادها مع نظرية أهل السنة.[4]

وهذا التشكيك لا يرتكز علىٰ أساس صحيح، وذلك:

أولاً: إنّه علىٰ خلاف إجماع المسلمين الذين انقسموا علىٰ أنفسهم حول إمامة علي عليه السلام، فمنهم من آمن بإمامته بلا فصل عن طريق النص الشرعي، ومنهم من اعتقد

---

١. انظر: الكشّاف، ج ١، ص ٦٤٩.
٢. مجمع البيان، ج ٢، ص ٢١١
٣. الميزان، ج ٦، ص ١٠، ١١
٤. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٢٩

بإمامته عن طريق البيعة بعد عثمان، وأما إمامته بعد عثمان عن طريق النص فلم يذهب إليه أحد.

ثانياً: تقدم أن مفردة «إنما» تدل على الاختصاص، ومفادها أن الإمامة والولاية بعد رسول الله ﷺ مختصة بعلي ﷺ، وليس لأحد الحق فيها.

٢. آية التبليغ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.[١]

وردت أحاديث كثيرة عن الفريقين تشير إلى هذه الحقيقة، وهي نزول الآية بشأن ولاية علي ﷺ وإمامته، وقد قام النبي ﷺ بإبلاغ هذا الأمر الإلٰهي للناس في غدير خمّ، وهذا شيء قطعيّ ومُسلَّم به عند الشيعة، كما ذهب الكثير من علماء أهل السنة إلىٰ نزول الآية في شأن ولاية علي ﷺ بالرغم من اختلافهم مع الشيعة في معنى الولاية. وقد ذكر العلّامة الأميني في كتابه الغدير نحو (٣٠) شخصاً من كبار علماء أهل السنة قالوا بنزول الآية المذكورة في ولاية علي ﷺ وغدير خمّ.[٢]

وإذا تجاوزنا الأحاديث بشأن النزول، فإن ذلك المعنىٰ يتضح أيضاً عند الإمعان في صدر الآية وذيلها ومفرداتها، ذلك أن مفاد المقطع الأول للآية هو تخويل النبي ﷺ مهمة تبليغ ما أنزله الله إلى الناس، هذه المهمة بلغت من الأهمية حدّاً، بحيث أن عدم إبلاغها يصبح بمنزلة عدم إبلاغ مهام النبوة والرسالة. هذا من جانب، ومن جانب آخر فجملة ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ تشير إلى أن النبي ﷺ أوجس في نفسه خيفة إزاء إبلاغ هذا الأمر الإلٰهي للناس، وقد وعده الله تعالىٰ بالثبات والعصمة من الناس.

ومن الواضح أن النبي ﷺ لم يخف علىٰ نفسه من وراء هذا الإبلاغ مطلقاً، ولم يكن يساوره القلق بشأن حياته ومماته، بل إن قلقه انصبّ على الدين والشريعة لئلا يؤدي ابلاغ هذا الأمر الإلهي إلىٰ ضعف الدين ووهن الشريعة.

١. المائدة، ٦٧

٢. الغدير، ج ١، ص ٢١٤-٢٢٣؛ وقيلت حول زمان وشأن نزول الآية أقوال أُخرىٰ غير مشهورة، راجع: الميزان في تفسير القرآن، ج ٦. للإطلاع علىٰ هذه الأقوال ونقدها.

هذا الموضوع له ارتباط مباشر بمسألة ولاية علي ﷺ وإمامته، ذلك أنّه ﷺ كان ابن عم النبي وصهره على ابنته، وهذا الأمر أتاح للمنافقين والانتهازيين فرصة مناسبة لتفسير خطوة النبي ﷺ ضمن الاتجاه العام لعادات وتقاليد القبائل العربية، وهي تؤدي ـ بحسب زعمهم ـ إلى فقدان مصداقية الإسلام إزاء اجتثاث العادات الجاهلية التي كانت من الأهداف والشعارات التي نادىٰ بها الإسلام، من هنا وهبه الله تعالى الصبر، ووعده بالعصمة من الناس وحفظ الشريعة.[1]

قد يقال: إن حديث يوم الدار وحديث المنزلة وأحاديث أُخرىٰ، قد بيّنت ـ حسب اعتقاد الشيعة ـ مسألة الولاية وإمامة علي ﷺ، وما بلّغه النبي الأكرم ﷺ للمسلمين إنما هو المعارف والأحكام الإسلامية التي نزلت من جانب الله تعالىٰ، وأما الحكم المتعلق بإمامة علي ﷺ فقد أنزل من قبل، وبلّغه النبي ﷺ فيما سبق، وفي هذه الصورة سوف لا تتعلق آية التبليغ بإمامة علي ﷺ.

وللإجابة عن ذلك نقول إن آية التبليغ لا تنافي ما قيل، ذلك لأن التبليغ المشار إليه في الآية هو تبليغ خاص، يتمثل في إبلاغ إمامة علي ﷺ في تلك الظروف الخاصة وأمام عشرات الألوف من المسلمين الذين وفدوا علىٰ بيت الله الحرام من اصقاع مختلفة في آخر حجّ لرسول الله ﷺ وآخر سنة من حياته الشريفة، وقد أُمر النبي ﷺ بإبلاغ إمامة علي ﷺ في تلك الظروف الخاصة، وهذا لا ينافي الإبلاغات السابقة التي أُعلنت بصورة محدودة وفي ظروف اعتيادية.

٣. آية إكمال الدين ويأس الكافرين

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.[2]

هذه الآية الكريمة تُخبر عن يومٍ، وقع فيه حدث، أسفرت عنه نتيجتان: الأُولى: يأس الكافرين من النيل من الإسلام، والثانية: إكمال الدين وإتمام النعمة الإلٰهية على

١. راجع: الميزان، ج ٦، ص ٤٥ ـ ٥٢.
٢. المائدة، ٣

المسلمين، وارتضاء الله للإسلام باعتباره ديناً إلهياً خالداً. والآن لابدّ من أن نرىٰ أيّ يوم ذلك اليوم، وأي حدث عظيم وقع فيه؟

وردت أحاديث كثيرة عن طريق الفريقين بشأن نزول الآية، وبيّنت أنها نزلت في حادثة غدير خم في الثامن عشر من شهر ذي الحجة وفي حجة الوداع، ففي ذلك اليوم الذي احتشدت فيه جموع غفيرة من المسلمين، نصب النبي ﷺ علياً عليه السلام إماماً وزعيماً للمسلمين من بعده، وهذا ما أطبقت عليه روايات الشيعة، وأما روايات أهل السنة فقد نقلت تلك الحادثة عن عدة من الصحابة، منهم: أبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وزيد بن أرقم، وأبو هريرة.[١]

إن التأمل في مسألة الإمامة ودورها الرئيسي والمهم في حفظ الإسلام وتطبيقه واستمراره، يكشف النقاب عن مغزى النتيجتين الآنفتي الذكر، ذلك أنه بإعلان إمامة علي عليه السلام واتضاح مصير قيادة المجتمع الإسلامي بعد النبي ﷺ غمر الكافرين يأس وإحباط شديدين، إذ باءت بالفشل كل محاولاتهم ومخططاتهم التي حاكوها ضد الإسلام، وظل يراودهم آخر أمل، وهو أن النبي ﷺ ليس له ولد ذكر ليكون ـ وفق التقاليد الرائجة عند العرب ـ خليفة له، وعندئذ ستحين لهم ـ بعد وفاة النبي ـ فرصة مناسبة لتحقيق أهدافهم المشؤومة ضد الإسلام، وبنصب علي عليه السلام إماماً للمسلمين بعد النبي ﷺ بشكل رسمي وواسع، ذهبت كافة أحلامهم أدراج الرياح. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الإسلام الذي بُيّنت أصوله وفروعه، قد وصل إلىٰ أوج الكمال مع وضوح أمر الزعامة والإمامة، ذلك لأن قائداً كعلي عليه السلام مع ما يملك من صفات ومؤهلات قادر علىٰ إعطاء تفسير صحيح للكتاب والسنة، وسيكون رأيه الثاقب معياراً للحق والباطل، وعند ذاك سيصان الدين من التحريف والتغيير. ومن الواضح أنّه سيتمّ في هذه الصورة إكمال النعمة الإلهية على المسلمين، وسيجلب الالتزام به الرضا الإلهي دون شك.

وبهذا التدبير الإلٰهي الذي تحقق في غدير خمّ علىٰ يد النبي ﷺ حُفظ الإسلام من كيد الكافرين، وزال الخوف والقلق عن المسلمين، والذي يبعث على القلق إنما هو

---

١. الغدير، ج ١، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٦

عمل المسلمين أنفسهم، حيث ستزول عنهم هذه النعمة العظيمة لكفرهم بها، فقد جرت السنة الإلهية علىٰ عدم سلب نعمة أنعمها الله على فرد أو قوم إلّا إذا كفروا بها، وهيّئوا الأسباب لزوالها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾،[١] وجملة ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ في آية إكمال الدين ناظرة إلىٰ هذا القانون الإلٰهي.[٢]

إزالة إبهام

ورد في بعض الروايات أنّ زمان نزول آية إكمال الدين كان يوم عرفة،[٣] فكيف يتمّ التوفيق ـ إذن ـ بين هاتين الطائفتين من الروايات في زمان نزول الآية ؟

ذهب بعضهم ـ فراراً من هذه المشكلة ـ إلى القول بتكرار نزول الآية، نظير آيات كثيرة نزلت على النبي ﷺ بصورة مكررة.[٤] وقد اختار هذا الوجه سبط ابن الجوزي.[٥]

وقيل: إن نزول الآية الكريمة على النبي ﷺ كان في يوم عرفة، وتلاوتها وإبلاغها للمسلمين كان في يوم غدير خمّ، والمراد من الروايات التي دلّت علىٰ نزول الآية في غدير خمّ هو تلاوتها وإبلاغها، ومفاد هاتين الطائفتين من الروايات واحد بشأن نزول الآية، واختلافها إنما يرجع إلىٰ زمان النزول، وقد اختار هذا الوجه العلامة الطباطبائي.[٦]

٤. حديث الغدير

حديث غدير خمّ من الأحاديث الإسلامية المتواترة، حيث رواه أكثر من مائة صحابي. وهذا العدد ليس بمثير للتعجب أبداً فيما لو أخذنا بنظر الاعتبار عدد المسلمين الذين شهدوا غدير خمّ، والذي كان يربو على مائة ألف شخص.[٧]

١. الأنفال، ٥٣ ٢. الميزان، ج ٥، ص ١٧٨ ـ ١٧٩
٣. أسباب النزول، ص ١٢٦، ١٢٧؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٩٣
٤. للاطلاع علىٰ هذه الآيات، راجع: الاتقان للسيوطي، ج ١، ص ١٣٠، ١٣١.
٥. الغدير، ج ١، ص ٢٣٧
٦. الميزان، ج ٥، ص ١٩٦، ١٩٧؛ وقد رجّح بعضهم الطائفة الأُولىٰ من الروايات على الطائفة الثانية منها، ونقل العلّامة الأميني هذا القول مقروناً بالدليل في الغدير، ج ١، ص ٢٣٠.
٧. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٨٣؛ تذكرة خواص الأمة، ص ١٨؛ فريد وجدي، دائرة المعارف، ج ٣، ص ٥٤٣.

إن حادثة غدير خمّ تعد من أهم الأحداث في التاريخ الإسلامي، فبعد أداء النبي ﷺ لمناسك الحجّ في مكة، عزم على التوجه إلى المدينة، فلما وصل إلى مكان يُعرف بغدير خمّ، أمر أن يُردّ من تقدّم من المسلمين، ويُحبس من تأخّر منهم في ذلك المكان، وصلّىٰ به صلاة الظهر، ثم قام فيهم خطيباً علىٰ أقتاب الإبل، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه، وتحدّث عن موضوعات هامة، ثم أخذ بيد علي ؑ فرفعها حتىٰ يراها الجميع، وقال: «من كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه».

والآن ينبغي أن نبيّن ما المراد من (المولىٰ) في هذا الحديث؟ فأهل السنة فسّروها بالمحبة والمودة، والشيعة بالزعامة وقيادة المجتمع الإسلامي، ذلك أن أحد موارد استعمال (المولىٰ)، هو: الأولوية في التصرّف بأمور الآخرين، وعلىٰ هذا الأساس يُصبح معنىٰ هذا الحديث: أن كل من كنت مولاه في التصرّف بأموره، وكنت أولىٰ من غيره أو من نفسه بذلك، فعليّ ؑ سيكون مولاه من بعدي، وتكون له تلك الولاية.

وثمة قرائن عقلية ولفظية تشهد لصحة هذا الوجه:

١. ذكر النبي ﷺ في مستهلّ خطبته، ولايته على المؤمنين، يقول تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾،[1] ويشكّل ذلك قرينة واضحة على المراد من الولاية في جملة «منَ كنتُ مولاه، فهذا عليّ مولاه» وعلى الرغم من أن هذه المقدمة لم ينقلها كلّ رواة حديث الغدير، إلّا أن عدد الذين نقلوها ليس بقليل.[2]

٢. أخذ النبي ﷺ من المسلمين إقراراً بالشهادتين (الشهادة على التوحيد وعلى النبوة) قبل أن يذكر جملة (من كنت مولاه)، ثم قال: من أولىٰ بكم؟ فقالوا: الله ورسوله، وفي هذه الأثناء رفع يد علي ؑ، وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»، ويتجلّىٰ من خلال ذكر الولاية إلىٰ جانب الشهادة بالتوحيد والنبوة أن المراد من الولاية هو قيادة الأمة الإسلامية التي هي بمنزلة ولاية النبي ﷺ على المسلمين.

٣. أخبر النبي ﷺ المسلمين بدنوّ أجله قبل أن يصرّح بجملة (من كنت مولاه)، وظاهر ذلك أنّه ﷺ كان يفكر بمستقبل زعامة الأمة الإسلامية بعد ارتحاله إلى الرفيق

---

١. الأحزاب، ٦ ٢. انظر: المراجعات، المراجعة ٥٤؛ الغدير، ج ١، ص ٣٧١.

الأعلىٰ، وأنّه عزم على اتخاذ خطوة مناسبة بهذا الشأن.

٤. إن النبيﷺ كبّر بعد تلاوته لآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ معرباً عن سروره وابتهاجه بإكمال الدين وإتمام النعمة الإلٰهية على المسلمين، ورضى الله سبحانه برسالة النبيﷺ وولاية عليؑ، ومن الواضح أن بيان الولاية إلىٰ جانب الرسالة ليس له مدلول سوى إمامة وزعامة الأمة الإسلامية.

٥. لاشك في أن النبيﷺ أفضل الناس عقلاً وحكمة وأشدّهم عطفاً، كما أنّه من الواضح أن المؤمنين يحبّون علياً، بل أن محبّته مفترضة على المؤمنين، وكل مسلم يعلم ذلك، لأن مودة المؤمنين بعضهم لبعض من أواصر الإيمان لاسيما وأن النبيﷺ حينما آخىٰ بين المهاجرين والأنصار، آخىٰ بينه وبين عليؑ، وبيان تلك المسألة الواضحة في تلك الظروف غير الطبيعية وفي أشدّ الأوقات حرارة ومع تمهيد تلك المقدمات، أمرٌ لا ينمّ عن الحكمة، علماً أن حوادث تاريخ الإسلام ينبغي أن تُفسّر بنحو لا يثير الشك في حكمة النبيﷺ. وأما مسألة زعامة الأمة الإسلامية فقد استحوذت علىٰ أهمية كبيرة، حتىٰ غدّ كشف النقاب عنها في مثل تلك الظروف الحرجة ومع تلك المقدمات لا يخلو من حكمة.[1]

الإجابة عن إشكال

ثمّة رأي يذهب إلىٰ أن المراد من (المولىٰ) في حديث الغدير، هو المحبة والنصرة، وأن فعل النبيﷺ وقوله كانا قد صدرا عن حكمة، ذلك أن الإمام علياًؑ كان قد اتخذ في سفره إلى اليمن إجراءات بشأن الغنائم، لم ترُقْ لبعض رفقائه، فشكوْه إلى النبي، فأراد ﷺ أن يستقطب أنظار الجميع إلىٰ ضرورة محبة عليؑ.

ونقول في الإجابة على ذلك إنّ ما حدث في سفر اليمن كان يختصّ بعدد قليل من المسلمين. كان قد جاء للحجّ، فما هو مبرر جمع كل هؤلاء الحجيج في تلك الظروف غير العادية؟ وبغضّ النظر عن ذلك، كان من المناسب للنبيﷺ أن ينبّه تلك الفئة

١. انظر: المراجعات، ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ المراجعة رقم ٥٨؛ الغدير، ج ١، ص ٢٦٤ (نظرة في معاني المولىٰ).

القليلة بأخطائها دون تأخير ودون أدنىٰ تهاون، فما هي فلسفة تأخيره إلىٰ يوم غدير خمّ؟!

إن الوثائق التاريخية تؤكد أن النبي ﷺ أظهر وبسرعة ردّ فعله إزاء هذه الفئة، ونبّهها على خطئها، وقال: «يا أيها الناس لا تشكوا علياً، فوالله إنّه لأخشن في ذات الله من أن يُشكىٰ».[1] وإذا تجاوزنا ذلك، فهذا الفرض إذا كان صحيحاً، فإنّه سيدحض الدليل أو القرينة العقلية، وليس الدلائل والقرائن النقلية، وفي هذه الصورة يمكن القول: ان النبي ﷺ قد بلّغ في مبادرته في غدير خم إمامة عليّ ؑ، ووجوب محبّته ونصرته على المسلمين.

إن إرادة هذين المعنيين من لفظ (المولىٰ) تخلو من أية محاذير، لأن إطلاق لفظ (المولىٰ) علىٰ مصاديقه من باب الاشتراك المعنوي لا الاشتراك اللفظي، لذلك يمكن إرادة المعنىٰ الجامع لكافة المصاديق وهو الأولوية والأحقية، حيث يمكن تطبيقها علىٰ مصاديق متعددة، هذا فيما يتعلق بمقام الثبوت ونفس الأمر، وأما مقام الإثبات والدلالة، فاللازم وجود قرينة وشاهد، والمفروض وجود تلك القرائن.

وإذا غضضنا الطرف عن كل ما تقدّم، وقلنا: إن غرض النبي ﷺ من المنهج الذي اتبعه في غدير خمّ هو بيان وجوب محبة عليّ ونصرته، لكي يقف كل من في قلبه غِلّ أو حسد له ؑ علىٰ خطئه، ويعتبر محبته ونصرته فرض عليه. وهنا يُثار هذا السؤال: ما هي خصوصية محبة علي ؑ ونصرته بين المسلمين لتبلغ هذا المقدار من الأهمية والحساسية؟ ولماذا يجب علىٰ المسلمين محبة علي ؑ ونصرته؟ وأين تلزم نصرته؟ وعلىٰ أي أساس؟ وهل يعتبر ذلك دليلاً علىٰ أنه سينال منزلة ومكانة رفيعة بعد النبي ﷺ، تفرض على الجميع محبته ونصرته؟ وهل هذه المنزلة إلّا إمامة المسلمين؟

وعلىٰ ذلك، فمن أية زاوية نظرنا إلىٰ حادثة غدير خمّ، فإننا نستنتج منها إمامة علي ؑ. ومن الشواهد الدالة على ذلك، كلمات التهنئة بالولاية التي زفّها المسلمون[2] بأمر النبي ﷺ لعلي ؑ عند اختتام مراسم الغدير، فهل هذه المراسم الخاصة تتناسب مع

١. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٦٠٣

٢. ذكر العلامة الأميني، أسماء ستين راوياً لقصة التهنئة. الغدير، ج ١، ص ٢٧٢ـ٢٨٣.

الولاية بمعنىٰ المحبة والنصرة أو مع الإمامة وزعامة المسلمين باعتبارها خـلافة لرسول الله ﷺ؟

ومن الشواهد الأُخرى الدالة علىٰ أن المراد من الولاية في حـديث الغـدير، هـو الزعامة لا المحبة والنصرة، هي قصة الحارث بن النعمان التي نقلها بعض المـحدثين والمفسرين، وتتلخص فيما يلي: بعد انتشار خبر الغدير في الأصقاع الإسلامية، وبلوغه مسامع الحارث بن النعمان الفهري، استولىٰ عليه الغضب، وجاء النبي ﷺ، وقال:

أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله، وأمرتنا بالجهادوالحجّ والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها، ثم لم ترضَ حتىٰ نصبت هذاالغلام، فقلت: من كنتُ مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عندالله؟

فقال ﷺ: والله الذي لا إلٰه إلّا هو إنّ هذا من الله، فولّى النعمان بن الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء. فرماه الله بحجر علىٰ رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.[١]

٥. حديث المنزلة

نقل مؤلفو الصحاح والمسانيد وكتّاب السّير والمؤرخون أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام في مناسبات عديدة: (أنت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلّا أنّه لا نبيّ بعدي).

ويُعدّ هذا الحديث من الأحاديث المتواترة سنداً ودلالة عند الشيعة، أما محدثو أهل السنة فقد رووْه عن نحو عشرين صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ.[٢]

قال أبو عبد الله الكنجي الشافعي (المتوفّىٰ ٦٥٨ هـ) بعد نقله للحديث:

هذا الحديث متّفق عليه، وأخرجه الأئمة الحفّاظ: أبو عبد الله البخاري، مسلمبن الحجّاج، أبو داود، أبو عيسى الترمذي، أبو عـبد الرحـمٰن النسـائي، ابـنماجة القزويني في صحاحهم ومسانيدهم واتفقوا على صحّته.[٣]

ومفاد هذا الحديث أن كافة المنازل التي كانت لهارون من موسى عليهما السلام هي لعلي عليه السلام من

١. ذكر العلّامة الأميني أسماء (٣٠) شخصاً من كبار علماء أهل السنة، دوّنوا هذه القصة في كتبهم التاريخية والتفسيرية والحديثية؛ راجع: الغدير، ج ١، ص ٢٣٩ـ٢٤٦.
٢. انظر: المراجعات، المراجعة ٢٨، ٣٠.
٣. كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، ص ٢٨٢

رسول اللهﷺ باستثناء النبوة، ومنازل هارون التي أشار إليها القرآن الكريم، هي:

١. الوزارة: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَـٰرُونَ أَخِي﴾.

٢. الحماية والمناصرة: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾.

٣. المشاركة في النبوة والزعامة: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾.[١]

٤. الخلافة والنيابة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾.[٢]

وعليﷺ بمقتضىٰ هذا الحديث يمتلك كافة هذه المنازل ما عدا النبوة، وعلىٰ ذلك فنسبته إلىٰ رسول اللهﷺ إنما هي في منازل الوزارة والحماية والمناصرة والخلافة والنيابة والمشاركة في القيادة عن طريق الخلافة والإمامة لا عن طريق النبوة، أي أنه ﷺ وزير ومعين للنبي الأكرمﷺ في حياته، وخليفته علىٰ أمته في الهداية والقيادة بعد وفاته.

قيل إنه: لا عموم للحديث في المنازل، بل المراد استخلافه علىٰ قومه على المدينة لأن المراد من الحديث أن علياً خليفة منه على المدينة في غزوة تبوك كما أن هارون كان خليفة لموسىٰ في قومه حال غيبته، ولا يلزم دوام استخلاف موسىٰ بعد وفاته، فإن قوله اخلفني لا عموم له بحيث تقتضي الخلافة في كل زمان بل المتبادر استخلافه مدة غيبته لقصور دلالة اللفظ عن ذلك.[٣]

والجواب هو أن المورد ليس بمخصّص وفقاً للقواعد الأصولية والمقررات العقلائية المتبعة في المحاورات البشرية. بل ظاهر اللفظ هو الملاك. فإذا كان ظاهر الكلام عاماً ومطلقاً فينبغي التمسك بعمومه وإطلاقه بالرغم من وروده في مورد خاص، والشاهد علىٰ ذلك هو أنّه إذا افتُرض أن موسى ترك أمته مرة أُخرىٰ دون أن يقيم خليفة له فيهم، فمسؤولية الزعامة ستقع علىٰ عاتق هارون، ولا بدّ لأمته من الرجوع إليه، وإذا افترضنا أن هارون كُتبت له الحياة بعد موسى، فإنه سيحظىٰ بنفس هذا المقام أيضاً، لأن حاجة بني إسرائيل إلىٰ قائد، وغياب موسىﷺ عنهم، وذهابه إلى الميقات أربعين يوماً لا مدخلية له في ذلك.

---

١. طه، ٢٩ـ٣٢ ٢. الأعراف، ١٤٢ ٣. شرح المواقف، ج ٨، ص ٢٦٣

وممن وقف علىٰ ضعف الإشكال المذكور سعد الدين التفتازاني، إذ قال:

> إن العبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب، بل ربما يحتج بأن استخلافه على المدينة وعدم عزله منها، مع أنّه لا قائل بالفصل، وإن الاحتياج إلى الخليفة بعد الوفاة أشدّ وأوكد منه حال الغيبة، يدل علىٰ كونه خليفة.[١]

وعلى الرغم من إيعاز التفتازاني إلىٰ ضعف هذا الإشكال، إلّا أنّه أثار إشكالاً آخر، وهو أن إمامة هارون عند غيبة موسىٰ لم تكن باعتبار خلافته لموسىٰ نظراً لحيازته مقام النبوة، ومشاركته لموسى حال حياته في الزعامة، فما قام به موسى من جعله خليفة له، إنما هو من باب التأكيد علىٰ إمامته وزعامته، لا من باب منح ذلك المنصب له.[٢]

والجواب هو أن آيات الذكر الحكيم توضّح بشكل جليّ أن الإمامة والزعامة والقيادة كانت من اختصاصات موسى، ولم يكن هارون سوىٰ وزير له ومعين بالرغم من نبوّته، ومفسّرو أهل السنّة فسّروا الآية بهذا النحو، قال مؤلف المنار: لما أراد موسى الذهاب لميقات ربّه استخلف عليهم أخاه الكبير هارون ﷺ للحكم بينهم والإصلاح فيهم، إذ كانت الرئاسة فيهم لموسىٰ، وكان هارون وزيره ونصيره ومساعده.[٣]

هذه الآية ـ في الواقع ـ هي إحدى الأدلة علىٰ قبول التفكيك بين النبوة والإمامة، أي إذا كان لهارون مقام النبوة ومقام الإمامة والزعامة السياسية، فلم تكن ثمّة حاجة إلى استخلافه، ويتضح من اختيار موسى ﷺ لهارون خليفة له، أنّه لم يكن يتمتع بهذا المنصب من قبل.[٤]

٦. حديث الدار

يعدّ حديث يوم الدار من النصوص الدالة علىٰ إمامة علي ﷺ بعد النبي ﷺ بلا فصل، وقد مرّ شرح هذا الحديث في فصل (ظهور الشيعة)، فراجعه إنْ أحببت.

---

١. شرح المقاصد، ج ٥، ص ٢٧٦
٢. انظر: شرح المقاصد، ج ٥، ص ٢٧٥
٣. المنار، ج ٩، ص ١٢١؛ تفسير المراغي، ج ٩، ص ٥٦
٤. انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٧٣.

٧. حديث الاثني عشر خليفة

روىٰ جمهور علماء المسلمين من أئمة الحديث وأصحاب السّير والتواريخ من الفريقين في صحاحهم ومسانيدهم وكتبهم هذا الحديث بطرق عديدة عن جابر بن سمرة عن النبيﷺ أنّه قال: يكون بعدي اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم اسمعها، فقال أبي إنّه قال: كلّهم من قريش.[1]

وروي في صحيح مسلم بالعبارات التالية:

ـ إن هذا الأمر لا ينقضي حتىٰ يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش.

ـ لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً كلهم من قريش.

ـ لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش.

ـ لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلىٰ اثني عشر خليفة كلهم من قريش.

ـ لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش.

ـ لا يزال الدين قائماً حتىٰ تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش.[2]

وبالإمعان في عبارات حديث جابر، يمكن استخلاص ما يلي:

١. ورد في العبارات السالفة ذكر اثني عشر خليفة حتىٰ تقوم الساعة، وهذا لا ينطبق إلّا علىٰ أئمة أهل البيت الاثني عشر.

٢. بملاحظة أن الخلفاء في تاريخ الإسلام لم يكونوا كلهم من قريش فالمراد ـ إذن ـ من الإمامة هنا الشريعة لا الإمامة والسلطة الظاهرية، وهذا الأمر لا ينطبق أيضاً إلّا علىٰ أئمة أهل البيتؑ.

٣. نقل مؤلّف ينابيع المودة بعد نقله لحديث جابر بن سمرة تعليقاً لبعض محققي أهل السنة عند شرحه لهذا الحديث، وإليك نصّ التعليق:

إن الأحاديث الدالّة علىٰ كون الخلفاء اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، علم أن مراد رسول اللهﷺ من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا

١. صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢٤٨، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، دار المعرفة، بيروت.

٢. صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٥١ـ١٤٥٣، كتاب الإمارة، الباب الأوّل، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلّتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز وبكونهم غير بني هاشم، لأن النبيﷺ قال: كلهم من بني هاشم في رواية عبد الملك عن جابر، ولا يمكن أن يحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور، فلا بد أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلّهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً، وأكرمهم عند الله، وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدّهم بالوارثة واللدنية، ويؤيد هذا المعنىٰ أي أن مراد النبي الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته ويشهده ويرجّحه حديث الثقلين والأحاديث المتكثرة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها.[1]

٤. قال الفضل بن روزبهان الأشعري بعد الإشارة إلى صحة أسانيد أحاديث الاثني عشر خليفة:

> وأما حمله على الأئمة الاثني عشر، فإنْ أُريد بالخلافة وراثة العلم والمعرفةوإيضاح الحجة والقيام بإتمام منصب النبوة، فلا مانع من الصحة ويجوزهذا الحمل، وإن أُريد به الزعامة الكبرىٰ، فهذا الأمر لا يصحّ لأن من اثنيعشر، اثنين كانا صاحبا الزعامة الكبرىٰ، وهما: علي وحسن، والباقون لميتصدوا للزعامة الكبرىٰ، ولو قال الخصم: إنهم كانوا خلفاء ولكن منعهمالناسعن حقهم، قلنا: سلّمت أنهم لم يكونوا خلفاء بالفعل بل بالقوةوالاستحقاق، والظاهر أن مراد الحديث أن يكونوا خلفاء قائمين بالزعامةوالولاية وإلّا فما الفائدة في خلافتهم في إقامة الدين، وهذا ظاهر.[2]

وليس المراد من إقامة الدين وعزته في أحاديث الاثني عشر خليفة هو إجراء أحكام الإسلام في العالم بأسره لأن ذلك لم يتحقق حتى الآن. نعم سيتحقق عند ظهور المهدي الموعود (عج)، بل المراد أن الإمام في الدين الإسلامي أسوة وقدوة للبشر، وقوله وفعله حجّة على الجميع لتنزّهه عن أي عيب أو نقص، فعزّة الدين واقتداره ترتبطان ـ قبل كل شيء ـ بأصوله ومبانيه وبقيادة حكيمة واعية تمسك بزمامه.

---

١. ينابيع المودة، ص ٤٤٦، بصيرتي، قم.
٢. دلائل الصدق، ج ٢، ص ٤٨٧، نقلاً عن كتاب إبطال الباطل للفضل بن روزبهان.

وعلىٰ أية حال، فأحاديث الاثني عشر خليفة فيها إشارة إلىٰ أن الإسلام سيظل يتمتع بالعزة والاقتدار حتىٰ قيام الساعة.

٨. حديث نقباء بني إسرائيل

والحديث الآخر الذي يمكن أن يكون بياناً لحديث الاثني عشر خليفة، هو الحديث المروي في مسند أحمد بن حنبل، فعن مسروق قال:

> كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يُقرؤنا القرآن، فقال له رجل: يا أباعبد الرحمن هل سألتم رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله بن مسعود: ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثم قال:نعم، ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال: اثنا عشر كعدّة نقباء بني إسرائيل.[1]

ومفاد هذا الحديث أن خلفاء النبي ﷺ اثنا عشر شخصاً، وأن خلافتهم منصوص عليها، ذلك لأن نقباء بني إسرائيل قد اختيروا من قِبَل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.[2]

(مع أن سؤال الصحابة للنبي ﷺ إنما هو عن خلفائه لا بتأمير الناس أو بالتغلب، إذ لا يهمّ الصحابة السؤال عن ذلك، لأن تأمير الناس وتغلّب السلاطين لا يبتنىٰ عادة على الدين حتىٰ يهمّ الصحابة السؤال عنه، ولأن السلاطين بلا نصّ لا يحتاج إلى السؤال عنهم وعن عددهم، لأن العادة جرت علىٰ وجود مثلهم، وانهم لا ينحصرون بعدد، فظهر أن السؤال إنما هو عن الخلفاء بالنصّ، وعنهم أجاب النبي ﷺ ولا قائل بأن الخلفاء اثنا عشر بالنصّ غير أئمتنا عليهم السلام، فيكونوا هم المراد بالاثني عشر في هذا الحديث).[3]

٩. حديث الثقلين

تناولنا فيما سبق هذا الموضوع في مبحث مصادر الشيعة، وذكرنا هناك أن حديث الثقلين يدلّ علىٰ عصمة أهل البيت عليهم السلام وعلىٰ مرجعيتهم العلمية أيضاً، ونضيف هنا أن ثمة شواهد في هذا الحديث تدلّ علىٰ قيادتهم السياسية عليهم السلام، منها ورود تعبير

---

١. مسند أحمد، ج ١، ص ٣٩٨ـ٤٠٦؛ ينابيع المودة، ص ٤٤٥

٢. المائدة، ١٢

٣. محمد حسن المظفر، دلائل الصدق، ج ٢، ص ٤٨٩

(خليفتين) في بعض طرقه: «إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»،[١] ومنها إخبار النبيﷺ في مستهل هذا الحديث عن قُرب أجله، قائلاً: «يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب»، ومن الواضح بمكان أن القائد إذا أخبر عن قرب موته وأوصى الناس باتباع شخص أو أشخاص فإن مراده من ذلك القيادة السياسية للمجتمع.

وإذا تجاوزنا ذلك، فإن من موارد صدور هذا الحديث عن النبيﷺ ـ وفق ما نقله مسلم ـ هو غدير خمّ، حيث جاءت فيه عبارة (مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه) التي قالها النبيﷺ في غدير خمّ، وهذا يعني أن النبيﷺ قد بيّن في غديرخمّ أمرين في غاية الأهمّية، هما: إمامة عليﷺ بصورة خاصة، وإمامة أئمة أهل البيتﷺ بصورة عامة.

«ومهما يكن، فقد ظهر مما تقدّم، دلالة الحديث على أن الإمامة في العترة الطاهرة لا علىٰ مجرد الوصية بأخذ العلم منهم، ولو سلم فمن الواضح دلالة الحديث علىٰ وجوب أخذ العلم منهم وعدم جواز مخالفتهم كالقرآن، وحينئذ فيجب اتباع قولهم في الإمامة، وفي صحة إمامة شخص وعدمها، لأنّه من أخذ العلم منهم. ومن المعلوم أنهم خالفوا الخلفاء الأمويين والعباسيين وأكدوا على أحقيتهم بهذا الأمر.[٢]

---

١. مسند أحمد، ج ٥، ص ١٢٢

٢. دلائل الصدق، ج ٢، ص ٤٧٧

٤
المهدوية في الإسلام

الإيمان بالمهدي الموعود (عج)

يعتبر الإيمان بالمهدي الموعود (عج) من جملة الاعتقادات المسلّم بها عند جميع المذاهب الإسلامية، ومنشأ ذلك هو الأحاديث المتواترة الصادرة عن النبي في هذا الشأن، ومفادها ظهور رجل من آل محمد ﷺ في آخر الزمان وقبل قيام الساعة، يُلقّب بالمهدي، يرفع لواء الإسلام في ربوع العالم، ويحكّم قوانينه العادلة، فـ «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً».

واستناداً للأبحاث التي قام بها بعض المحققين، فإن الأحاديث المتعلّقة بالمهدي الموعود وردت في أكثر من ستين مصدراً من مصادر أهل السنة لا سيما الصحاح الستة، كما وردت في أكثر من تسعين مصدراً شيعياً لاسيما الكتب الأربعة.[١]

ولأهمّية هذا الموضوع عند المسلمين، فقد أفرد له الكثير من المؤلّفين كتباً مستقلة، ويُعدّ محمد بن إسحاق بن إبراهيم الكوفي (المتوفّىٰ ٢٧٥١ هـ) أوّل من ألّف فيه كتاباً، سمّاه صاحب الزمان.[٢]

وقد بلغت أحاديث المهدي المنتظر من الاعتبار درجة، بحيث دعت ابن تيمية وأتباعه ـ الذين كثيراً ما يثيرون الشكوك حول عقائد الشيعة ـ إلى الإذعان بصحتها،

---

١. للاطلاع أكثر، راجع: آية الله الصافي، منتخب الأثر.
٢. ابن النديم، فهرست، ص ٢٢٣

فابن تيمية بالاستناد إلىٰ صحيح الترمذي ومسند أحمد وسنن أبي داود يعتبر أحاديث المهدي صحيحة سنداً.[١] ومما يثير العجب أن ابن خلدون ـ مع هذا كلّه ـ قد ناقش هذه الأحاديث قائلاً: الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي لم يخلص منها من النقد إلّا القليل.[٢]

وقد فنّد المحققون من كلا الفريقين رأي ابن خلدون هذا، وأثبتوا وهنه، يقول الدكتور عبد الباقي وهو من محقّقي أهل السنة المعاصرين بشأن أحاديث المهدي: إنها مجموعة من الأحاديث والآثار تبلغ الثمانين تقريباً، اجتمع علىٰ تناقلها مئات الرواة، وأكثر من صاحب كتاب صحيح. فلماذا نردّ كل هذه الكمية؟ أكلّها فاسدة؟ لو صح هذا لانهار الدين ـ والعياذ بالله ـ نتيجة تطرّق الشك والطعن الفاسد إلى ما عداها من سنة رسول الله ﷺ. وأضاف: إنّ كثيراً من السلف لم يعارضوا هذا المنقول، بل جاءت شروحهم وتقريراتهم موافقة لإثبات هذه العقيدة عند المسلمين.[٣]

وعلى الرغم من المناقشات والتشكيكات الكثيرة التي أثارها ابن خلدون، فإنه أذعن بصحة بعض تلك الأحاديث، ومن البديهي أنّه إذا وُجد حديث معتبر واحد بشأن هذه العقيدة، فإنه لا يُمكن طرحها جانباً، بل ينبغي قبولها واعتبار الأحاديث المتواترة الأُخرى ـ مهما كانت أسانيدها معلولة ـ كمؤيّد لها.

وأعجب من كلام ابن خلدون، ما صرح به أحمد أمين الذي لم يكتف فقط بالتردّد في صحة أحاديث المهدي، بل زعم أنها من تخيّلات الشيعة، ذلك أنهم ـ حسب زعمه ـ اختلقوا أحاديث في فضائل علي والمهدي المنتظر كردّ فعل لما قام به بني أمية الذين وضعوا أحاديث في فضائل الصحابة ـ ما عدا علياً ـ وخاصة عثمان، وحيث أن أسانيد هذه الروايات كانت مقبولة عند علماء الإسلام، فإنهم قبلوا أيضاً هذه الأحاديث المختلقة.

ويردّ عليه، أوّلاً: إن فضائل الإمام علي عليه السلام لا تختصّ بالشيعة، لأن جلّ فضائله عليه السلام

---

١. أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامة، ص ٤٠٤ـ٤٠٥

٢. مقدمة ابن خلدون، ص ٣١١ـ٣٢٢

٣. بين يدي الساعة، ص ١٢٣ـ١٢٥

التي رويت في كتب الشيعة وردت في كتب أهل السنة أيضاً، فأيّ حاجة يدعو الشيعة إذن إلىٰ أن يضعوا أحاديث في فضله ؟

ثانياً: مرّ الشيعة في عصر بني أمية وغيرهم في أسوء الظروف السياسية والاجتماعية، وكانوا لا يجرأون أن يرووا فضائل الإمامعليه السلام الثابتة، فكيف يُتاح لهم وضع أحاديث في فضلهعليه السلام كردّ فعل لبني أمية؟!

ثالثاً: كيف يمكن لجمع غفير من محدثي ومؤلفي أهل السنّة قبول أحاديث المهدي الموضوعة من قبل الشيعة، مع أن التشيّع عندهم من أسباب القدح في رواة الحديث؟![1]

نسب المهدي الموعود (عج)

وردت أحاديث كثيرة في نسب المهدي المنتظر، تمّ التأكيد فيها على النكات التالية:

١. المهدي من الأمة الإسلامية، هذا الأمر إضافة إلىٰ أنّه ورد بصورة خاصة في بعض الأحاديث، فإن الروايات التي وردت بشأن نسبهعليه السلام تثبت بنحو لا يبقىٰ معه مجال للشك في أن المهدي الموعود من الأمة الإسلامية. نعم ثمّة رواية واحدة فقط تقول: «لا مهدي إلّا عيسى بن مريم»، وهي في نظر المحدّثين والمحقّقين إما مُختلقة أو غير معتبرة في معارضة الروايات المتواترة أو أن يُصار إلىٰ تأويلها، وقالوا إن المراد بها هو المبالغة في هداية المسيحعليه السلام، نظير حديث «لا صلاة لجار المسجد إلّا في المسجد» الدالّ على كمال الصلاة وأفضليتها لا علىٰ بطلان الصلاة في غير المسجد.[2]

٢. المهدي (عج) من عترة النبيصلى الله عليه وآله (٣٣٩ رواية).

٣. المهدي (عج) من أبناء عليعليه السلام (٢١٤ رواية).

٤. المهدي (عج) من أبناء فاطمةعليها السلام (١٩٢ رواية).

٥. المهدي (عج) التاسع من ذرّية الحسينعليه السلام (١٤٨ رواية).

٦. المهدي (عج) من أبناء الإمام الحسن العسكريعليه السلام (١٤٦ رواية).

يُذكر أنه لا خلاف بين الفريقين في كون المهدي الموعود (عج) من ذرية علي

---

١. انظر: أعيان الشيعة، ج ١، ص ٥٥.

٢. صدر الدين الصدر، المهدي، ص ٤٦

وفاطمةعليهما السلام. أما كونه من ذرية الحسنعليه السلام أو من ذرية الحسينعليه السلام ففيه قولان: الأوّل: أنّه من ذرية الحسينعليه السلام، وهو ما أجمع عليه الشيعة واشتهر لدىٰ أهل السنة، الثاني: أنّه من ذرية الحسن المجتبىٰعليه السلام.

وجاء في بعض الروايات أن المهدي من ذرية الحسن والحسين عليهما السلام، ويمكن توجيه ذلك بأن نسبه ينتهي من جانب الأب إلى الحسينعليه السلام، ومن جانب الأم إلى الحسنعليه السلام، لأن أم الإمام محمد الباقرعليه السلام هي فاطمة بنت الإمام الحسنعليه السلام، وعلىٰ ذلك ينتهي نسب الإمام الباقر وسائر الأئمةعليهم السلام من بعده إلى الحسينعليه السلام من جانب الأب، وإلى الحسنعليه السلام من جانب الأم، فالمهدي إذن ـ بهذا التوجيه ـ حسيني وحسني أيضاً.

أما الرواية الدالة على ان نسبه (عج) ينتهي إلى الحسن عليه السلام فلا يصح الاستناد إليها، لأُمور:

الأوّل: اختلاف النقل عن أبي داود، وقد نقلها صاحب عقد الدرر عن سنن أبي داود، وفيها أن علياً نظر إلىٰ ابنه الحسينعليه السلام.

الثاني: أن جماعة من الحفّاظ كالترمذي والنسائي والبيهقي نقلوا هذه القصة بعينها، وفيها أن علياً نظر إلىٰ ابنه الحسين.

الثالث: احتمال التصحيف فيها، فإن لفظ الحسن والحسين متشابه في الكتابة، واحتمال وقوع التصحيف فيهما قريب جداً.

الرابع: أنها مخالفة للمشهور عند علمائهم كما نص عليه بعضهم.

الخامس: أنها معارضة بأخبار كثيرة أصحّ سنداً وأظهر دلالة.[1]

ولادة المهدي المنتظر (عج) وحياته

المهدي (عج) هو الإمام الثاني عشر عند الشيعة الإمامية، ولد في سامراء ليلة النصف من شعبان عام (٢٥٥ هـ)،[2] وعاش في كنف أبيه الإمام الحسن العسكريعليه السلام مدة خمس سنوات، ثم غاب عن الأنظار بعد استشهاد أبيه عام (٢٦٠ هـ)، واستمرت غيبته ـ التي

١. المهدي، ص ٦٦ـ٦٨

٢. كان الإمام بعد أبي محمدعليه السلام ابنه المسمىٰ باسم رسول اللهصلى الله عليه وآله المكنىٰ بكنيته، ولم يخلف أبوه ولداً ظاهراً ولا باطناً غيره، وكان مولدهعليه السلام ليلة النصف من شعبان عام (٢٥٥ هـ).

أُطلق عليها اسم الغيبة الصغرىٰ ـ إلى عام (٣٢٩ هـ)، كان الشيعة يرجعون خلالها إلى نوّابه الأربعة الذين عيّنهم (عج) في هذه الفترة، ثم بدأت غيبته الكبرىٰ التي أخذ فيها الشيعة يرجعون في أُمورهم إلى الفقهاء العدول،[١] وعلى ضوء ذلك فالإمام المهدي (عج) قد وُلد، وهو لا يزال حيّاً وغائباً عن الأنظار.

ثم ان الاعتقاد بولادة المهدي لا يختصّ بالشيعة فقط، بل اختاره أيضاً عدد كبير من علماء أهل السنة، نظير:

ابن حجر الهيتمي الشافعي في كتاب الصواعق المحرقة، والسيد جمال الدين في كتاب روضة الأحباب، وابن الصباغ المالكي في كتاب الفصول المهمة، وسبط ابن الجوزي في كتاب تذكرة الخواص، وعبد الرحمن الجامي الحنفي في كتاب شواهد النبوة، والحافظ أبي عبد الله الكنجي الشافعي في كتابيه البيان في أخبار صاحب الزمان وكفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، وأبي‌بكر البيهقي في كتاب شُعب الإيمان، وكمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في كتاب مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، والحافظ أبي محمد البلاذري في كتاب الحديث المتسلسل، وأبي محمد عبد الله بن الخشاب في كتاب تاريخ مواليد الأئمة ووفياتهم، والشيخ محيي الدين بن العربي في كتاب الفتوحات المكية، والشيخ عبد الوهاب الشعراني فصل الخطاب، والحافظ أبي الفتح محمد بن أبي الفوارس في كتاب الأربعون، وعبد الحق الدهلوي في رسالة مناقب وأحوال الأئمة، والحافظ سليمان القندوزي الحنفي في كتاب ينابيع المودة، وعبد الله بن محمد المطيري في كتاب الرياض الزاهرة، وأبي المعالي سراج الدين الرفاعي في كتاب صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار، والمؤرخ المعروف محمد بن خاوندشاه في كتاب روضة الصفا، وغيرهم، وقد ذكرت أسماء ما يربو علىٰ ستين شخصاً منهم في كتاب منتخب الأثر.[٢]

نعم، ثمة قول مشهور لدىٰ علماء السنة يذهب إلى أن المهدي لم يولد بعد، وسيولد في آخر الزمان وقبل قيام الساعة، إلّا أن الشيعة اعتقدت بمولده وحياته وفقاً لأدلة عقلية ونقلية.

١. سيأتيك البحث حول الغيبة الكبرى والنيابة العامة لفقهاء الشيعة بعد قليل.
٢. منتخب الأثر، ص ٣٢٢ـ ٣٤٠

أدلة وجود صاحب الزمان (عج)

قامت الأدلة العقلية علىٰ وجوب وجود إمام معصوم في كل زمان ومكان، ومفادها: ضرورة وجود حجّة إلٰهية بالغة بين البشر، والإمام المعصوم يعتبر مصداقاً تاماً لها، وهو مقتضىٰ قاعدة اللطف التي تعدّ من القواعد الكلامية والعقلية. أما غيبة الإمام فهي أمر ثانوي عارض، لا ينافي الأمر الأصلي الأولي، وهو وجوب وجود الإمام، كما يقول المحقّق الطوسي: «وجوده لطف، وتصرّفه لطف آخر، وعدمه منّا».

وفي هذا الصدد يقول الإمام علي عليه السلام: «اللهم بلىٰ! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إمّا ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيّناته».[١]

٢. دلّت بعض الأحاديث كحديث الثقلين وحديث الاثني عشر خليفة علىٰ وجود إمام معصوم في كل زمان وحتىٰ قيام الساعة. وقد مرّ بيان ذلك في مبحث نصوص الإمامة.

٣. تثبت الأخبار والوثائق التاريخية أن الإمام (عج) قد وُلد في مكان وزمان معيّنين، والأسلوب المتّبع عادة لمعرفة مواليد الأشخاص ووفياتهم هو الاستناد إلى مثل هذا النوع من الوثائق، وقد ذكرنا فيما سبق أسماء عدد من محدثي أهل السنة ومؤرخيهم الذين نقلوا أخبار ولادة صاحب الزمان(عج).

٤. وثائق متعلقة بأشخاص رأوا المهدي (عج) في دار أبيه الإمام الحسن العسكري عليه السلام، يوم كان أبوه عليه السلام حيّاً.

٥. وثائق متعلقة بأشخاص رأوا الإمام المهدي في أيام غيبته الصغرىٰ، ويعدّ نوّابه الأربعة في طليعة هؤلاء. يُذكر أن النواب الأربعة كانوا من أكابر الشخصيات الشيعية، ومن نوادر زمانهم في التقوى والزهد والورع.

٦. وثائق مرتبطة بأشخاص رأوا الإمام (عج) في الغيبة الكبرىٰ. هذه الوثائق بلغت من الكثرة حدّاً، لا يُحتمل معه أن تكون مُختلقة أو خاطئة. فبالنسبة لأي موضوع تاريخي أو اجتماعي إذا بلغت فيه الأخبار والوثائق المنقولة عن أفراد مختلفين وفي أوقات وأماكن مختلفة، إذا بلغت هذا الحجم، فسوف يُحكم بصحته وقطعيته.

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧

فلسفة غيبة الإمام (عج)

إن مسألة الغيبة من المسائل المعروفة في تاريخ الأنبياء، فـقد اسـتدعت الظـروف ـ أحياناً ـ اعتزال وغيبة بعض الأنبياء عن أممهم وأقوامهم، ويمكن مطالعة سِيَر الأنبياء يونس وموسىٰ عليهما السلام ومحمد صلى الله عليه وآله باعتبارها نماذج لما ذكرناه.

فيونس عليه السلام غاب عن قومه مدة، وموسىٰ عليه السلام غاب أربعين ليلة قـضاها بـعيداً عـن قومه، ومحمد صلى الله عليه وآله ترك قومه عند هجرته من مكة إلى المدينة،[1] ولم تخدش كل هذه الموارد أصل نبوّتهم. ومن الواضح بمكان أنّ الغَيْبة إذا كانت تنافي النبوة أو الإمامة، فالأمر سواء، طالت مدّتها أو قصرت، ولذا لا ينبغي الاعتقاد بأن طول غيبة صاحب العصر (عج) لا يتلائم مع إمامته.

وإليك عدداً من الأحاديث التي رويت عن الأئمة المعصومين بشأن أسباب غيبة الإمام (عج) وفلسفتها:

١. غيبة الإمام من الأسرار الإلٰهية

ورد التأكيد في بعض الروايات علىٰ هذه النكتة، وهي أن فلسفة وحكمة الإمام المهدي لا تتضح بصورة كاملة حتىٰ ظهوره (عج)، ومقتضى الإيـمان هـو التسـليمُ بـوجوده لاسيما بعد إقامة البرهان علىٰ ذلك، وعدمُ التردد فيه نتيجة العجز عن إدراك فـلسفة الغيبة. روى الشيخ الصدوق عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «إن لصاحب هذا الأمر غيْبة لا بدّ منها يرتاب فيها كل مبطل، فـقلت له: ولِـمَ جعلت فداك؟ قال: لأمر لم يؤذن لنا في كشفه لكم، قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟ فقال: وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غيبات مَن تقدّمه من حجج الله تعالىٰ

---

١. كان النبي صلى الله عليه وآله في بداية بعثته مختفياً عن عامة الناس لمدة ثلاث سنوات، ولم يطلع علىٰ نبوته سوى الخواص، وهو صلى الله عليه وآله طيلة هذه المدة كان نبياً ويعيش بين الناس، بيد أنهم ما كانوا يعرفون أنّه نبيّ. وكذلك صاحب الزمان (عج) كان خليفة النبي صلى الله عليه وآله وإمام المسلمين في عصر الغيبة. وكان يعيش بينهم، ولكن لم يعرفه سوى الخواص من شيعته.وقد ورد في الروايات تشبيه غيبة صاحب الزمان(عج) بغيبة يونس وموسى عليهما السلام ومحمد صلى الله عليه وآله. راجع في هذا الصدد: الشيخ الصدوق، كمال الدين.

ذكره، إن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلّا بعد ظهوره كما لا ينكشف وجه الحكمة لما أتاه الخضرؑ من خرق السفينة، وقتل الغلام، واقامة الجدار، لموسىٰؑ إلّا وقت اختراقها. يا ابن الفضل إن هذا الأمر أمر من الله، وسرّ من سرّ الله، وغيب من غيب الله، ومتىٰ علمنا أنّه عزوجل حكيم صدّقنا بأن أفعاله كلها حكمة وأنّه كان وجهها غير منكشف لنا».[١]

٢. الخوف من القتل

ورد في روايات كثيرة أن أحد أسباب غيبة القائم (عج) هو الخوف من القتل،[٢] فعن زرارة عن الإمام الباقر، قال: إن للقائم غيبة قبل ظهوره، قلت: ولِمَ؟ قال: يخاف القتل.[٣]

إن الخوف من القتل له دافعان: أحدهما: رغبة الشخص في التمتع بالمزيد من اللذائذ الدنيوية، والموت هادم لها، فهو إذن أمر غير محبوب عنده، والآخر: هو أن يكون الشخص صاحب مسؤولية ثقيلة، تفرض عليه ـ من أجل أدائها ـ الحفاظ علىٰ حياته. ولا ريب في أن النوع الأوّل مذموم، والثاني ممدوح بل واجب، ومثاله لجوء النبيﷺ إلى غار حراء بغية الحفاظ علىٰ حياته، وهكذا الحال في شأن الإمام المنتظر (عج) فهو ـ بالاستناد إلى الأدلة العقلية والنقلية ـ آخر حُجّة إلٰهية في الأرض، وتقع علىٰ عاتقه مهمة صعبة، لابدّ من أدائها عند توفّر الظروف الملائمة، وهي تحكيم الإسلام، ورفع لواء التوحيد عالياً خفّاقاً علىٰ وجه البسيطة بإذن الله ومشيئته. هذه المهمة تمثل خطراً كبيراً علىٰ المصالح غير المشروعة للظالمين والمستبدين، وعلىٰ ذلك فهم لا يقفون مكتوفي الأيدي تجاه هذا المصلح الذي يُهدّد أطماعهم، بل سيكيدون له كيداً، ويحيكون له المؤامرات والدسائس بهدف تصفيته والتخلّص منه، من هنا بات وقوع الغيبة هو الأسلوب الأفضل للإبقاء عليه حياً.

قد يقال: أليس بالإمكان ـ من باب الإفتراض ـ أن يحافظ الله علىٰ وجوده (عج)

---

١. علل الشرائع، ص ٢٤٤، الباب ١٧٩

٢. راجع: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٩٠ـ٩٨.

٣. الشيخ الطوسي، الغَيْبة، ص ٢٠١

عن طريق المعجزة؟ وحينئذ لا يؤثر علىٰ جسمه أي سلاح أو سمّ قاتل، وبالتالي يبقىٰ الإمام ظاهراً حياً لا يتهدّده أي خطر، فينتفع الناس ببركاته.

والجواب: إن الاستعانة بالمعجزة لحفظ حياة الأفراد أمر نادر لا يقع إلّا في موارد خاصة، وقد اقتضت المشيئة الإلٰهية أن يمضي حجج الله حياة طبيعية بين الناس، وأن تجري القوانين المتحكمة بالكون في حقهم كسائر الناس إلّا في موارد نادرة، إذ لو لم يكن الأمر كذلك، لبطل قانون الابتلاء والاختيار الإلٰهي لأفراد البشر، ومن الواضح أن الإمام لو كان يحيا بتلك الخصوصيات التي ذُكرت في الافتراض المذكور، لآمن به الناس بشكل قهري وجبري، وفوق ذلك سيُعتبر في منزلة تسمو علىٰ منزلة البشر، وسيُعبد من دون الله. هذه بعض التبعات غير المحبّذة لهذا الافتراض، وفي هذا الصدد يقول الشيخ الطوسي:

«فإن قيل: هلا منع الله من قتله بما يحول بينه وبين مَن يريد قتله ؟

قلنا: المنع الذي لا ينافي التكليف هو النهي عن خلافه والأمر بوجوب اتباعه ونصرته والتزام الانقياد له، وكل ذلك فعله تعالىٰ، وأما الحيلولة بينهم وبينه، فإنه ينافي التكليف وينقض الغرض به، لأن الغرض بالتكليف استحقاق الثواب، والحيلولة ينافي ذلك. وربما كان في الحيلولة والمنع من قتله بالقهر مفسدة للخلق، فلا يحسن من الله فعلها.

إن قيل: أليس آباؤه عليهم السلام كانوا ظاهرين ولم يخافوا ولا صاروا بحيث لا يصل إليهم أحد؟

قلنا: أوّلاً: آباؤه عليهم السلام حالهم بخلاف حاله لأنه كان المعلوم من حال آبائه لسلاطين الوقت وغيرهم أنهم لا يرون الخروج عليهم ولا يعتقدون أنهم يقومون بالسيف، ويزيلون الدول، بل كان المعلوم من حالهم أنهم ينتظرون مهدياً لهم، وليس يضرّ السلطان اعتقاد من يعتقد إمامتهم إذا آمنوهم علىٰ مملكتهم، وليس كذلك صاحب الزمان (عج) لأن المعلوم منه أنّه يقوم بالسيف ويزيل الدول ويقهر كل سلطان ويبسط العدل ويميت الجور، فمن هذه صفته يُخاف جانبه ويُتقىٰ فورته، فيُتتبّع ويُرصد وتوضع العيون عليه، ويُعنىٰ به خوفاً من وثبته وريبة من تمكّنه، فيُخاف حينئذ ويحوج إلى التحرز والاستظهار بأن يخفىٰ شخصه عن كل من لا يأمنه من ولي وعدو إلىٰ وقت خروجه.

ثانياً: فآباؤه إنما ظهروا لأنه كان المعلوم أنه لو حدث بأحدهم حادث لكان هناك

من يقوم مقامه ويسدّ مسدّه من أولاده، وليس كذلك صاحب الزمان (عج) لأن المعلوم أنه ليس بعده من يقوم مقامه بعد حضور وقت قيامه بالسيف، فلذلك وجب استتاره وغيبته».[١]

٣. امتحان المؤمنين

من السنن الإلٰهية في حقّ المؤمنين هي تعرّضهم لأنواع الامتحانات، نظير ابتلائهم بأنواع الشدائد والمحن، يقول تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.[٢]

وقد ذكرت روايات عديدة أن من أسباب أو فلسفة غيبة القائم (عج) هو امتحان المؤمنين، وقد نقل كتاب منتخب الأثر ما يربو علىٰ (٢٤) حديثاً في هذا المجال، وجاء في إحدىٰ هذه الروايات:

كنا عند أبي عبد الله ﷺ جماعة فتحدثنا فالتفت إلينا، فقال: «في أي شيء أنتم؟ أيهات أيهات، لا والله لا يكون ما تمدون إليه اعينكم حتى تغربلوا، لا والله لا يكون ما تمدّون إليه أعينكم حتىٰ تميزوا، لا والله لا يكون ما تمدّون إليه أعينكم إلّا بعد أياس، لا والله لا يكون ما تمدّون إليه أعينكم حتىٰ يشقىٰ من شقي ويسعد من سعد».[٣]

يقول الشيخ الطوسي في هذا الصدد: «وأما ما روي من الأخبار من امتحان الشيعة في حال الغيبة وصعوبة الأمر عليهم واختبارهم للصبر عليهم، فالوجه فيها الإخبار عما يتفق من ذلك من الصعوبة والمشاق لا أن الله تعالىٰ غيّب الإمام ليكون ذلك، وكيف يريد الله ذلك، وما ينال المؤمنين من جهة الظالمين ظلم منهم لهم ومعصية، والله تعالى لا يريد ذلك بل سبب الغيبة هو الخوف، وأخبروا بما يتفق في هذه الحال وما للمؤمن من الثواب على الصبر علىٰ ذلك، والتمسك بدينه إلىٰ أن يفرّج الله تعالىٰ عنهم».[٤]

٤. كيفية الغيبة

طرحت فرضيتان بشأن كيفية غيبة صاحب العصر والزمان (عج): الفرضية الأُولى: إن الإمام (عج) غائب عن الأنظار حقيقة أو يعيش في نقطة غير مأهولة بالسكّان، بعيداً

١. المصدر السابق، ص ٢٠٠ ٢. العنكبوت، ٢، ٣ ٣. الغيبة، ص ٢٠٣، ٢٠٤
٤. المصدر السابق، ٢١٣

عن البشر، أو يعيش بين أبناء البشر دون أن تقع عليه أنظارهم بإعجاز إلٰهي.

والفرضية الثانية: إن الإمام يعيش بينهم وتقع عليه أنظارهم ولكن لا يعرفونه. وقد وردت أحاديث عن كيفية الغيبة تنسجم مع كلتا الفرضيتين. روى الشيخ الصدوق عن الريّان بن الصلت عن الإمام الرضاؑ أنّه قال عن القائم (عج): لا يُرىٰ جسمه ولا يُسمىٰ باسمه».[1]

وروىٰ في حديث آخر عن عبيدة بن زرارة أنه قال: سمعت أبا عبداللهؑ يقول: «يفقد الناس إمامهم فيشهد الموسم فيراهم ولا يرونه».[2]

وروىٰ في حديث آخر عن الصادقؑ أنه قال: «الخامس من ولد السابع يُغيّب عنكم شخصه ولا يحلّ لكم تسميته».[3]

ويذهب أتباع هذه الفرضية إلىٰ أن المصلحة تقتضي أحياناً ملاقاة الإمام، فالأخبار المتعلقة برؤية الإمام من قبل الذين تشرّفوا بلقائه لا تنافي الفرضية المذكورة.

وإليك نماذج من الروايات المؤيدة للفرضية الثانية:

١. روى الشيخ الطوسي عن محمدبن عثمان العمري ـ ثاني نائب خاص للقائم (عج) ـ أنّه قال: «والله إن صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنة يرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه».[4]

٢. وعن علي بن صدقة، قال: خرج إليّ محمد بن عثمان العمري ابتداءً من غير مسألة ليخبر الذين يسألون عن الاسم: أما السكوت والجنة، وأما الكلام والنار، فإنهم إن وقفوا على الاسم أذاعوه، وإن وقفوا على المكان دلّوا عليه.[5] ومن الواضح أن الوقوف على اسم الإمام ـ فيما لو كان غائباً ـ لا يوجب معرفته.

٣. قيل لأبي سهل النوبختي: كيف صار هذا الأمر إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح دونك؟ فقال: هم أعلم وما اختاروه، ولكن أنا رجل ألقى الخصوم وأُناظرهم، ولو علمتُ بمكانه كما علم أبو القاسم وضغطتني الحجة على مكانه لعلي كنت أدلّ علىٰ

١. كمال الدين، ص ٦٤٨ ٢. المصدر السابق، ص ٣٤٦
٣. المصدر السابق، ص ٣٣٣، ٣٣٨ ٤. الغيبة، ص ٢٢١
٥. المصدر السابق، ص ٢١٩، ٢٢٢

مكانه، وأبو القاسم فلو كانت الحجة تحت ذيله وقرض بالمقاريض ما كشف الذيل عنه.[١]

ويبدو واضحاً أن إعلام الأعداء بمكان الإمام إنما يكون خطراً يهدّده، إذا كان الإمام (عج) يُرىٰ.

ويمكن القول إن الفرضيتين المذكورتين حول كيفية غيبة إمام العصر (عج) مقبولتان، دون أن يكون هناك أي تنافٍ في البيْن ذلك أن مسألة رؤية الاشخاص للإمام وعدم معرفتهم به، أو عدم رؤيته لهم إنما ترتبط بظروف هؤلاء الأشخاص ومصالحهم، ولا يمكن وضع قاعدة عامة في هذا الصدد. والإمام (عج) يعمل وفق المصلحة التي يراها.

الآثار الوجودية للإمام الغائب

من الشبهات التي يثيرها منكرو وجود إمام العصر (عج) هي: ما فائدة وجود إمام غائب عن الأنظار؟ ذلك أن هداية الناس وإمامتهم مرهونتان بوجود إمام حاضر في أوساطهم، ليُتاح لهم الاتصال به.

وللإجابة عن هذه الشبهة نقول:

أوّلاً: لا ملازمة بين غيبة الإمام وعدم البتّ في أمور شيعته، فالقرآن الكريم يشير إلىٰ قصة انتفاع البشر بوليّ من أوليائه بواسطة موسىٰ؛ فليس هناك ما يمنع من اتصال إمام العصر (عج) ـ وبطرق خاصة ـ بأشخاص، فينتفعوا به وبإرشاداته.

ثانياً: إن انتفاع شيعة الإمام بوجوده ليس رهن اتصالهم به جميعاً، بل يتحقق هذا الانتفاع أيضاً فيما إذا اتصل به أشخاصٌ ذوو مؤهلات خاصة، وبواسطتهم ينتفع الناس بالإمام، كما في الوثائق التي تؤكد تشرّف روّاد الشيعة بلقاء الإمام (عج).

ثالثاً: إن قيادة النبي أو الإمام ـ علىٰ فرض حضوره ـ للناس لم تكن بلا واسطة دائماً، بل كانت تتم في كثير من الموارد عن طريق الوكلاء والممثّلين، وكان للأئمة المعصومين في عصر الحضور وكلاء في أصقاع مختلفة من البلاد الإسلامية، تقع علىٰ عاتقهم مسؤولية هداية الناس، وكان هذا الأسلوب رائجاً بين البشر علىٰ طول التاريخ،

---

١. المصدر السابق، ص ٢٤٠

وعلىٰ هذا الأساس تولىٰ إمام العصر (عج) قيادة الناس عبر سفرائه الأربعة (النيابة الخاصة) في زمن الغيبة الصغرىٰ، وعبر الفقهاء العدول (النيابة العامة) في زمن الغيبة الكبرىٰ.

رابعاً: وجود الإمام المعصوم ـ عند الشيعة ـ من مصاديق اللطف، واللطف يدفع بالإنسان نحو الطاعة والعبادة، والابتعاد عن الذنب والمعصية، ولاشك في أن الاعتقاد بوجود إمام معصوم حاضر بين أفراد البشر لا يرونه ولا يعرفونه، ولكن (عج) يراهم ويعرفهم ويطّلع علىٰ أعمالهم الحسنة أو السيئة، ان الاعتقاد بذلك وبتوقّع ظهوره في أية لحظة له دور أساسي في هداية الإنسان وتربيته.

خامساً: تقدّم في مبحث حقيقة الإمامة وأبعادها أن من تلك الأبعاد هو بعد الهداية الباطنية التي تجتذب قلوب المشتاقين، وتوصلهم إلىٰ كمالهم المطلوب، ومن الواضح أن هذا التأثير غير متعلق بالاتصال الجسماني بالإمام.

وبأخذ ما تقدّم بنظر الاعتبار، يتّضح لنا وجه تشبيه إمام العصر (عج) في غيبته بالانتفاع بالشمس إذا غيّبتها السحاب عن الأبصار.[1] ذلك أنّه على الرغم من عدم انتفاع الإنسان بنور الشمس وحرارتها إذا جلّلتها السُّحب بشكل تام إلّا أن هذا لا يعني عدم الانتفاع بها كلّياً، وهكذا الحال في عدم الانتفاع التام ببركات وجود إمام العصر (عج) نتيجة عدم توفّر الشروط والاستعدادات لدى البشر، وأمّا من جهة الفعل الإلٰهي أو من جهة الإمام (عج)، فليس هناك أي نقص أو قصور.[2]

ما ذكرناه كان يتعلق بالآثار التشريعية والتربوية لوجود صاحب الزمان (عج)، وأما من حيث الآثار التكوينية، فإن فلسفة الخلق هي في وجود حجة إلٰهية، إذ لا تخلو الأرض من حجة، ولو خلت لساخت بمن عليها كما ورد في الروايات.[3] من هنا يمكن الوقوف علىٰ مغزىٰ معاني العبارات الواردة في بعض الأدعية، نظير (بيُمنه رُزق الورىٰ وبوجوده ثبتت الأرض والسماء).

---

١. انظر: كمال الدين وتمام النعمة، الباب ٤٥، ح ٤.
٢. انظر: السيد المرتضىٰ، الرسائل، ج ٢، ص ٢٩٧، ٢٩٨.
٣. انظر: أُصول الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب أن الحجة لا تقوم لله علىٰ خلقه إلّا بإمام.

مسألة طول عمر إمام العصر(عج)

ثمّة شبهة تُثار حول طول عمر صاحب الزمان (عج)، وهي: اقتضت القوانين الجارية أن يكون عمر الإنسان محدوداً، إذ قلّما تصل الأعمار إلىٰ أكثر من مائة عام، وعلىٰ أية حال، لم يكتب لأحد عمرٌ أبدي.[١]

هذه الشبهة واهية ولا أساس لها من الصحة، لأسباب، منها:

أوّلاً: إن العمر الطويل ممكن عقلاً، كما أن قدرة الله غير متناهية، وانطلاقاً من ذلك، فليس هناك أي محذور عقلي في طول عمر صاحب الزمان (عج).

ثانياً: إذا ما تصفحنا التاريخ، لوجدنا فيه أشخاصاً كثيرين عاشوا عمراً طويلاً، ونُعتوا بـ(المعمّرين). يُذكر أن القرآن الكريم أشار إلىٰ لبث نوح في قومه مدة (٩٥٠) عاماً ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.[٢] وهذا يُعرب عن أن هذه الفترة الزمنية كانت مدة نبوّته لا مدة حياته.

وجاء في كتاب المعارف لابن قتيبة أنّ آدمﷺ عمّر ألف عام، وشيث بن آدم (٩١٢) عاماً، ولقمان بن عاد (٣٥٠٠) عام وفي قولٍ آخر (٧٠٠٠) عام.[٣] وعمّر شداد ـ حسب قول ابن خلدون ـ (٩٠٠) عام، قضىٰ (٣٠٠) عام منها في تشييد مدينة إرم وسط مفازة عدن.[٤]

ثالثاً: يعتقد المسلمون أن الخضر كان حياً في زمن موسىٰﷺ ولم يزل حياً، وسيبقىٰ إلى ما قبل يوم القيامة،[٥] كما هو شأن عيسىﷺ. وقد صرّحت الروايات المعتبرة بأن عيسىٰﷺ سينزل من السماء في وقت ظهور المهدي (عج) ويقتدي به.[٦]

رابعاً: اثبتت التجارب العلمية ان الإنسان قادر علىٰ ان يعمرّ طويلا فيما إذا توفرت له ظروف وامكانات مناسبة ذلك ان منشأ تدني الاعمار ـ حسب النظرة العلمية ـ ليس هو قصور الاقتضاء بل هو اضطراب الأسباب والعوامل المؤثرة على استقرار الحياة

١. أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ٤، ص ١١٧، ١١٨.
٢. العنكبوت، ١٤
٣. انظر الفصول العشرة في الغيبة للشيخ المفيد، الفصل السادس (المجلد الثالث من مصنفات الشيخ المفيد). ولمزيد من الاطلاع على المعمّرين، راجع: الشيخ الصدوق، كمال الدين.
٤. انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ١٤.
٥. ابن حجر، الإصابة، ج ٢، ص ٢٩٣، ٢٩٤
٦. سنن ابن ماجة، ج ٢، كتاب الفتن، الباب ٣٣؛ السيد صدر الدين الصدر، المهدي، ٢٢٧، ٢٢٨

البشرية وعلىٰ هذا الأساس فاطالة العمر يتم عبر رعاية المقررات الصحية وتوفير ظروف مناسبة للحياة والابتعاد عن كل ما يخل باستقرارها.[١]

وعلىٰ ضوء ذلك، فمسألة طول عمر صاحب الزمان (عج) يمكن قبولها وتفسيرها من الناحية العقلية والدينية والتاريخية والعلمية، ولا يجدر بالمحقق المنصف التشكيك في هذه المسألة.

وقت الظهور وعلاماته

لا يُعلم علىٰ وجه التحديد وقت ظهور الإمام المنتظر (عج)، وقد ورد في الروايات النهي عن التوقيت والتأكيد علىٰ كذب مدّعي ذلك، فعن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كذب الوقاتون، إنّا أهل بيت لا نوقّت، أبىٰ الله إلّا أن يخلف وقت الموقّتين».[٢]

وعلى الرغم من أن وقت ظهور المهدي (عج) غير معلوم، إلّا أن ثمة علامات أشارت إليها الروايات تحدث قبل ظهوره، منها ما هو حتمي الوقوع، ومنها ما هو غير حتميّ، أي أن بعض العلامات حتميّ الوقوع ولوقوعها سيتحقق ظهور المهدي الموعود، وبعضها الآخر ليس حتميّ الوقوع، فقد يحصل البداء في تحققها، وعلىٰ فرض تحققها، فليس من الحتمي تحقق ظهور المهدي. وإنما هي مجرد وقائع ستحقق قبل الظهور.[٣]

ويتضح مما تقدم أن الحديث في هذا الموضوع ليس هيّناً، بل هو بحاجة إلى اطلاع واسع ومهارة خاصة في معرفة العلامات الحتمية من غيرها.

ومن الحوادث المهمة التي تسبق ظهور المهدي (عج):

تفشي الظلم والجور، شيوع النفاق والنزاع في المجتمعات البشرية، وقوع الخسوف

---

١. راجع: مجلة المقتطف، العدد الثالث، لسنة ٥٩.
٢. محمد إبراهيم النعماني، الغيبة، الباب ١٦، ح ١٢، وورد هذا المضمون في روايات متعددة.
٣. المهدي، ص ١٩٣

والكسوف في زمن لا يُتوقع فيه حدوث مثل ذلك، خروج السفياني والدجّال، قتل ذي النفس الزكية، وسماع صيحة من السماء تبشّر بظهور المهدي.

وقد صرحت بعض الروايات بحتميّة وقوع بعض تلك العلامات، ومن الواضح أن معرفة أي العلامات حتمية وأيها غير حتمية، يحتاج إلى اطلاع واسع ودقة نظر.[1]

---

١. انظر: غيبة النعماني، الباب ١٨؛ الصدوق، كمال الدين، الباب ٥٧؛ المهدي، الفصل السابع؛ بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٥؛ منتخب الأثر، ص ٤٢٤ ـ ٤٦٢.

٥

الشيعة والرجعة

يعد الاعتقاد بالرجعة من الاعتقادات الخاصة بالشيعة الإمامية، وتعني الاعتقاد بعودة فئة من أولياء الله ومحبي آل البيتعليهم السلام وزمرة من أعدائهم وخصومهم إلى الحياة الدنيا عند ظهور المهدي الموعود (عج) وسيادة حكومة العدل الإلٰهي في كافة أرجاء المعمورة. فأما أولياء الله والصالحون فسيقطفون ثمرات إيمانهم وأعمالهم الصالحة في هذه الدنيا من خلال رؤية موازين الحق والعدل تحكم الدنيا، وأما أعداء أهل البيت وخصومهم فسيلقون تبعات ظلمهم وبغضهم لآل الله في هذه الدنيا أيضاً، ومن المؤكد أنّ الثواب أو العقاب النهائي سيتحقق عند قيام الساعة.

وما ينبغي ذكره هو أن الرجعة أمر ممكن، وليس هناك أي محذور عقلي فيه، وأدلّ دليل علىٰ إمكانه، وقوعه في التاريخ السحيق، فقد أشار القرآن الكريم إلىٰ إحياء (عُزير) بعد مرور مائة عام علىٰ وفاته،[١] وإلىٰ معجزة عيسىٰعليه السلام في إحياء الموتىٰ،[٢] وتحدّث عن قصة إحياء قتيل بني إسرائيل.[٣] هذه نماذج من الرجعة وعودة الأموات إلىٰ هذا العالم، وعلىٰ هذا فتشبيه الرجعة من قِبَل بعض المغرضين والمشككين بالتناسخ ما هو إلّا مكابرة للحق والحقيقة.

إضافة إلىٰ ما تقدّم، فإن الأدلة التي أقامها علماء الشيعة حول هذه المسألة تنقسم

---

١. البقرة، ٢٥٩ ٢. المائدة، ١١٠ ٣. البقرة، ٧٢، ٧٣

إلىٰ ثلاث طوائف: آيات الذكر الحكيم، والسنة النبوية الشريفة، وروايات العترة الطاهرة. وأهم تلك الأدلة الروايات المتواترة المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والتي نقلها العلامة المجلسي في بحار الأنوار، وبلغت نحو (٢٠٠) رواية، وقد جمعها من أكثر من خمسين كتاباً حديثياً وكلامياً وتفسيرياً للشيعة، ورواها ما يزيد على أربعين راوياً، هذا إلىٰ جانب الكتب والرسائل المستقلة لأعلام الشيعة حول الرجعة. كما تعرّض عدد منهم إلىٰ هذا الموضوع في مبحث غيبة الإمام المهدي (عج). ومع توفّر هذه الأدلة والشواهد، لا يبقىٰ مجال للشك والتردد فيها خصوصاً لمن آمن بحقانيّة أهل البيت عليهم السلام، وهذا الأمر أفضىٰ إلىٰ انعقاد إجماع علماء الإمامية بشأن هذا الموضوع.[١]

ومن أوسع الكتب التي أُلّفت حول الرجعة في العصور الأخيرة، هو كتاب الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة[٢] للمحدّث الشيعي الحرّ العاملي، كما بحث العلّامة السيد عبد الله شبرّ هذا الموضوع بتفصيل في كتابه حق اليقين.

وقد استدلّ متكلمو الشيعة ـ إلى جانب الاستدلال بأحاديث الأئمة عليهم السلام أو إجماع علماء الشيعة على الرجعة ـ ببعض الآيات الكريمة على الرجعة، ونكتفي هنا بهاتين الآيتين:

١. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.[٣]

تتحدث هذه الآية عن يوم حشر، يختصّ بطائفة من المذنبين، في حين أن الحشر في يوم القيامة عام، كما يقول تعالى: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.[٤]

وعلى ذلك، فالقرآن الكريم تحدّث عن حشرينْ: أحدهما عام، والآخر خاص، فالحشر العام يتعلق بالقيامة والآخرة، والحشر الخاص يتعلق بطائفة خاصة في الدنيا لا في الآخرة، ويُسمىٰ هذا بالرجعة.[٥]

٢. ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.[٦]

---

١. بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٢٢ ـ ١٢٤

٢. طُبع هذا الكتاب أخيراً في (٤٧٢) صفحة بتحقيق السيد عبد الكريم محمد الموسوي، وعُنيت بنشره مؤسسة السيدة معصومة عليها السلام

٣. النمل، ٨٣

٤. الكهف، ٤٧

٥. مصنفات الشيخ المفيد، ج ٧، ص ٣٢، ٣٣ (المسائل السروية)

٦. غافر، ١١

تخبر هذه الآية عن المذنبين الذين يتحدّثون يوم القيامة عن إماتتينْ وإحياءيْن، أي أن الله تعالىٰ أحياهم مرّتين وأماتهم مرّتين.

ومن الواضح أن كل أفراد البشر يحيون ويموتون مرّة واحدة، ما عدا هذه الفئة، فإنها تموت مرّتين وتحييٰ مرّتين، وهذا يتّفق تماماً مع الاعتقاد بالرجعة.

فالذين تشملهم الرجعة يموتون مرّتين ويحيوْن مرّتين. أما منكرو الرجعة فقد فسّروا الآية على النحو التالي: إن المراد من الإماتتين: الموت قبل الدنيا والموت بعد الدنيا، والمراد من الإحياءين: الحياة في الدنيا والحياة في الآخرة.

هذا التفسير لا ينسجم مع ظاهر لفظ (إماتة)، ذلك أن مفاده سلب الحياة عن موجود حيّ، وبعبارة أُخرىٰ: يوحي استعمال لفظ (الإماتة) إلىٰ أن الإماتة مسبوقة بالحياة، بينما لا تصدق (الإماتة) على المخلوق من تراب أو نطفة ولم تلجه الروح بعد، هذا إلىٰ جانب ما يوحي إليه ظاهر الجملة المذكورة من أنها صدرت عن أفراد من البشر كانا أحياءً ثم ماتوا مرّتين.

وقيل: (إن المراد بقوله ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الموتة التي تكون بعد حياتهم في القبور للمسألة، فتكون الأُولىٰ قبل الإقبار والثانية بعده، وهذا أيضاً باطل من وجه آخر، وهو أن الحياة للمسألة ليست للتكليف فيندم الإنسان علىٰ ما فاته في حاله. وندم القوم علىٰ ما فاتهم في حياتهم المرتين يدلّ علىٰ أنّه لم يرد حياة المسألة، لكنه أراد حياة الرجعة التي تكون لتكليفهم والندم علىٰ تفريطهم فلا يفعلون ذلك فيندمون يوم العرض علىٰ ما فاتهم من ذلك).[١]

ومن جملة أدلة الرجعة الحديث النبوي المشهور والمقبول عند الفريقين، ومفاده أن الحوادث التي تحدث للأمم السابقة تحدث للأمة الإسلامية أيضاً، وإليك نصّ الحديث:

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع».[٢]

---

١. مصنفات الشيخ المفيد، ج ٧، ص ٣٣ـ٣٥ (المسائل السروية)
٢. صحيح البخاري، ج ٩، ص ١١٢، كتاب الاعتصام بقول النبي ﷺ

وروى الشيخ الصدوق في كمال الدين عن النبيﷺ أنّه قال: «كلّ ما كان في الأمم السالفة فإنه يكون في هذه الأمة مثله حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة».[1]

ومما لا شكّ فيه أن الرجعة تعدّ من الحوادث المهمة في تاريخ الأمم السابقة، وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ وقوعها في بني إسرائيل وغيرهم، ولذا فمقتضى الحديث النبوي المذكور أن تقع أيضاً في الأمة الإسلامية، وقد استدل الإمام الرضاؑ بذلك لما سأله المأمون العباسي عن الرجعة.[2]

وفلسفة الرجعة هي عودة ثلة من أولياء الله ومحبّي أهل البيتؑ وزمرة من المعاندين وأعداء أهل البيت إلى الدنيا قبل حصولهم على الجزاء الأخروي لخصوصيات يمتازون بها، وذلك في أيام سيادة حكومة العدل الإلهي، وسيشاهدون بأم أعينهم آثار ونتائج عقيدتهم وأعمالهم.

أما من هم الأشخاص الذين سيرجعون؟ وما هي أسماؤهم علىٰ وجه الدقة؟ فإن ذلك ما أشارت إليه بعض الروايات، إلّا أنّه لا يمكن الركون إليها، وقد ذكر العلاّمة عبدالله شبّر ـ بعد أن عقد بحثاً عقلياً ونقلياً حول الرجعة ـ بأن الاعتقاد بالرجعة من ضروريات مذهب الإمامية، وقال:

> قد عرفت من الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة وكلام جملة من المتقدمين والمتأخرين من شيعة الأئمة الطاهرين أن أصل الرجعة حق لاريب فيه ولا شبهة تعتريه، ومنكرها خارج عن ربقة المؤمنين، فإنها من ضروريات مذهب الأئمة الطاهرين، وليست الأخبار الواردة في الصراط والميزان ونحوهما مما يجب الإذعان به أكثر عدداً وأوضح سنداً وأصرح دلالة وأفصح مقالة من أخبار الرجعة واختلاف خصوصياتها لايقدح في حقيقتها كوقوع الاختلاف في خصوصيات الصراط والميزان ونحوهما، فيجب الإيمان بأصل الرجعة إجمالاً وإن بعض المؤمنين وبعض الكفار يرجعون إلىٰ الدنيا وإيكال تفاصيلها إليهمؑ.[3]

---

١. كمال الدين، ص ٥٧٦ ٢. بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٥٩، ح ٤٥

٣. حق اليقين، ج ٢، ص ٣٥

٦
الغُلوّ والغُلاة

ظهر في تاريخ الإسلام أفراد وجماعات غالوْا في حق الأنبياء والأولياء، فعُرفوا بالغلاة، والغلوّ لغةً هو تجاوز الحدّ، أي وصف شخص أو شيء أكثر مما هو عليه. وفي الحقيقة أن الغلو في اللغة هو المبالغة في وصف إنسان أو شيء ما، وفي الاصطلاح الشرعي هو التجاوز والإفراط في حق الأنبياء والأولياء، والاعتقاد بألوهيتهم وربوبيتهم.

وقد حذّر القرآن الكريم من مغبّة الغلوّ في حقّ المسيح، فقال: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ...﴾.[1] وغلوّ أهل الكتاب (النصارىٰ) هو اعتقادهم بألوهية المسيحعليه السلام كما يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.[2]

كان المسيحعليه السلام من الأنبياء الإلٰهيين، والأنبياء هم رسُل الله، ومبعوثون من قِبَله تعالىٰ، وليس لهم نصيب من الألوهية، كما يقول سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.[3]

فالغلوّ في الدين هو رفع مقام الإنسان إلىٰ مقام الربوبية والألوهية، ووضع مقام

---

١. النساء، ١٧١. وهذا المضمون نفسه ورد في الآية (٧٧) من سورة المائدة.
٢. المائدة، ٧٢ ٣. المائدة، ٧٥

الألوهية والربوبية، وإلباس الإله ثوباً بشرياً، وإضفاء صفات جسمانية عليه، ومن هنا حذّر القرآن الكريم أهل الكتاب من التقوّل على الله بغير حقّ: ﴿لَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وندّد بعقيدتهم القائمة على تأليه المسيح‌عليه‌السلام: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾ من هذا الوجه نرى الغلوّ في الدين يستلزم القول بالتشبيه والتجسيم دون العكس، أي أن القول بالتشبيه والتجسيم لا يستلزم الغلوّ، نعم الاعتقاد بالحلول والاتحاد مستلزم للغلو في الدين ذلك أن حلول الله في جسم الإنسان أو اتحاده معه غالباً ما يجعله إلهاً. ويبرز الغلوّ في حق الأشخاص عبر الحلول والاتحاد.

ظاهرة الغلوّ في عالم الإسلام

إن إحدى الظواهر السلبية في مجال العقائد الدينية والتي ظهرت في عالم الإسلام هي ظاهرة الغلوّ والغلاة الذين ذهبوا إلىٰ الغلوّ في حق رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله وعلي بن أبي طالب عليه‌السلام وسائر أئمة أهل البيت‌عليهم‌السلام وقالوا بألوهيتهم وحلول الله فيهم أو اتحاده معهم.

إن أكثر حالات الغلو في عالم الإسلام تشكّلت حول شخصية الإمام علي‌عليه‌السلام

قال الشيخ المفيد بشأن الغلاة:

> الغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته‌عليهم‌السلام إلى الألوهية والنبوة ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلىٰ ما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد، وهم ضلّال كفار حكم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار وقضت الأئمة‌عليهم‌السلام عليهم بالإكفار والخروج عن الإسلام.[1]

وعقد عبد القاهر البغدادي الباب الرابع من الفرق بين الفرق لبيان الفرق التي انتسبت إلى الإسلام وليست منه، ثم قال: الفرق المنتسبة إلى الإسلام في الظاهر مع خروجها عن جملة الأمة عشرون فرقة ثم ذكر أسماء فرق الغلاة.[2]

كما أدرج الأسفرائيني في كتابه التبصير في الدين فرق الغلاة تحت عنوان (فرق أهل البدع الذين ينتسبون إلىٰ دين الإسلام ولا يعدّون في زمرة المسلمين).[3]

---

١. تصحيح الاعتقاد، ص ١٠٩ ٢. الفرق بين الفرق، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣

٣. التبصير في الدين، ص ١٢٣ ـ ١٤٧

علامات الغلوّ

ثمة عقائد متباينة للغلاة في عالم الإسلام، فبعضها يشبه عقائد المذاهب الإسلامية، وبعضها الآخر يختص بهم وتفوح منه رائحة الغلو، نظير:

١. الاعتقاد بألوهية النبي ﷺ أو أمير المؤمنين عليه السلام أو أئمة أهل البيت عليهم السلام

٢. الاعتقاد بتفويض تدبير العالم إلى النبي ﷺ أو إلىٰ أمير المؤمنين أو إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام أو غيرهم.

٣. الاعتقاد بنبوة أمير المؤمنين عليه السلام أو سائر الأئمة عليهم السلام أو أحد أفراد الأمة الإسلامية.

٤. الاعتقاد بأنهم يعلمون الغيب بغير وحي أو إلهام من الله تعالى.

٥. الاعتقاد بأن معرفة ومحبة أئمة أهل البيت عليهم السلام تغني الإنسان عن عبادة الله تعالىٰ وعن أداء الفرائض الإلٰهية.[1]

وكان الشيخ المفيد يرىٰ أن من علامات الغلو هو الاعتقاد بنفي الحدوث عن الأئمة عليهم السلام، وألوهيتهم وقدمهم، ويقول حول الفرق بين المفوضة والغلاة ما هذا نصّه:

> المفوّضة صنف من الغلاة، وقولهم الذي فارقوا به سواهم من الغلاةاعترافهمبحدوث الأئمة وخلقهم ونفي القدم عنهم، وإضافة الخلق والرزقمع ذلك إليهم ودعواهم أن الله سبحانه وتعالىٰ تفرّد بخلقهم خاصة وأنّهفوّض إليهم خلق العالم بما فيه وجميع الأفعال.[2]

فرق الغلاة

تضاربت أقوال كتّاب الملل والنحل حول فرق الغلاة، فقد صنّفهم الأشعري إلى (١٥) فرقة، والبغدادي إلىٰ (٢٠) فرقة، وقال الاسفرائيني: إنهم أكثر من (٢٠) فرقة. أما الشهرستاني فاقتصر علىٰ (١١) فرقة. وإليك أسماء عدد منها مع توضيح موجز:

١. **السبئية**: وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذي اعتقد بنبوة علي عليه السلام ثم بألوهيته، وأنكر مصرع الإمام علي عليه السلام، وقال إن شيطاناً تمثّل في صورته عليه السلام، فتوهّم الناس أنه قُتل، كما توهّم اليهود والنصارىٰ في مقتل المسيح عليه السلام، قال: وهذا التوهم منهم خطأ، وهذا القول منهم كذب، بل هو في السماء، وعن قريب ينزل وينتقم من أعدائه. وقال بعضهم:

---

١. انظر: بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٣٤٦

٢. تصحيح الاعتقاد، ج ١٠٩

إنه في الغيم، والرعد صورته، وإذا سمعوا صوت الرعد، قالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

٢.البيانيّة: وهم أتباع بيان بن سمعان التميمي الذي يعتقد بإمامة محمد بن الحنفية، وقال قوم من أتباعه بنبوّته، وقالوا إنه نسخ بعض شريعة محمد ﷺ، وذهب بعض أتباعه إلىٰ أنّه كان إلٰها، وقالوا: إن روح الله قد حلّ فيه.

٣.المغيرية: وهم اتباع مغيرة بن سعيد العجلي، في البدأ يعتقد بإمامة الإمام محمد الباقر عليه السلام ولكنه في النهاية ادعى النبوة.

٤.الخطّابيّة: وهم أتباع أبي الخطاب الأسدي الذي عاصر الإمام الصادق عليه السلام واعتقد بألوهيته، فلعنه الإمام عليه السلام وطرده، واعتقد أتباعه بألوهية الأئمة كافة.

٥.الغرابية: تعتقد هذه الفرقة أن الله تعالىٰ بعث جبريل إلى علي، فغلط وجاء إلىٰ محمد، وقالوا: وإنما غلط لأنه كان يشبه محمداً (وكان أشبه به من الغراب بالغراب)، ولذا أُطلق عليها: الغرابية.

ومن عقائدها الأُخرىٰ أن الله خلق محمداً ﷺ وفوّض إليه تدبير العالم، ثم فوّضه من بعده إلىٰ علي عليه السلام، ومن هنا أطلق عليها اسم المفوّضة أيضاً.

٦.النصيريّة: وهم أتباع محمد بن نصير النميري الذي عاش في زمن الإمام الحسن العسكري وغالىٰ فيه واعتقد بربوبيته، وادّعىٰ أنه بُعث بالنبوة من جانبه. وذكر الشهرستاني أن النصيرية في زمانه يقولون بألوهية علي عليه السلام. ويقطن معظم النصيرية اليوم في سوريا وتركيا وكردستان العراق.

موقف أئمة أهل البيت من الغلاة

ندّد أئمة أهل البيت عليهم السلام بظاهرة الغلو والغلاة تنديداً شديداً. ووردت عنهم في هذا الصدد أحاديث كثيرة، نقل مائةً منها العلامة المجلسي في البحار، الجزء (٢٥)، وإليك نماذج منها:

١. قال الإمام الصادق عليه السلام: احذروا علىٰ شبابكم الغلاة لا يُفسدوهم، فإنّ الغلاة شرّ خلق الله، يُصغّرون عظمة الله، ويدّعون الربوبية لعباد الله... .[١]

---

١. بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٦٥، نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي.

٢. كان أمير المؤمنين‌عليه السلام يتبرّأ من الغلاة، ويقول: اللهم إني بريئ من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارىٰ، اللهمّ اخذلهم أبداً، ولا تنصر منهم أحداً.[١]

٣. قال الإمام الصادق‌عليه السلام: لعن الله عبد الله بن سبأ، إنه ادّعى الربوبية في أمير المؤمنين، وكان والله أمير المؤمنين عبداً لله طائعاً، الويل لمن كذب علينا، وإن قوماً يقولون فينا مالا يقول في أنفسنا. نبرأ إلى الله منهم.[٢]

٤. قال الإمام الصادق‌عليه السلام لما ذُكر عنده الغلاة: لا تقاعدوهم.

٥. قال الإمام الصادق: من قال بأنّنا أنبياء فعليه لعنة الله.[٣]

٦. قال الإمام الرضاعليه السلام: الغلاة كفّار، والمفوّضة[٤] مشركون، من جالسهم أو واكلهم أو شاربهم أو واصلهم أو زوّجهم أو تزوّج إليهم أو أمنهم أو ائتمنهم علىٰ أمانة، أو صدّق حديثهم، أو أعانهم بشطر كلمة، خرج من ولاية الله عزّ وجلّ وولاية الرسول‌صلى الله عليه وآله وسلم وولايتنا أهل البيت‌عليهم السلام.

مناهضة متكلمي الإمامية للغلو والغلاة

الروايات الآنفة الذكر وغيرها تدلّ بوضوح علىٰ شدّة نكير أئمة أهل البيت‌عليهم السلام للغلاة، وعلىٰ نفس المنوال نسج علماء ومتكلمو الإمامية رأيهم تجاه الغلاة، فذهبوا إلىٰ كفرهم وشركهم والبراءة منهم. وها نحن ننقل بعض كلماتهم في هذا الصدد:

أ) قال أبو إسحاق إبراهيم بن نوبخت ردّاً علىٰ نظرية الغلاة:

> وقول الغلاة يبطل أصله، استحالة كون الباري تعالىٰ جسماً، ومعجزات أميرالمؤمنين‌عليه السلام معارضة بمعجزات موسى وعيسى‌عليهما السلام.[٥]

ب) وقال الشيخ الصدوق:

> اعتقادنا بأنّ الغلاة والمفوّضة كفّار.[٦]

جـ) وقال الشيخ المفيد:

---

١. المصدر السابق ٢. المصدر السابق، ص ٢٨٦، نقلاً عن رجال الكشي.
٣. المصدر السابق، ص ٢٩٦
٤. المراد من المفوّضة، الذين يعتقدون بتفويض أمر الخلق والرزق إلى الأئمة‌عليهم السلام.
٥. أنوار الملكوت في شرح الياقوت، ص ٢٠١ ٦. الاعتقادات، ص ٧١

الغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذرّيته عليهم السلام إلى الألوهية والنبوة، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلىٰ ماتجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد، وهم ضُلّال كفّار، حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة عليهم السلام عليهم بالإكفار والخروج عن الإسلام.[١]

د) وقال العلامة الحلّي:

افترق الغلاة علىٰ أقوال: منهم من جعل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلٰهاحقيقة، ومنهم من قال إنه نبيّ، وهذه الأقوال باطلة، فإنّا قد بيّنا أنّ الله تعالىٰ ليس بجسم وأنّه يستحيل عليه الحلول، والاتحاد باطل، وقد بيّنا أنّ محمداً صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء، فبطل قولهم جملةً.[٢]

هـ) وقال العلامة المجلسي بعد تعداد مصاديق الغلو في الروايات:

القول بكلّ منها إلحاد وكفر وخروج عن الدين كما دلت عليه الأدلة العقلية والآيات والأخبار السالفة وغيرها. وقد عرفت أن الأئمة عليهم السلام تبرؤوا منهم وحكموا بكفرهم وأمروا بقتلهم، وإنْ قرع سمعَك شيء من الأخبار الموهمة لشيء من ذلك، فهي إمّا مُأوّلة أو هي من مفتريات الغلاة.[٣]

هذه نماذج من تصريحات كبار علماء الشيعة في ردّ الغلو والغلاة والحكم بكفرهم، وقد تكرّر ذلك في الكتب الكلامية والفقهية للشيعة، ولا يتسع المجال لذكرها في هذا المختصر.

تصوّرات خاطئة واتهامات رخيصة

ممّا يدعو إلى العجب وإلى الأسف في ذات الوقت هو أنه مع كل هذه التصريحات، فإن بعض المغرضين والجاهلين يتهم الشيعة الإمامية بالغلوّ في حقّ الأئمة المعصومين عليهم السلام، ومبعث هذا الاتهام هو الجهل ـ احياناً ـ بحقيقة الغلو، وبالتالي عدّ بعض معتقدات الشيعة من الغلو، نظير الاعتقاد بعصمة أئمتهم وبكراماتهم ومعاجزهم، واطلاعهم علىٰ عالم الغيب بإذن الله تعالىٰ ومشيئته.

لكن يبقىٰ هذا مجرد تصور ساذج لا يعضده الدليل، ذلك أن حقيقة الغلو ـ كما سبق توضيحه ـ هي نسبة مقام الألوهية والربوبية أو النبوة إليهم، أما الخارج عن شؤون

١. تصحيح الاعتقاد، ص ١٠٩ ٢. أنوار الملكوت، ص ٢٠٢ ٣. بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٣٢٦

الألوهية ومختصات النبوة، فلا علاقة له بالغلو في الدين، بل إن ما ورد في حق الأئمة عليهم السلام إنْ كان له واقع، فاعتقادنا بهم حقيقة وليس جزافاً، وإن لم يكن له واقع فلا يُعدّ من أقسام الغلو الشرعي، بل من مصاديق الغلو اللغوي. وبالطبع فإن الاعتقاد بعصمة الأئمة. واطلاعهم على الغيب، وكراماتهم ومعاجزهم، كلها حقائق تكفّلت بإثباتها الكتب الكلامية.

يُذكر أن مقام العصمة والكرامة والإعجاز والاطلاع على الغيب من مقامات كبار أولياء الله ولا يختص بالأنبياء والأئمة، فقد تحدث القرآن عن عصمة مريم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَـٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَـٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] وقال بشأن بعض كرامات مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[2] وقال حول بعض كرامات أحد أتباع سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.[3]

وفي الأحاديث الإسلامية عُقد باب تحت عنوان «المُحَدَّث»، أُدرجت فيه أسماء من حاز ذلك المقام، فالمحدَّث هو الذي يُلهم من عالم الغيب بواسطة الملائكة في اليقظة أو النوم دون أن يكون نبياً.

أخرج أبو عبد الله البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: لقد كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء.[4]

و قد أَطلقت الروايات الشيعية اسم (المحدَّث) على الأئمة المعصومين عليهم السلام،(المحدَّثة) علىٰ فاطمة الزهراء عليها السلام، وهذه الروايات نقلها المحدّث الكليني في الكافي، والمجلسي في بحار الأنوار. وقد صرّح أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ تحسّباً لأي تفسير خاطئ لهذه الكلمة أو توهّم النبوة في حقّهم ـ بأن علومهم ومعارفهم تتعلق ببيان الحلال والحرام في الشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله لا بكونهم أنبياء، وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام. إنما الوقوف علينا في الحلال والحرام، فأما النبوة فلا.[5]

ومفاد الحديث أننا لسنا أنبياء، وإنّما نتولّىٰ بيان أحكام الشريعة نيابة عن النبي

١. آل عمران، ٤٢ ٢. آل عمران، ٣٧ ٣. النمل، ٤٠

٤. صحيح البخاري، ج ٢، ص ٢٩٥، ط دار المعرفة، بيروت.

٥. أصول الكافي، ج ١، ص ٢٦٨؛ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٨٣

ﷺ، وهذه هي مسؤولية فقهاء المذاهب الإسلامية أيضاً مع هذا الفارق، وهو أن علم الأئمة عليهم السلام بالأحكام ليس اكتسابياً، وإنما هو علم لدنّي مفاض عليهم من جانب الله تعالىٰ وبواسطة النبيﷺ، فالنبي جاء بأصل الشريعة، والأئمة خلفاؤه ونوّابه في بيان الشريعة.

تنبيهان

ينبغي التنبيه هنا علىٰ نكتتين:

الأولىٰ: على الرغم من أن الوحي لغةً أعمّ من وحي النبوة، ويطلق علىٰ كلّ إلهام غيبي، كما أُطلق في القرآن علىٰ ما أُلهمت به أمّ موسى، وعلى الإلهام الغريزي للنحل، إلّا أن علماء الإسلام لم يجوّزوا إطلاق الوحي علىٰ كل معرفة غيبية باستثناء وحي النبوة، لكي تظل حدود كل من الوحي والنبوة محفوظة، ولئلا يقع الالتباس والخلط بينهما. قال الشيخ المفيد بعد بيان المعنىٰ العام للوصي في اللغة والإشارة إلىٰ موارد استعماله في القرآن:

قد يُري الله سبحانه وتعالىٰ في المنام خلقاً كثيراً ما يصحّ تأويله ويثبت حقه، لكنه لا يطلق بعد استقرار الشريعة عليه اسم الوحي، ولا يقال في هذا الوقت لمن طبعه الله علىٰ علم شيء أنّه يوحىٰ إليه، وعندنا أن الله تعالىٰ يسمع الحجج بعد نبيهﷺ كلاماً يُلقيه إليهم في علم ما يكون لكنه لا يطلق عليه اسم الوحي لما قدمناه من إجماع المسلمين علىٰ أنه لا وحي إلىٰ أحد بعد نبيناﷺ وأنه لا يقال في شيء مما ذكرناه أنه وحي إلىٰ أحد، ولله تعالىٰ أن يبيح إطلاق الكلام أحياناً ويحظره أحياناً ويمنع السماع بشيء حيناً، ويطلقها حيناً، فأما المعاني فإنها لا تتغير عن حقائقها.[1]

الثانية: المعجزة والكرامة من مقولة وحقيقة واحدة، وهي فعل خارق للعادة يعجز عن مثلها سائر الناس، وترتكز علىٰ الإمداد الغيبي لله سبحانه، وصاحبها لا يستهدف من ورائها سوىٰ إثبات صدق مدّعاه، بيد أن إعجاز الأنبياء يختلف عن إعجاز غيرهم لكونه مقروناً بدعوى النبوة، فالمعجز أمر خارق للعادة مقروناً بادعاء النبوة.

---

١. تصحيح الاعتقاد، ص ٩٩، ١٠٠

قال فخر الدين الرازي بعد بيان جواز صدور الكرامة عن أولياء الله، وبعد الإشارة إلىٰ كرامة مريم وآصف بن برخيا: ثمّ تتميّز الكرامات عن المعجز بتحدّي النبوّة.[١]

وقال عضد الدين الإيجي صاحب المواقف بعد بيان شروط المعجز واقترانه بدعوى النبوّة:

> ما تقولون في معجزات رسولكم من اظلال الغمامة وتسليم الحجر والمدرعليه فانها كلها متقدمة علىٰ دعوىٰ الرسالة. قلنا: تلك الخوارق المتقدمةعلىٰ الدعوىٰ ليست معجزات انما هي كرامات وظهورها علىٰ الاولياءجائز والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الأولياء.[٢]

وقد عرّف السيد الشريف الجرجاني الكرامة بقوله: هي ظهور أمر خارق للعادة من قِبَل شخص غير مقارن لدعوى النبوة.[٣]

وصفوة الكلام أن المعجزة والكرامة كليتهما تشتركان في أنهما أمر خارق للعادة يصدر عن الأولياء والصالحين لأهداف إلٰهية، وثمة فارق بينهما يكمن في تقارن المعجز بدعوى النبوة دون الكرامة. وقد ذهب أغلب علماء الإسلام إلىٰ إمكانية ظهور أمور خارقة للعادة من الصالحين والمتقين في الأمة الإسلامية واطلقوا عليها اسم (الكرامات).

ويتضح مما تقدّم أن اعتقاد الإمامية بأن الأئمةﷺ معصومون، وعالمون بالغيب بإذن الله تعالىٰ وأصحاب كرامات، لا يُعتبر بأي وجه من الوجوه دليلاً علىٰ بنوتهم، وليس فيه ما يُعارض أصل الخاتمية، ولم يدّع أحدٌ منهم ذلك أبداً، بل ردّوه ما وجدوا للردّ سبيلاً، كما مر في الروايات الواردة عنهمﷺ. وفي كلمات أعلام الإمامية في هذا الصدد. وإذا كان الاعتقاد بهذه المقامات مستلزم للنبوة، فلابدّ أن تكون مريم العذراء وآصف بن برخيا (وزير سليمان ووصيه) أنبياء وكذلك الخليفة الثاني وفقاً لِما أخرجه البخاري في صحيحه، وغيره.

---

١. تلخيص المحصل، ص ٣٧٣، ط دار الأضواء.
٢. شرح المواقف، ج ٨، ص ٢٢٥
٣. التعريفات،ص ٧٩

الباب الرابع

مباحث حول المعاد

١
فلسفة القيامة وحقيقة المعاد

القيامة مظهر الرحمة والحكمة والعدل الإلهي، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.[١]

فالرحمة من صفات الكمال الإلهي، ومفادها تلبية حاجات الموجودات كافة وهدايتها إلىٰ كمالها اللائق بها.[٢] فخلق الإنسان بهذه الخصوصيات يدلّ بوضوح علىٰ جدارته لحياة أبدية، تلك الحياة التي لا مقرّ لها سوى الدار الآخرة.

القيامة أيضاً من مقتضيات الحكمة الإلهية ذلك أن عالم الطبيعة الخاضع للتغيير والحركة سوف لن يبلغ غايته المنشودة مالم يصل إلىٰ نقطة ثبات واستقرار، ففعلٌ دون غاية محال أن يصدر عن الله الحق المطلق الحكيم ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.[٣]

وقال سبحانه متحدثاً عن يوم القيامة (بعد بيان عدم خلق السماوات والأرض عبثاً): ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.[٤]

وثمة فلسفة أُخرىٰ للقيامة وهي تجسيد العدل الإلهي في حق الصالحين والطالحين والمؤمنين والكافرين، ذلك أن العلاقة المتبادلة بين أفراد البشر في هذه الدنيا تحول دون تجسيد العدل الإلهي في مقام الثواب والعقاب، فلا بدّ إذن من وجود عالم آخر

١. الأنعام، ١٢   ٢. الميزان، ج ٧، ص ٢٥   ٣. المؤمنون، ١١٥
٤. الدخان، ٤٠

يتحقق فيه ذلك بصورة كاملة، يقول سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾،[1] ويقول أيضاً: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.[2]

حقيقة المعاد

المعاد مأخوذ ـ لغة ـ من العوْد (وهو الرجوع)، ويُقصد به في الاصطلاح الشرعي إعادة الأجسام مع أرواحها إبّان يوم القيامة، وعلىٰ هذا الأساس فالمعاد يتعلق بالروح والجسم؛ أي ثمة معاد جسماني ومعاد روحاني، ويترتب علىٰ ذلك وجود نوعين من الثواب والعقاب الأخروي، أحدهما: ثواب وعقاب روحي وعقلي. وإدراك ذلك ليس بحاجة إلىٰ جسم وإلىٰ قواه الحسية، ومثال ذلك حسرة المذنبين، والرضوان الإلٰهي الذي يغمر المتقين والمقرّبين؛ وحول هذه الحسرة قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾،[3] وحول الرضوان قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.[4]

والنوع الآخر: ثواب وعقاب جسمي وحسّي، وإدراك ذلك بحاجة إلى جسم وإلىٰ قواه الحسية. وقد تعرّضت آيات الذكر الحكيم والروايات إلىٰ هذا النوع بتفصيل، وتحقُّق ذلك لا يتمّ دون حشر أجسام الأموات.

وإلىٰ جانب الآيات الدالة على المعاد الجسمي، فثمّة آيات أُخرى كثيرة ناظرة إلى المعاد الجسمي، منها آيات تشير إلىٰ إنكار الكفار للمعاد واستبعادهم إحياء الجسم مرة أُخرىٰ بعد تحلّله وتفرّق أجزائه، وقد أجاب القرآن الكريم عن إنكارهم هذا بتذكيرهم بسعة علم الله تعالى وقدرته التي ليس لها حدود، وإذا لم يكن يلزم المعاد الجسماني، فالسبيل السهل والمعقول للإجابة، هو إنكار هكذا معاد، لا الإجابة عن إشكالاتهم وشبهاتهم المثارة بشأن علم الله الواسع وقدرته اللامتناهية، ويُسر الخلق الآخر بالنسبة إلى الخلق الأول، وذكر نماذج من ظواهر الإحياء والإماتة في هذا العالم.

هذا النوع من الآيات ونظائرها لا يمكن تأويله بأي وجه من الوجوه، ولذا لا تصحّ

---

١. ص، ٢٨ ٢. القلم، ٣٥ ٣. البقرة، ١٦٧
٤. التوبة، ٧٢

نظرية القائلين بالمعاد الروحاني فقط، رغم محاولاتهم في تأويل الآيات المتعلّقة بالمعاد الجسماني؛ يقول المحقّق نصير الدين الطوسي ـ بعد بيان الآيات المتعلّقة بالمعاد الجسماني: وأكثره ممّا لا يقبل التأويل.[1]

وانطلاقاً من ذلك، قُدِّرت للإنسان ثلاثة أنواع من الحياة:

١. الحياة الدنيوية؛

٢. الحياة البرزخية؛

٣. الحياة الآخروية.

فالحياة الدنيوية تتألّف من مراحل مختلفة، أهمّها تلك المرحلة التي تبدأ ببلوغ الإنسان سنّ الرشد الشرعي، ودخوله في زمرة المكلّفين بأداء التكاليف الإلهية. وفي هذه المرحلة يتحدّد مصير الإنسان ومستقبل حياته الأخروية، فإما أن يسلك سبيل الصالحين وأصحاب الجنة، وإما أن يسلك سبيل الظالمين وأصحاب النار.

---

١. تلخيص المحصّل، ص ٣٩٣، ٣٩٤

٢

القبر والبرزخ

تبدأ الحياة البرزخية للإنسان منذ لحظة الموت، ويُطلق البرزخ على الفترة ما بين الموت والقيامة، يقول سبحانه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.[1]

وأوّل حدث مهم يواجهه الإنسان في عالم البرزخ هو مساءلته من قبل الملائكة حول التوحيد والنبوة والمسائل الاعتقادية الأُخرى، ويرتبط نوع الإجابة علىٰ هذه الأسئلة بحقيقة إيمان الشخص وعقائده في الدنيا، ويُطلق علىٰ هذه المرحلة اسم (مساءلة القبر)، وهي من الاعتقادات المسلَّم بها لدى الشيعة، يقول الشيخ الصدوق:

> اعتقادنا في المساءلة في القبر أنها حقّ لابدّ منها، فمن أجاب بالصواب فازبروح وريحان في قبره وبجنة نعيم في الآخرة، ومن لم يأتِ بالصواب، فلهنزل من حميم في قبره وتصلية جحيم في الآخرة.[2]

ويقول الشيخ المفيد بعد الإشارة إلى المساءلة في القبر: «وليس ينزل الملكان إلّا علىٰ حيّ، ولا يسألان إلّا من يفهم المسألة، ويعرف معناها، وهذا يدل علىٰ أن الله تعالىٰ يحيي العبد بعد موته للمساءلة ويديم حياته لنعيم إنْ كان يستحقه أو لعذاب إن كان يستحقه».[3]

ويقول الشيخ الطوسي حول العذاب في القبر واختصاصه بزمرة من الناس:

١. المؤمنون، ١٠٠
٢. الاعتقادات في دين الإمامية، ص ٣٨، الباب ١٧
٣. تصحيح الاعتقاد، ص ٣٥، ٣٦

وعذاب القبر واقع لإمكانه وتواتر السمع بوقوعه.[١]

وقد جاء في الروايات تعبير «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران».[٢]

والمراد من القبر هنا الدار البرزخية لا المكان الذي يُقبر فيه الميت.

ومن الواضح أن المساءلة في القبر ـ وفقاً لقواعد العدلية والنصوص الدينية ـ تختصّ بالمكلّفين من المؤمنين والكافرين، ولا تشمل الأطفال والسفهاء والمستضعفين.

١. كشف المراد، المقصد ٦، المسألة ١٤

٢. الشيخ الصدوق، الخصال، ح ٩١

٣
مشاهد ومواقف يوم القيامة

ثمة مشاهد ومواقف مهمة تقع بعد إحياء الموتىٰ ودخولهم عرصة يوم القيامة وقبل ورودهم الجنة أو النار. هذه المواقف تحدّث عنها القرآن الكريم والأحاديث الإسلامية بالتفصيل، وإليك جملة من هذه المواقف:

١. الحساب والميزان

من الصور التي عرضها القرآن الكريم عن مواقف يوم القيامة، هي: الميزان، والحساب الإلٰهي على الأعمال بأساليب مختلفة، منها: توزيع صحائف الأعمال على المكلّفين للاطلاع عليها،[١] وحضور الملائكة والأنبياء شهداء عليهم،[٢] ونصب موازين العدل للبتّ في أعمال المكلّفين علىٰ أساسها،[٣] وتكلّم أعضاء الإنسان وجوارحه وشهادتها عليه.[٤] ويعتبر تجسّم الأعمال أكمل وأدقّ نوع للحساب الإلٰهي علىٰ أعمال البشر يوم القيامة.[٥]

٢. الصراط

دلت الروايات الإسلامية علىٰ وجود قنطرة يوم القيامة تسمّى (الصراط)، تمر عبر جهنم، ولابد للجميع من ورودها، فمن اجتازها يرد الجنة، ومن زلّت قدمه يدخل النار.

ويعتقد علماء التفسير أن الآيتين (٧١ ـ ٧٢) من سورة مريم[٦] ناظرتان إلىٰ ذلك.

١. الاسراء، ١٣، ١٤ ٢. النحل، ٨٩ ٣. النساء، ٤١؛ ق، ١٨
٤. الأنبياء، ٤٧ ٥. النور، ٢٤؛ فصلت، ٢٠، ٢١
٦. ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

٣. الأعراف

ثمة مكان بين الجنة والنار يُسمّى «الأعراف»، يشرف منه الأنبياء والصّالحون على الجميع، فيعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، وهم قضاة عرصة يوم القيامة.

٤. لواء الحمد

لما يتمّ الحساب ويتبيّن مصير أهل الجنة وأهل النار، يُعطىٰ رسول الله ﷺ لواءً يُعرف بلواء الحمد من قبل الله تعالىٰ، ليكون طليعة أهل الجنة نحو الجنة.

٥. حوض الكوثر

تحدّثت الروايات الإسلامية عن وجود حوض كبير في صحراء المحشر، هو حوض الكوثر، يقف عليه النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ليسقوا منه المفلحين من الأمة الإسلامية.

٤
القيامة والشفاعة

من مشاهد يوم القيامة شفاعة الشافعين لبعض المذنبين، فيشملهم بتلك الشفاعة العفو والصفح الإلٰهي ويدخلون في عداد أهل الجنة.

والاعتقاد بالشفاعة محلّ اتفاق جميع المذاهب الإسلامية باعتبارها من المفاهيم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسّنّة النبوية الشريفة، وقد بيّن القرآن ـ بعد أخذ الشفاعة كأصل مسلّم به ـ بعض أحكامها وضوابطها، نظير أن الشفاعة لا تحصل إلّا بإذن إلٰهي، يقول سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾،[١] ويقول أيضاً: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.[٢]

والموضوع الآخر الذي يتعلق بالشفاعة وتعرّض له القرآن الكريم هو إبطال عقيدة المشركين والوثنيين الذين قالوا بإلٰهية معبوداتهم، ظناً منهم أن شفاعتها ناشئة عن ألوهيتها، مما حدا بهم إلىٰ عدم تقييد الشفاعة بأي قيد أو إذن من الله تعالى، وقد ردّ القرآن الكريم علىٰ هذا الاعتقاد بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.[٣]

ولذا فإنّ الاستدلال بالآيات التي تنفي شفاعة الأصنام للمشركين علىٰ إنكار مطلق

---

١. البقرة، ٢٥٥ ٢. يونس، ٣ ٣. يونس، ١٨

الشفاعة، يُعدّ مغالطة واضحة، لأن الشفاعة هنا لا تصدر عن الاعتقاد بألوهية الشفعاء، ولا عن إلغاء أي قيد أو شرط فيها.

يستفاد من القرآن الكريم أن الملائكة لا يشفعون إلّا للمرضيين عندالله، قال تعالى:﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.[1]

وقد صرّح القرآن الكريم بأنّ للنبيﷺ مقاماً محموداً ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.[2] وهذا المقام كما فُسِّر هو مقام الشفاعة الكبرىٰ لهﷺ يوم القيامة، وقد اتفقت على هذا التفسير روايات عديدة، يقول العلّامة الطبرسي:

> وقد أجمع المفسرون علىٰ أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقامالذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يُعطىٰ فيه لواء الحمد، فيوضع فيكفّه، ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكونﷺ أول شافع، وأول مشفَّع.[3]

وقد ورد في الحديث النبوي المتفق عليه عند المسلمين كافة: «إنما ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»،[4] ووجه اختصاص هذه الشفاعة بكبائر الذنوب، هو أن الله وعد كل من اجتنب الكبائر أن يكفِّر عن سيئاته، يقول سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.[5]

سؤال الشفاعة

لاشكّ إنّه إذا جازت شفاعة النبيﷺ والشفعاء الآخرين يوم القيامة، لجازت أيضاً شفاعة ما سوى المؤمنين، نظير طلب الدعاء من الآخرين في حق الإنسان، وقد ورد ذلك فيما رواه ابن عباس عن النبيﷺ

---

١. الأنبياء، ٢٦_٢٨ ٢. الإسراء، ٧٩

٣. مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٣٥. وللاطلاع أكثر على الروايات المتعلقة بتفسير الآية، راجع: تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٣٨_٤٤٠.

٤. مجمع البيان، ج ١، ص ١٠٤؛ من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٧٦؛ صحيح البخاري، ج ١، ص ٤٢؛ مسند أحمد، ج ١، ص ٣٠١ ٥. النساء، ٣١

الوهابية والشفاعة

ذهبت الوهابية إلىٰ وجود أصل الشفاعة، إلّا أن لها وجهة نظر خاصة إزاء بعض أحكامها وشروطها، جعلتها في زاوية نائية عن سائر المسلمين، وأدت بها ـ تبعاً لمبانيها الخاصة في مواجهة خصومها في الفكر والعقيدة ـ إلى اتهام سائر المسلمين بالشرك في مسألة الشفاعة التي تعدّ أبرز المسائل الخلافية التي نشبت بينها وبينهم لا سيما في ما يتعلق منها بطلب الشفاعة من الشفعاء، فسؤال الشفاعة منهم في أيام حياتهم أو بعد مماتهم أمر جائز ومشروع عند كل المسلمين باستثناء الوهابية التي لم ترتض ذلك، ظناً منها بعدم جوازه وشرعيته، بل بعدِّه من موارد الشرك.

وبعبارة أُخرىٰ، طلب الشفاعة ممكن في صورتين:

الأُولىٰ: أن يطلب الإنسان من الله مباشرة شفاعة النبيﷺ وسائر المأذون لهم بالشفاعة، كأن يقول مثلاً: «اللهم شفّع لي محمداً»، ﷺ والأُخرىٰ أن يطلب من النبي ﷺ وأصحاب مقام الشفاعة أن يشفعوا له عند الله، كأن يقول: «يا محمدﷺ اشفع لي عند الله» أو «كن لي شفيعاً عند الله».

وقد أجازت الوهابية الصورة الأُولىٰ دون الثانية باعتبارها شركاً.

وقد استدلت الوهابية على إثبات مدّعاها بالأدلة التالية:

١. طلب الشفاعة من الشفيع بمنزلة دعائه وسؤاله، ودعاء غير الله شرك في العبادة، لأن الله تعالىٰ نهىٰ عن ذلك، وقال ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾،[١] فيكون طلب الشفاعة من الشفيع شركاً في العبادة.

٢. شهادة القرآن الكريم نفسه، ذلك أن الله تعالى أطلق عنوان المشركين علىٰ كفّار عصر الرسالة لأنهم طلبوا الشفاعة من غيرالله، وقد أهدر النبيﷺ دماءهم وأمر بجهادهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.[٢]

٣. اعتبر القرآن الكريم الشفاعة حقاً خاصاً لله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾.[٣] من

---

١. الجن، ١٨ ٢. يونس، ١٨ ٣. الزمر، ٤٤

هنا يجب طلب الشفاعة من الله فقط، وطلب الشفاعة من دونه يُنافي اختصاصها به سبحانه.

وثمّة وجوه أُخرىٰ ذكرت في هذا المجال، إلّا أن ما تقدّم هو أهم تلك الوجوه، وقد وردت في كلمات ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب.[١]

بحث ونقد

١. الشفاعة والدعاء

لاشكّ في أن طلب الشفاعة من الشفيع يقترن بالدعاء والسؤال، ولكن سؤالها من غير الله ليس حراماً بصورة مطلقة، ولا مستلزماً للشرك، إذ لاشك في أن طلب العون من المسلمين أمر جائز ومشروع، ويجب على الآخرين إعانته ما استطاعوا إليه سبيلا، كما ورد في الحديث النبوي المعروف: «مَن سمع منادياً ينادي يا للمسلمين ولم يجبه فليس بمسلم».

فإذا كان إنجاز عمل بتوسط شخص جائز ومشروع، فطلب إنجازه منه جائز ومشروع أيضاً، وإذا كانت شفاعة النبيﷺ وسائر الشفعاء حقاً وأمراً مشروعاً يوم القيامة، فسيكون طلب الشفاعة منهم أيضاً حقاً وأمراً مشروعاً.

وقد جاءت كلمات ا لوهابية لتؤكد علىٰ أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ وسائر الشفعاء أمر غير جائز، ومدلول ذلك ـ كما ورد في الروايات ـ أن طلب الشفاعة من الشفعاء جائز في الآخرة، في حين أنّه إذا عمل شركاً، فسيكون حكمه واحداً في الدنيا والآخرة بلا فرق.

والآن إذا استخلصنا حقيقة الشفاعة، فسيتضح أن الشفاعة ليس إلّا طلب الشفاعة من قِبل الشفيع للمشفوع له، لا أنها طلب العفو والصفح من الله سبحانه، حكى النيسابوري عن مقاتل أنّه قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾: «الشفاعة إلى الله إنما هي الدعوة

---

١. ذكر العلّامة السيد محسن الأمين العاملي أدلة الوهابية استناداً إلىٰ كتبهم وتناولها بالنقد والمناقشة، وذلك في كتابه كشف الارتياب، الباب الثالث، الفصل الأوّل، ٢٣٨ ـ ٢٦٦.

لمسلم لما روي عن النبيﷺ: من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب، استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك».

فالمراد من النصيب في الآية المذكورة، هو نفس ما جاء في الحديث الشريف الآنف الذكر، أي أن الدعاء للمسلم مقبول ويحظىٰ هو الآخر بنصيب من ذلك الدعاء.

لذا فكما أنّه بإمكان الشخص أن يطلب الدعاء من أي مسلم أو مؤمن ـ وهذا أمر جائز عند الوهابية ـ فكذلك طلب الشفاعة من غير الله سيكون جائزاً أيضاً، كل ما في الأمر أن طلب الشفاعة من الآخرين إنما يختصّ بمن استحق أهلية الشفاعة كالأنبياء والملائكة والمؤمنين والصالحين.

وقد فسّر فخر الدين الرازي استغفار الملائكة للمؤمنين في الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾،[1] فسّرها بالشفاعة، وقال: هذه الآية دالّة علىٰ أن شفاعة الملائكة مختصة بالمذنبين لا كما قالت المعتزلة من أنها مختصة لغير المذنبين لعلو مقامهم لا أنها مختصة بالمذنبين لغفران ذنوبهم.

وأخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن النبيﷺ أنّه قال: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلّا شفّعهم الله فيه».[2]

كما أن صلاة الميت ليست في حقيقتها سوى الدعاء له، فالدعاء نوع من الشفاعة، ولاشكّ في أن طلب الدعاء من الآخرين، كأن يقول: «ادع لي» أمر جائز، وكذلك طلب الشفاعة من الآخرين كأن يقول: «اشفع لي عند الله» أمر جائز أيضاً.

وإذا تجاوزنا ذلك، فإن سيرة المسلمين تُعدّ خير شاهد علىٰ شرعية طلب الشفاعة. أخرج الترمذي عن أنس بن مالك أنّه سأل رسول اللهﷺ الشفاعة له يوم القيامة.[3]

وممّا تقدّم يتضح أن حقيقة الشفاعة هي الدعاء وسؤال العفو والمغفرة للمذنب بواسطة النبيﷺ أو سائر الشفعاء يوم القيامة، وقد وردت في القرآن الكريم آيات تدلّ

١. غافر، ٧ ٢. صحيح مسلم، ج ٣، ص ٥٤

٣. صحيح الترمذي، ج ٤، ص ٤٢، باب ما جاء في شأن الصراط

علىٰ شرعية طلب الدعاء من الآخرين:

١. طلب أبناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم.[١]

٢. إيصاء المذنبين بالاستغفار من ذنوبهم أو طلب ذلك الاستغفار من النبي ﷺ.[٢]

وقد يقال: إن ما أنكرته الوهابية هو طلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد وفاته لا في حياته، والأدلة المذكورة تتعلّق بطلب الشفاعة والدعاء منه ﷺ في أيام حياته.

فنقول: إن طلب الدعاء من النبي ﷺ بعد وفاته إذا كان شركاً عند الوهابية، فهذا الحكم سيكون قائماً في كلا الحالتين ـ في حياته وبعد مماته ـ دون أي فرق، مضافاً إلىٰ أن وفاة النبي ﷺ تتعلق بجسمه، أما روحه فهي حيّة بلا ريب، وسماع طلب الدعاء والشفاعة وإجابة ذلك يتعلّق بالروح لا بالجسم، وقد ورد في أحاديث كثيرة أن النبي ﷺ يسمع الصلوات التي تُهدىٰ إليه بعد وفاته من قريب أو بعيد، ويستجيب لها.[٣]

كما ورد في آداب زيارة رسول الله ﷺ أن الزائر يدعو إلىٰ جانب قبر النبي ﷺ ويخاطبه بقوله: «جئنا لقضاء حقك والاستشفاع بك، فليس لنا يا رسول الله شفيع غيرك، فاستغفر لنا واشفع لنا».

وقد اتفق علماء المذاهب الأربعة لأهل السنة على استحباب ومندوبية طلب الشفاعة من النبي ﷺ عند زيارة قبره.[٤]

٢. مشركو عصر الرسالة وشفاعة الأصنام

لاشكّ في أن مشركي عصر الرسالة قالوا بشفاعة معبوداتهم وأصنامهم، لأن القرآن صرّح بذلك، ولكن ينبغي هنا أن نأخذ هذه النكات بنظر الاعتبار:

أ) ان ما يُستشف من الآية، هو أن اعتقاد الوثنيين بشفاعة أصنامهم ناشئ عن عبادتهم لها، لا أن مجرد الاعتقاد بشفاعتها أدىٰ إلىٰ شركهم لكي يقال أن الاعتقاد

١. يوسف، ٩٧ ٢. لنساء، ٦٤

٣. راجع: سنن أبي داود، ج ٢، ص ٢١٨؛ كنز العمّال، ج ١٠، ص ٣٨١؛ طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٤٠٦ـ٤٠٨؛ في ظلّ أصول الإسلام، ص ٢٥٨.

٤. كشف الارتياب، ص ٣٢٠، نقلاً عن: أحمد بن زيني دحلان، خلاصة الكلام.

بشفاعة غير الله أدىٰ إلى الشرك في العبادة.

ب) لم تتحدث الآية الكريمة عن طلب الشفاعة من الأصنام، بل كل ما في الأمر أنها تحدثت عن اعتقاد المشركين بشفاعة الأصنام ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ولم تقل: يقولون اشفعوا لنا عند الله.

وعلىٰ هذا الأساس، إذا كان استدلال الوهابية بهذه الآية صائباً، فلابد من القول بشرك طلب الشفاعة مطلقاً، وهذا يشمل الوهابية نفسها.

ج ـ دلّت الآية الشريفة على بطلان الشفاعة في عدة صور:

إحداها: صورة الاقتران بعبادة شخص أو شيء.

والثانية: إعطاء مقام الشفاعة لشخص أو فرد لم يعطه الله تعالى له.

والثالثة: إطلاق الشفاعة وعدم تقييدها بأي شرط أو قيد، وليس هناك في أوساط المسلمين من يعتقد بتلك العقائد في الشفاعة.

وصفوة الكلام أن الآية المذكورة ليست ناظرة إلى المسألة التي هي محل بحثنا، أي سؤال الشفاعة من الشفيع، وقد انعقد إجماع المسلمين علىٰ ذلك، وبالتالي فالذم الوارد فيها لا يتوجّه إلى الشفاعة المجمع عليها بين المسلمين.

٣. اختصاص الشفاعة بالله تعالىٰ

تُعدّ الشفاعة من مظاهر ربوبية الله سبحانه، نظراً لتأثيرها البالغ علىٰ مصير البشر، فهي أولاً وبالذات مختصّة بالله سبحانه، وهذا لا ينافي حق شفاعة الأنبياء والصالحين، ذلك أن شفاعتهم ليست ذاتية بل مستندة إلىٰ إذن الله ومشيئته.

هذا وقد تجلّىٰ ذلك في القرآن بوضوح، ففي الوقت الذي أثبت فيه أن الشفاعة مختصة بالله سبحانه، أثبت أيضاً أن الشفاعة لغير الله ـ نظير الملائكة والأنبياء ـ بإذنه أيضاً.

و علىٰ ذلك، مفاد هاتين الطائفتين من الآيات: أن الشفاعة مختصة بالله سبحانه، وشفاعة غيره بحاجة إلىٰ إذن الله ومشيئته.

و انطلاقاً من ذلك، فالآية الكريمة ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[1] لا تدلّ علىٰ نفي الشفاعة عن الآخرين البتة، كما أنها لا تدلّ علىٰ نفي الشفاعة من الشفعاء التي تعني طلب مغفرة الذنوب من الله سبحانه بواسطة الشفيع لا أنّه يغفر الذنوب بصورة مستقلة عن الله سبحانه، يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾: أي هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلّا بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذوناً له وهٰهنا الشرطان مفقودان جميعاً.[2]

١. الزمر، ٤٤

٢. تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٣٤٩، ط دار المعرفة، بيروت.

الباب الخامس

عدة فروع فقهيّة

١
التقية في الإسلام

تعريف التقية

التقية لغة من الوقاية وهي حفظ النفس أو المال أو العرض من الخطر عبر إظهار عقيدة تخالف مذهبه وتوافق مذهب الآخرين، ومنها التقوىٰ وهي صيانة النفس عن ارتكاب الحرام.

واما اصطلاحاً «فهي التحفظ علىٰ ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحق».[1]

وبعبارة أُخرىٰ «التقية اظهار خلاف الواقع في الأُمور الدينية بقول أو فعل خوفاً وحذراً على النفس أو المال أو العرض المعبّر عنه في هذا الزمان بالشرف علىٰ نفسه أو علىٰ غيره».[2]

العقل والتقية

التقية في الأصل مبدأ عقلي أُسِّس علىٰ قاعدة تقديم الأهم علىٰ المهم، وقد انعقدت سيرة العقلاء على ذلك، فإذا ما تعرّضت النفس أو المال أو العِرض إلى خطر وكان حفظ كل ذلك رهن اظهار قول أو فعل مخالف لمذهبه وموافق لمذهب من يحس من جانبه الخطر، فحينئذ تجب التقية حذراً منه ومن خطره، وقد دامت هذه السيرة واستقرت في

١. الشيخ الانصاري، رسالة التقية
٢. السيد محسن الامين، نقض الوشيعة، ص ١٨١

المجتمعات البشرية إلى يومنا هذا، فكلما تعرّض أمر أهم من نفس أو مال أو عرض للخطر يُقدَّم ذلك الأمر علىٰ كل هذه الأُمور.

وثمّة خلاف بين أتباع المذاهب المختلفة حول تعيين مصداق الأهمّ والمهم، بيد أنّ هذا الخلاف لا ينافي اتفاقهم على الحكم العام للتقية كما لا ينافي اتفاقهم علىٰ مصاديق محددة، مثل: الحفاظ علىٰ أمن الوطن وصدارته لقائمة الاولويات مما يعكس مدىٰ الأهمية التي يوليها العقلاء له، بحيث تدعوهم إلى بذل كل غال ورخيص في سبيله.

القرآن والتقية

دلّت بعض آيات الذكر الحكيم على التقية بوضوح باعتبارها قاعدة شرعية:

١. ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَـٰىٰةً﴾.[١]

هذه الآية تحذّر المؤمنين من اتخاذ الكافرين أولياء، بدل تعزيز أواصر الأخوة والمودّة والنصرة فيما بينهم، وتؤكّد أن من يفعل ذلك لا يحظىٰ بمنزلة ومقام عند الله سبحانه إلّا إذا توخّى الحذر والحيطة من الكافرين، فعند ذلك يجوز إبداء المودّة لهم.

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية بان يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق لأجل التوقّي من ضرر يعود من الاعداء إلى النفس أو العرض أو المال».[٢]

٢. ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[٣]

أشارت هذه الآية إلى شمول الغضب والعذاب الإلٰهي لكل من آمن ثم أظهر الكفر عن عمد واختيار، واستُثني من ذلك مَن أُكره وأُجبر على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان، فإنّه لا يشمله العذاب والغضب الإلٰهي، وهذا تعبير آخر عن مبدأ التقية.

نقل المحدّثون والمفسّرون من كلا الفريقين أن الآية نزلت في عمار بن ياسر: لما

---

١. آل عمران، ٢٨
٢. تفسير المراغي، ج ٣، ص ١٣٦
٣. النحل، ١٠٦

عذّب الكافرون عمّاراً وأباه ياسراً وأمّه سميّة وعدة من الصحابة، وقُتل أبو عمّار وأمّه وأعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا، فقال قوم: كفر عمّار، فقالﷺ: كلّا إنّ عمّاراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الايمان بلحمه ودمه، وجاء عمّار إلى رسول اللهﷺ هو يبكي، فقالﷺ: ما وراءك، فقالﷺ: شرّ يا رسول الله ما تُركت حتىٰ نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، فجعل رسول اللهﷺ يمسح عينيه ويقول: إنْ عادوا لك، فعُدْ لهم بما قلت. فنزلت الآية.[1]

٣. ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾.[2]

كان مؤمن آل فرعون يؤمن بموسىٰ عليه السلام ويتصل به خفية ويُطلعه علىٰ ما يُحاك ضدّه من مؤامرات علىٰ يد فرعون وبلاطه لقتله ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾[3] لكنه كتم إيمانه عن فرعون، وكتمان الايمان ليس إلا إظهار أقوال وأفعال توافق فرعون ورهطه وتخالف الحق ومن ثَمّ اللواذ إلىٰ التقية حفاظاً علىٰ نفسه وعلىٰ موسىٰ عليه السلام وقد نال جراء ذلك تكريماً وتمجيداً من القرآن الكريم.

٤. وثمّة آيات أُخرىٰ تدل بعمومها وإطلاقها علىٰ جواز التقية أو وجوبها.

- ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.[4]
- ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَـٰهَا﴾.[5]
- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.[6]

التقية من المسلمين

استُدلّ علىٰ جواز التقية من المسلم أو ا لكافر علىٰ حد سواء بعموم الآيات الثلاثة الاخيرة وإطلاقها، ووجه ذلك هو عموم الملاك فيها وعدم قابلية المورد علىٰ تخصيصه.

فعلىٰ ضوء ذلك يمكن القول بان الآيات المذكورة تعمّ التقية من المسلم أيضاً.

قال الفخر الرازي في تفسير الآية الأُولىٰ (آل عمران: ٢٨):

١. مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٨٨؛ تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٤٣٠؛ تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٢٨
٢. غافر، ٢٨ ٣. القصص، ٢٠ ٤. البقرة، ١٩٥
٥. الطلاق، ٧ ٦. الحج، ٧٨

ظاهر الآية علىٰ أن التقية إنما تحلّ مع الكفار الغالبين، إلا أن مذهب الشافعي أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلّت التقية محاماة عن النفس، وقال: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ: حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وقوله ﷺ: من قُتل دون ماله فهو شهيد.[١]

و قال المراغي في تفسير الآية الثانية (النحل: ١٠٦):

ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة وإلانة الكلام لهم، والتبسّم في وجوههم وبذل المال لهم لكفّ أذاهم وصيانة العرض منهم، ولا يُعدّ هذا من الموالاة المنهيّ عنها بل هو مشروع.[٢]

ونقل اليعقوبي في تاريخه:

أنّه لما دخل بسر بن أرطاة المدينة، أمر بإحضار جابر بن عبد الله الانصاري، فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال: إني قد خشيت أن أُقتل، وهذه بيعة ضلال، قالت: إذاً فبايع، فإن التقية حملت أصحاب الكهف على ان كانوا يلبسون الصلب ويحضرون الاعياد مع قومهم.[٣]

كما نقل الطبري في تاريخه أحداث المحنة ومسألة خلق القرآن، وذكر أن المأمون العباسي أمر القضاة والمحدثين بالاقرار بخلق القرآن وتوعدهم إنْ لم يستجيبوا لذلك، فأقروا له. وحينما استُنكر هذا الموقف منهم برّروه بما قام به عمار بن ياسر أمام الكفار.[٤]

هذا الحدث يكشف بوضوح عن هذه الحقيقة وهي أن التقية مبدأ عام ولا تختص بالكافرين، فكلما وُجدت ظروف قاهرة سواء من مسلم أو من كافر عندئذ تجب التقية.

التقية في روايات أهل البيت عليهم السلام

إلى هنا اتّضح أن التقية مبدأ وأسلوب عقلائي، وهي من ضروريات حياة البشر ومعترف بها عند الشرائع السماوية قاطبة لاسيما الإسلام بكافة طوائفه ومذاهبه، ومع

١. مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ١٣
٢. تفسير المراغي، ج ٣، ص ١٣٦
٣. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٠٠
٤. انظر: تاريخ الطبري، ج ١٠، ص ٢٨٤ـ٢٩٢

ذلك كله فقد وردت روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد علىٰ التقية وتولي شأناً كبيراً لها، مثل «لا ايمان لمن لا تقية له»[1] و«لا دين لمن لا تقية له».

قال الإمام الباقر عليه السلام: «التقية من ديني ودين آبائي»[2] وورد مثل ذلك علىٰ لسان الإمام الصادق عليه السلام.[3]

ويستشف من مطالعة مجموع روايات أهل البيت عليهم السلام أن التقية علىٰ نوعين:

أحدهما: التقية عن خوف، وثانيهما: التقية عن مداراة، وروايات التقية من النوع الأوّل أكثر من نظيرتها من النوع الثاني.

وقد تتعلّق التقية بالخوف من ضرر وخطر يلحق بنفس الشخص أو عرضه أو ماله، وقد تتعلّق أحيانا بنفس أو عرض أو مال أقربائه وعشيرته أو المؤمنين، وقد ترتبط بالخوف من وقوع ضرر وخطر على الإسلام والمذهب.

واما التقية عن مداراة فلا يخشىٰ فيها على الأُمور المذكورة الا انّه يتيسّر علىٰ ضوئها القيام بالمسؤوليات الدينية من هداية وإرشاد وتوثيق أواصر الأخوة والوحدة الإسلامية على أحسن وجه، وتشير الأحاديث التي ورد فيها تعبير «الجُنّة» أو «الترس» ـ عادة إلى التقية عن خوف، كما تشير الأحاديث التي توصي بحسن المعاشرة والالتزام بالاعمال الحسنة إلى التقية عن مداراة. ويعني ذلك أن الهدف الرئيسي والأساسي منها هو استقطاب أنظار خصوم الشيعة نحو التشيع إضافة إلىٰ تأثيرها في حفظ أنفُس وأعراض وأموال الشيعة.

روىٰ هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال:

> ايّاكم ان تعملوا عملاً نُعيَّر به، فإن ولد السوء يعيّر والده بعمله، كونوا لمن انقطعتم إليه زَيْناً، ولا تكونوا عليه شيْناً، صلّوا في عشائرهم وعودوا مرضاهم واشهدوا جنائزهم ولا يسبقوكم إلىٰ شيء من الخير فأنتم أولىٰ به منهم، والله ما عبد الله بشيء أحبّ إليه من الخبء، قلت: وما الخبء؟ قال: التقية.[4]

---

١. وسائل الشيعة، ج ٦، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، الباب ٢٤، ح ٢، ٣، ٦، ٢٢، ٢٩، ٣١
٢. المصدر السابق، ح ٢
٣. المصدر السابق، ح ٢٣
٤. المصدر السابق، الباب ٢٦، ح ٢

وقد فسّر أئمة أهل البيتعليهم السلام ضمن روايات عديدة الآية الكريمة ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1] فسّروها بالتقية والمراد بها التقية عن مداراة نظراً لمدلول الآية المتقدمة عليها في الدعوة إلى التوحيد والعمل الصالح، يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.[2]

تاريخ الشيعة وضرورة التقية

دلّ تاريخ الشيعة علىٰ حقيقة مُرّة، وهي تعرّضها لأصناف من الضغط والتعذيب والتنكيل والظلم والجور من قبل حكومات ظالمة تابعة لمذاهب أُخرىٰ تخالف الشيعة، وكان هذا الوضع على أشُدِّه في عهد أئمّة أهل البيتعليهم السلام إبّان الحكم الأموي والعباسي حيث ضُيِّق الخناق على الشيعة وصودرت حرياتهم السياسية والاجتماعية حتى عُدّ الاتّصال بأئمة أهل البيتعليهم السلام جريمة لا تغتفر، ومن الواضح انّه في ظلّ ظروف صعبة كتلك لا يبقىٰ أسلوب للحفاظ علىٰ التشيّع الذي هو بلورة الاسلام الاصيل سوىٰ ممارسة التقية سواء عن خوف أو مداراة.

ويمكن الوقوف ـ مع أخذ تلك الظروف القاسية بنظر الاعتبار ـ على مغزىٰ النظرة الواقعية الثاقبة لأئمّة أهل البيتعليهم السلام والمنحىٰ الحكيم الذي انتهجوه في هذا المجال، والذي يتلخص في بيان حقائق الدين للناس ومواجهة التحريف المعنوي للاسلام عن عمد أو سهو بأسلوب ثابت ومتأصّل، وترسيخ التشيّع بالرغم من تحمّلهم مصاعب وآلاماً جمّة وتقديم تضحيات جسيمة في هذا السبيل.

إن مَن يتحامل على الشيعة نتيجة تأكيدها على التقية لو نظر إلى الحقائق التاريخية نظرة موضوعية مجردة عن أي لجاج أو تعصب أو مكابرة لأعاد النظر في حكمه المتسرع هذا، ولأذعن لحقانية الشيعة في هذه المسألة بل وسائر المسائل الدينية، وفي الحقيقة إذا كان من المقرر ان يلام ويذم على ذلك أحد فلابد ان تلام حكومات بني

---

١. فصّلت، ٣٤ ٢. فصّلت، ٣٣

أمية وبني العباس والحكومات الظالمة في دنيا الإسلام، تلك الحكومات التي تدّعي ـ وما تزال ـ انتماءها لمذاهب أهل السنة وتمارس أبشع ألوان الظلم والتعسف بحق الشيعة، كذلك ينبغي أن يلام بعض علماء أهل السنة الذين أفتوا بإباحة نفوس وأموال وأعراض الشيعة وشجّعوا حكوماتهم علىٰ ممارسة التعذيب والقتل والتنكيل بحق الشيعة.

كل هذا الظلم والجور بحق الشيعة أمر لا ينكر في تاريخ الإسلام، ويعد من أبشع الفجائع التاريخية التي يندىٰ لها جبين الإنسانية والذي عكست جانباً منه الكتب التاريخية لأهل السنة فضلاً عن كتب الشيعة. وعلىٰ الرغم من ذلك كله فثمّة أشخاص كموسىٰ جار الله[1] دفع بهم اللجاج والعناد إلى اتّباع أسلوب السفسطة وإنكار كافة الحقائق التاريخية، وادعاء أنّ الشيعة لم تتعرض لإجراءات تعسفية كالتي ذكرت آنفا نتيجة الافصاح عن عقائدها، وكل ما نقل أو قيل في هذا الصدد فإنما هو من مختلقات الشيعة، كأنه لم ينظر أو يتصفّح الكامل لابن الأثير أو أنّه تصفّحه وطالعه وتصوّر أن مؤلِّفه كان شيعياً، أو انّه أنكر هذه الحقائق الساطعة عن عمد.

الاجابة عن شبهتين

الشبهة الأُولى: ذهب بعض الوهابية ـ ممن لاهمَّ لهم سوىٰ خصومة الشيعة وتحريف الحقائق والكذب والافتراء عليهم ـ إلى القول باستلزام مبدأ التقية عند الشيعة الكذب والنفاق، الأمر الذي دفع بهم إلى رده.[2]

والجواب عنها: أولاً: أنّ مبدأ التقية ـ كما تقدم ـ ليس من مختصات الشيعة فحسب بل يعم المسلمين كافة بل حتىٰ عقلاء البشر، فلو كان مستلزماً للكذب والنفاق، لورد

---

١. مؤلف كتاب الوشيعة في نقض عقائد الشيعة وقد تصدّىٰ العلّامة السيد محسن الامين العاملي للردّ عليه في كتاب نقض الوشيعة أو الشيعة بين الحقائق والاوهام. راجع حول نقد هذا المقطع من كلام جار الله كتاب نقض الوشيعة، ص ١٩٧ ـ ٢٠١.

٢. من الذين اثاروا هذه الشبهة محمد عبد الستار في كتاب بطلان عقائد الشيعة وموسىٰ جار الله في كتاب الوشيعة واحسان الهي ظهير في كتبه ضد الشيعة.

هذا الإشكال علىٰ المسلمين بجميع مذاهبهم وطوائفهم لا على الشيعة فقط.

وثانياً: قد يجوز الكذب عقلاً وشرعاً فيما لو ترتّبت عليه مصلحة أهمّ، نعم لابد ـ مهما أمكن ـ من ممارسة التورية كما ورد في الحديث «ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب» ومن أمثلة ذلك كما جاء في الكتب الفقهية اصلاح ذات البين الذي استحوذ على أهمّية كبيرة في الشريعة الإسلامية حتى جاء في الحديث الشريف «اصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام».[1]

وثالثاً: إنّ النفاق ـ كما جاء ذكره في القرآن الكريم والأحاديث ـ عبارة عن اظهار الحق وكتمان الباطل الذي يعتقده، بينما التقية على عكس ذلك تماماً وهي اظهار الباطل وكتمان الحق الذي يؤمن به.

وقد ذمّ القرآن الكريم المنافقين ما بلغ للذم متّسع، ومدح التقية باعتبارها عملاً مشروعاً وراجحاً، وقد أوصىٰ بها رسول الله ﷺ عمّاراً لما قال: «إنْ عادوا لك، فَعُدْ لهم بما قلت».

الشبهة الثانية: أورد بعض الوهابية شبهة أُخرىٰ وقالوا: لما تبنّت الشيعة التقية كمبدأ عام، فقد أصبح من المتعذر الوقوف على عقائدهم وآرائهم الواقعية وذلك لاحتمال خضوعها لمبدأ التقية فتكون عندئذ عارية عن أي قيمة علمية.

والجواب عنها: هذه الشبهة تطرح تارة على صعيد روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام وتارة أُخرىٰ علىٰ صعيد أقوال وكلمات أعلام الشيعة.

فاما على صعيد روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام فنقول:

أوّلاً: لقد بيّن الأئمة المعصومون عليهم السلام وبأساليب مختلفة طرق معرفة الأحكام الواقعية عن أحكام التقية، فمثلاً من المرجحات في باب التعارض هو المخالفة لأقوال وآراء مذاهب العامّة.

ثانياً: علىٰ فرض عدم التمكن من فرز الحكم الواقعي عن الحكم الناشئ تقية فيتوصل عندئذ إلى الاجتهاد بناءً على قواعد مقررة ومعروفة لدىٰ الشيعة، وبذلك

---

١. نهج البلاغة، قسم الوصايا، برقم ٤٧

تنحلّ أية مشكلة أو معضلة عالقة أمام أتباع مذهب أهل البيت‌عليهم‌السلام وعلى هـذا يـلزم علىٰ من يصدر حكماً علىٰ مذهب أئمة أهل البيت‌عليهم‌السلام أخذ كافة الجوانب بنظر الاعتبار ويحذر من إبداء أي رأي مسبق أو تفسير بالرأي فيه.

ثالثاً: التقية ليست جارية في كافة المعارف النظرية والأحكـام العـملية والقـضايا الاخلاقية لكي يصعب فهم واستيعاب مـذهب أهـل البـيت‌عليهم‌السلام فـي حـقل المـعارف والأحكام الإسلامية.

جدير بالذكر ان التقية وان كانت مبدأ عقلائياً وشرعياً ولكنها مبدأ ثانوي لا أصلي، لان الأصل الأولي في أحاديث أئمة أهل البيت‌عليهم‌السلام هو عدم التقية، واحتمال التقية إنما يصار إليه في موارد خاصة ومحدودة وليس من الصعب معرفتها من قِبَل أهل المعرفة والتحقيق وممّن له إلمام بمباني أهل البيت‌عليهم‌السلام.

وأما علىٰ صعيد أقوال وكلمات أعلام الشيعة، فهي مـبثوثة فـي كـتب تـفسيرية وكلامية وفقهية عديدة ومتوافرة في المكتبات والمراكز العلمية، ويمكن تصنيفها إلى عدة طوائف، فطائفة متفق ومجمع عليها وأُخرىٰ محلّ اتفاق الأكثر أو الاشهر وثالثة مختلف فيها، وعلى أية حال فآراؤهم ونظرياتهم ليست طي الكتمان والسرية لكي لا يتيسّر الاطلاع عليها ومن ثم التردد فيها.

نعم طرحت هذه الشبهات من قبل المغرضين ومرضىٰ القلوب الذين دعا بهم الأمر ـ بدل الرجوع إلى الكتب المعتبرة والأقوال المشهورة لأعلامهم بـغية الوقـوف عـلى حقيقة مبادئ الشيعة والتشيع ـ إلى الرجوع إلى الأقوال الشاذة أو غير المعتبرة ونشرها كعقائد وآراء للشيعة أو تحريف عقائدها وآرائها انطلاقاً من آرائهم المسبقة بهدف بلبلة أفكار السذج من الناس.

وقد نسبت بعض كتب الملل والنحل[1] إلى الشيعة القول بجواز اظهار الأنبياء الكفر تقية، في حين صرح أعلام الشيعة بعدم جواز التقية في هذا المورد للزوم عدم إبلاغ الدين إلى الناس، وما من شك في أن ظروف الأنبياء كانت صعبة للغاية خاصة فـي

١. شرح المواقف، ج ٨، ص ٢٦٤؛ شرح المقاصد، ج ٥، ص ٥٠

أوائل البعثة نظراً لكثرة خصومهم ومناوئيهم، وتعدّ تلك الظروف من أظهر شرائط التقية الا ان هذا لا يبرّر لهم التمسك بالتقية واظهار الكفر والشرك بدل التوحيد لما فيه من انهيار اركان تبليغ الدين وبالتالي نقض غرض النبوة.[١]

مستثنيات التقية

التقية لاسيما التقية عن خوف مبدأ ثانوي ـ كما تقدّمت الاشارة إلى ذلك ـ والهدف منها هو حفظ النفس أو العرض أو المال وحفظ الدين والشريعة أيضاً فإذا توقف حفظ تلك الأُمور على التقية فسوف تكون واجبة دون شك وأما إذا أسفرت عن خلاف الغرض المطلوب منها فسوف تكون حراماً، ويطلق على هذه الموارد عنوان مستثنيات التقية، ونجد من المناسب هنا نقل كلام للإمام الخميني‌ﷺ حول موارد حرمة التقية:

١. بعض المحرمات والواجبات التي في نظر الشارع والمتشرعة في غاية الاهمية مثل هدم الكعبة والمشاهد المشرّفة بنحو يمحو الاثر ولا يُرجىٰ عوده، ومثل الرد على الإسلام والقرآن والتفسير بما يفسد المذهب ويطابق الإلحاد وغيرها من عظائم المحرمات.

٢. إذا كان المتقي ممن له شأن وأهمية في نظر الخلق بحيث يكون ارتكابه لبعض المحرمات تقية أو تركه لبعض الواجبات مما يعدّ موهناً للمذهب وهاتكاً لحرمته كما لو أكره على شرب المسكر والزنا مثلا، ولعله عليه محمول قول الصادق‌ﷺ في صحيحة زرارة: ثلاثة لا أتقي فيهن أحداً: «شرب المسكر ومسح الخفّين ومتعة الحج».

٣. لو كان أصل من أُصول الإسلام أو المذهب أو ضروري من ضروريات الدين في معرض الزوال والهدم والتغيير كما لو أراد المنحرفون الطغاة تغيير احكام الارث والطلاق والصلوة والحج وغيرها من أصل الأحكام فضلاً عن أُصول الدين فان التقية في مثلها غير جائزة. ضرورة ان تشريعها لبقاء المذهب وحفظ الأُصول وجمع شتات المسلمين لاقامة الدين وأُصوله فإذا بلغ الأمر إلى هدمها فلا تجوز التقية».[٢]

---

١. انظر: ارشاد الطالبين، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

٢. الرسائل، ص ١٧٧، ١٧٨

٢

السنّة والبدعة

السنّة لغة واصطلاحاً

السنّة لغةً هي الأسلوب والسيرة وجمعها سنن مثل غرفة وغرف وأما اصطلاحاً فقد نسبها القرآن الكريم إلى الله سبحانه تارة وإلى الاولين والماضين تارة أُخرى قال سبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.[١]

وقال عزّ من قائل: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٢] والمراد من السنّة الالهية هي طريق الحكمة وأسلوب إطاعته سبحانه، والسنّة الالهية في حق البشر هي ان يخلقهم خلقاً مستمراً، أمة تلو أمة، قرناً بعد قرن ويبعث فيهم الأنبياء والكتب والشرائع السماوية ليعلمهم الاطاعة والعبودية وليمتحنهم كي يتيسّر لهم الوصول إلى كمالهم المطلوب في ظلّ الانتخاب والاختيار وفي ظل الإيمان والعمل الصالح.

أما سنّة الأمم فهي تكذيب الأنبياء واتخاذ سبيل المعصية والطغيان مما يؤدّي بهم إلى السقوط في دوّامة العذاب الالهي والهلاك والفناء.[٣]

يقول جلّ شأنه ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٤] ويقول أيضاً ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.[٥]

---

١. الفتح، ٢٣ — ٢. الانفال، ٣٨ — ٣. انظر: الميزان، ج ١٥، ص ٣٤.

٤. الكهف، ٥٥ — ٥. غافر، ٨٥

كما ورد للسنّة معنيان في روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام: أحدهما هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله من جانب الله سبحانه في سبيل سعادة البشر، والسنة بهذا المعنى تضم كافة الأحكام الشرعية (التكليفية والوضعية).

وثانيهما الاستحباب والندب، فإذا ما ذكرت السنة عادة إلى جانب الكتاب فالمراد بها هو المعنى الأوّل. روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما من شيء إلّا وفيه كتاب أو سنّة»،[١] وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «من أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة زالت الجبال ولم يزل».[٢]

واما إذا ذكرت إلى جانب البدعة، فالمراد بها المعنى الثاني وهذا المعنى له استعمالات كثيرة، منها:

١. السواك هو من السنة ومطهرة للفم.[٣]

٢. من السنة أن تصلي علىٰ محمد وأهل بيته في كل جمعة ألف مرة.[٤]

والسنة في اصطلاح الفقهاء هي قول المعصوم أو فعله أو تقريره، وعند المسلمين هي قول النبي صلى الله عليه وآله أو فعله أو تقريره ومن ثم فقد ذهبت الشيعة إلى عصمة أهل البيت عليهم السلام لاسيما في القول أو الفعل أو التقرير وأدرجت كل ذلك في نطاق السنة.

وإثبات السنة يتم بأحد نحوين: متواتر وغير متواتر، فالنقل المتواتر يفيد العلم ولاشك فيه، والنقل غير المتواتر على نحوين: أما أن يكون مصحوباً بقرائن تفيد العلم ولا كلام في حجيته، وأما أن لا ترافقه قرائن تفيد العلم فيفيد الظن فقط، ويكون حجة فيما إذا كان الناقل له ثقة أو عدلاً، وتفصيل هذه المباحث موكول إلى علم أُصول الفقه.

البدعة في اللغة والاصطلاح

البدعة لغة من الإبداع وهي إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، ومنه قيل: ركية بديع أي جديدة الحفر، وإذا استعمل في الله تعالى فهو ايجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان

---

١. أصول الكافي، ج ١، كتاب فضل العلم، باب الردّ إلى الكتاب والسنة، ح ٤
٢. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٩٥ ٣. المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٧
٤. المصدر السابق، ج ٥، ص ٧٢

ولا مكان وليس ذلك الا الله، والبديع يقال للمبدع نحو قوله ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويقال للمبدع نحو ركية بديع، وكذلك البدع، يقال لهما جميعاً بمعنىٰ الفاعل والمفعول، وقوله تعالىٰ:﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، قيل معناه مبدعاً لم يتقدمني رسول وقيل مبدعاً فيما أقوله.[١]

وقد استخدم لفظ البدعة في الروايات مقابل الشريعة والسنة. والمراد بـه مـخالفة الشريعة الإسلامية والسنة النبوية، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما الناس رجلان متبع وشرعة ومبتدع بدعة»[٢] ويقول عليه السلام في رسول الله صلى الله عليه وآله «أظهر به الشرائع المجعولة واقمع به البدع المدخولة».[٣] ويقول عليه السلام أيضاً: «ما أُحدثت بدعة الا تُرك بها سنة».[٤]

وقد عرّف الفقهاء البدعة بتعاريف مختلفة، وإليك نزراً يسيراً منها:

١. البدعة ما أُحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعاً وان كان بدعة لغة.[٥]

٢. ما أُحدث وليس له أصل في الشرع وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة.[٦]

٣. البدعة زيادة في الدين أو نقصان منه من اسناد إلى الدين.[٧]

٤. البدعة الحدث في الدين وما ليس له أصل في كتاب أو سنة.[٨]

٥. البدعة في الشرع ما حدث بعد الرسول ولم يرد فيه نص على الخصوص ولا يكون داخلاً في بعض العمومات أو ورد نهي عنه خصوصاً أو عموماً.[٩]

وحاصل هذه التعاريف هو ان البدعة في اصطلاح علماء الحديث والفقه هي زيادة في الدين أو نقصان منه، وبعبارة أُخرىٰ ما لم يكن له مثال موجود في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وأُدخل في الدين ما ليس منه دون ان يعضده دليل من كتاب أو سنة، سواء أكان نصاً أم ظاهراً، وسواء أكان خاصاً أم عاماً.

١. مفردات ، مادّة بدع ٢. نهج البلاغة، خ ١٧٦ ٣. نهج البلاغة، خ ١٦١
٤. المصدر السابق، خ ١٤٥ ٥. ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص ١٦٠
٦. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٧، ص ٩
٧. الشريف المرتضى، الرسائل، ج ٢، ص ٢٦٤
٨. الطريحي، مجمع البحرين، مادّة بدع
٩. العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢٠٢، ٢٠٣

لذلك فكل قول أو فعل لا مثال له استند إلى كتاب أو سنة لا يكون بدعة على الرغم من احتمال طروء الخطأ عند استنباطه من كتاب أو سنة وما ذلك إلا لمعذرية المجتهد إذا اخطأ.

يُذكر ان الأحكام القطعية والجزمية للعقل نالت تأييداً من القرآن والروايات. وعلىٰ ضوء ذلك اعتبر العقل القطعي من مصادر التشريع، وعلى هذا فليس كل ما استنبط من حكم بديع استناداً إلى حكم العقل القطعي، من البدعة في شيء.

حرمة البدعة

البدعة ـ كما تقدم ـ هي زيادة في الدين أو نقصان منه، وتُعدّ حراماً ومن الذنوب الكبيرة بدلالة الكتاب والسنة والإجماع والعقل، لأن التشريع خاص بالله تعالى بحكم العقل ولا يحق لأحد التشريع إلا بإذنه ومشيئته.

وقد ذم القرآن الكريم اليهود لأنهم أطاعوا أحبارهم ورهبانهم إطاعة عمياء وقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] فعلماء اليهود لم يدعو الناس إلى عبادتهم، كل ما هنالك أنهم حرّموا حلال الله وأحلّوا حرامه فانقادوا لهم وأطاعوهم، هذا النوع من الطاعة هو في الواقع عبادة لهم.[2]

وقد نهت الروايات عن البدعة باعتبارها تستوجب العذاب الالهي والوعيد بالنار، وجاء في الحديث النبوي المعروف «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار».[3]

وقد وصف الإمام علي عليه السلام أهل البدع بقوله: «ان ابغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل ومشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة... حمّال خطايا غيره رهن بخطيئته».[4]

---

١. التوبة، ٣١
٢. انظر: أصول الكافي، ج ٢، كتاب الايمان والكفر، باب الشرك، ح ٣؛ تفسير الطبري، ج ١٠، ص ٨٠، ٨١.
٣. انظر: أصول الكافي، ج ١، كتاب فضل العلم، باب البدع، ح ١٢؛ ابن الأثير، جامع الأُصول، ج ٥، ح ٣٩٧٤.
٤. نهج البلاغة، خ ١٧

البدعة والضلالة

ان البدعة بما لها من مضاعفات ودور سلبي ومخرّب هي في مقابل الدين والنبوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما لها من دور بنّاء وتربوي، فكم من فتن ومجازر شهدها البشر طول التاريخ اثر بدع في الدين، وكم من دماء طاهرة سالت على الأرض في اعقاب بدع ابتدعها من يتقمص زي عالم دين كشريح القاضي الذي باع دينه طمعاً في مقام وحرصاً على مال وابتدع بدعاً اثارت فيما بعد فتن وقلاقلَ أسفرت عن مجازر رهيبة كحادثة كربلاء الدموية، ولذلك فقد اعتبر أمير المؤمنين عليه السلام البدع أساس الفتن، وقال: «انما بدْء وقوع الفتن أحكام تُبتدع وأهواء تُتَّبع، يُخالَف فيها كتاب الله ويتولّىٰ فيها رجال رجالاً علىٰ غير دين الله».[١]

مواجهة البدعة

البدعة من الذنوب التي تنعكس على الحياة الاجتماعية، حيث تدفع بالمجتمع إلى السقوط في ورطة الفساد والانحراف والضلال. من هنا فالواجب يحتم على المسلمين قاطبة مواجهة أهل البدع عبر النهي عن المنكر، هذا إلى جانب المسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتق علماء الإسلام في مواجهة البدع في الدين بما لها من خلفيات علمية ونظرية، وإلى هذين الأمرين اشارت الروايات التالية:

١. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من اتىٰ ذا بدعة فعظّمه فانما يسعىٰ في هدم الإسلام».[٢]

٢. وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم».[٣]

٣. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم».[٤]

٤. روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «إذا رأيتم صاحب بدعة فاكفهرّوا في وجهه، فان الله ليبغض كلّ مبدع».[٥]

٥. روي عن النبي صلى الله عليه وآله انّه قال: «إذا ظهرت البدع في أُمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله».[٦]

---

١. نهج البلاغة، خ ٥٠
٢. أصول الكافي، ج ١، كتب فضل العلم، باب البدع، ح ٣
٣. أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٨، باب مجالسة أهل المعاصي، ح ٤
٤. المصدر السابق، ح ٣
٥. ابن الاثير، جامع الأُصول، ج ٩، ص ٥٦٦
٦. أصول الكافي، ج ١ كتاب فضل العلم، باب البدع، ح ٢

بدعة هدىً وبدعة ضلال عند أهل السنة

اتضح من الابحاث الماضية حرمة وضلالة البدعة وبالتالي خطأ تصنيفها إلى بدعة هدىً وبدعة ضلال.

يقول ابن الأثير:

البدعة بدعتان: بدعة هدىً وبدعة ضلال، فما كان في خلاف ما أمر الله بهورسولهﷺ فهو في حيّز الذم والانكار وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب اللهإليه وحضّ عليه الله أو رسوله فهو في حيّز المدح وما لم يكن له مثال موجودكنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ولايجوز ان يكون ذلك في خلاف ما ورد في الشرع، لان النبيﷺ قد جعل لهفي ذلك ثواباً، فقال: «من سنّ سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها» وقال في ضدّه «ومن سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها» وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسولهﷺ.

ثم أضاف: ومن هذا النوع قول عمر [في صلاة التراويح][١]: نعمت البدعة هذه لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيّز المدح سماها بدعة ومدحها، لأن النبيﷺ لم يسنّها لهم وانما صلاها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها ولا جمع الناس لها ولا كانت في زمن أبيبكر وانما عمر جمع الناس عليها وندبهم اليها فبهذا سمّاها بدعة.

وحاول ابن الأثير إضفاء صبغة شرعية على البدعة المذكورة وجعلها من مصاديق السنة لما قال: وهي في الحقيقة سنة لقولهﷺ «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» وقوله «واقتدوا باللذين من بعدي أبيبكر وعمر».[٢]

بحث ونقد

تقدم فيما سبق خطل تقسيم البدعة في المصطلح الشرعي إلى بدعة هدىً وبدعة ضلال، ذلك أنها شرعاً ليست سوىٰ إبداع حكم يخلو من أي مستند شرعي، فهي حرام

١. صلاة التراويح هي نوافل ليالي شهر رمضان يأتي بها أهل السنة جماعة، وسمّيت بالتراويح لاستراحة القوم بين كل أربع ركعات /لسان العرب، مادة روح/.
٢. ابن الأثير، النهاية، ج ١، ص ٧٩

ومبغوض شرعاً ـ كما تقدمت الادلة على ذلك ـ وقد ذهب ابن الأثير وسائر علماء أهل السنة إلى ان النبيﷺ لم يسنّ صلاة التراويح جماعة بل نهىٰ عنها،[1] ومع هذا فكيف يمكن إطلاق بدعة هدىٰ وسنة عليها؟

والحديثان اللذان أوردهما ابن الأثير لإثبات ندب صلاة التراويح جماعة بأمر عمر وأنها من السنة ـ علىٰ فرض صحتهما سنداً ـ لا يكفيان لإثبات مدّعاه.

أما الحديث الثاني فليس مفاده سوىٰ الاقتداء بأبي‌بكر وعمر وهو بإطلاقه يعمّ غير هذا المورد، إلّا أن هذا الإطلاق يقيّد بحديث «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وعلى هذا فلا يمكن الاستناد إلى فعل عمر لأن إقامة صلاة التراويح جماعة خلاف لسنة النبيﷺ ومعصية للخالق.

وأما الحديث الأوّل فيرد عليه:

أوّلاً: إنّه لا يختص بالخليفة الأوّل والثاني بل ذكر سنة الخلفاء الراشدين ومن الواضح ان علياًﷺ ذهب إلىٰ اعتبار تلك الصلاة بدعة، فكيف يأمر رسول اللهﷺ الناس باتباع سنتين متضادتين ومتعارضتين، وإذا اتبعنا مبدأ نسخ الحكم اللاحق للحكم السابق فعليﷺ أولىٰ بالاتّباع واعتبار إقامة صلاة التراويح جماعة من البدعة.

ثانياً: للسنة في اصطلاح علماء أهل السنة معنيان: أحدهما خاص والآخر عام، فالمعنىٰ الخاص هو عبارة عن قول النبيﷺ وفعله وتقريره، والمعنىٰ العام يعمّ كل ما أُثر عن النبيﷺ أو الصحابة أو التابعين.

وتُعدّ السنة بالمعنىٰ الخاص من مصادر التشريع الإسلامي بعد الكتاب الكريم، قال نجم الدين الطوفي[2] في كتابه شرح مختصر الروضة لما بيّن أُصول ومنابع الاحكام، قال: الأُصول: الكتاب والسنة والإجماع واستصحاب النفي الأصلي.

ثم قام بتعريف السنة وقال: السنة لغة، الطريقة وشرعاً اصطلاحاً ما نقل عن رسول اللهﷺ قولاً أو فعلاً أو اقراراً.

---

١. راجع: آية الله جعفر السبحاني، البدعة، ص ١٧٤ـ١٩٨.

٢. نجم الدين الطوفي (٦٥٧ـ٧١٦ ﻫ) من اعلام الحنابلة، قام بشرح كتاب مختصر الروضة وهو تلخيص لكتاب روضة الناظر لابن قدامة المقدسي الحنبلي وهو من الكتب المعتبرة في أُصول الفقه على مباني المذهب الحنبلي.

ثم قال عند شرحه ذلك: وقوله (شرعاً اصطلاحاً) احترازاً عن السنة في العرف الشرعي العام فانها تطلق علىٰ ما هو أعمّ مما ذكرناه وهو المنقول عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين ﷺ».[1]

تشخيص البدعة

إن إحدى المسائل المهمة في مبحث البدعة هي تمييز مصاديقها نظراً لاتهام أتباع المذاهب الإسلامية بعضهم البعض بالبدعة في الدين طول التاريخ بينما لو أخذنا حقيقة البدعة بنظر الاعتبار لخرج العديد من تلك المصاديق عن دائرة البدعة. وحتىٰ لو فرض بطلان تلك المعتقدات والآراء فهذا لا يبرر إطلاق البدعة عليها، والتي هي نسبة رأي أو حكم إلى الدين دون استناده إلىٰ دليل من كتاب وسنة وعقل ونص وظاهر وعام وخاص ومطلق ومقيد، وأما إذا استند إليه فلا تعدّ بدعة وإنْ خالف سائر الآراء ولا يطلق علىٰ صاحبها مبتدع في الدين، وعلىٰ الرغم من ذلك فقد أطلقت كتب الملل والنحل عنوان البدعة في الدين علىٰ نظرية القدرية والمفوضة في باب القدر والاختيار.

هذه التسمية أصبحت وبالاً علىٰ القدرية حيث أدت بالجهاز الأموي إلىٰ مواجهتها وإعمال السيف فيها بذريعة الابتداع في الدين مع أن ما ذهبت إليه القدرية وإنْ كان باطلا إلا أنّه ليس من مصاديق البدعة في الدين لصدورها عن ظواهر القرآن وحكم العقل صدوراً مجرداً عن الموضوعية وبعيداً عن جادة الصواب.

هذا مما دعا أئمة أهل البيت عليهم السلام إلىٰ إطلاق تعبير «مساكين القدرية» عليهم ذلك انهم «أرادوا أن يصفوا الله عزوجل بعدله فأخرجوه من قدرته وسلطانه».[2]

كما أطلق ابن خلدون عنوان البدعة على نظرية نفي الصفات الزائدة عن الذات والكلام النفسي والحسن والقبح العقلي والنص على الإمامة، وبناء على ذلك فالشيعة والمعتزلة ـ على حد زعمه ـ مبتدعون في الدين. ثم ذكر أبا الحسن الاشعري وأنّه

---

١. يقول الشهرستاني، حدثت في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري في القول بالقدر وانكار اضافة الخير والشر إلى القدر ونسج على منوالهم واصل بن عطاء الغزّال. الملل والنحل، ج ١، ص ٣٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٥، ص ٥٤

نهض لمكافحة تلك العقائد المبتدعة،[١] وغفل عن أنّ أتباع تلك المعتقدات قد استدلوا عليها بآيات الذكر الحكيم والروايات وحكم العقل، فإذا كانت تلك الادلة عارية عن الصحة عند ابن خلدون فهذا لا يخوّله الحق في تسميتهم بالمبتدعين.

وقد حازت الوهابية قصب السبق في مضمار اتهام الفرق الإسلامية بالبدعة والابتداع، فالكثير من المستجدات التي طرأت خلال القرون الثلاثة الأُولىٰ للهجرة والتي خلت من مثال موجود هي بدعة بنظرهم وحرام، كقراءة الاذكار المندوبة علىٰ المآذن قبل وبعد الأذان والإقامة، والإجهار بقراءة القرآن على المنارات، والصلوات على النبيﷺ عقب الاذان وفي ليالي الجمعة وفي ليالي شهر رمضان، وإقامة الاحتفال بمناسبة ذكرىٰ ميلاد النبيﷺ، والإجهار بقراءة القصائد والمدائح جماعة، والإجهار بقراءة الاذكار المندوبة مثل قول لا اله الا الله حين تشييع الجنائز، وما إلى ذلك.

وكان محمد بن عبد الوهاب ـ حسب نقل مؤلف خلاصة الكلام [٢] ـ قد نهىٰ عن ذكر الصلوات على النبيﷺ في ليالي الجمعة والاجهار بها على المنارات كما أمر بقتل مؤذن صالح مكفوف البصر صلىٰ على النبي ﷺ بعد الاذان دون ان يعر أهمية للنهي الصادر.

ويتضح من خلال بيان ملاك ومعيار حقيقة البدعة أن الموارد المذكورة ليست من البدعة في شيء، ذلك أنها تندرج تحت الاطار العام للندب الشرعي، فقراءة الاذكار مستحبة ومندوبة مطلقاً في أي زمان ومكان لاسيما حين قراءتها في ليالي الجمعة أو قبل وبعد الاذان، أو ما بين الاذان والاقامة وعند تشييع الجنائز.

نعم تكون بدعة لمن اعتقد بورود أثر خاص بها، أما إذا لم يعتقد ذلك بل كان الغرض من الإتيان بها هو مناسبتها للأذان الذي يحظىٰ بشأن كبير عند الشارع المقدس أو شرف ليالي الجمعة فلا تعدّ بدعة بوجه من الوجوه.

وهكذا إقامة مراسم الاحتفال بمناسبة ذكرىٰ ميلاد النبيﷺ أو إقامة مجالس العزاء لأهل بيته عليهم السلام، كل هذا يندرج تحت الاطار العام لتكريم وتعظيم النبيﷺ وأهل

١. انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٤٦٤، ٤٦٥، ط دار القلم، بيروت.
٢. أحمد بن زيني دحلان، خلاصة الكلام في أُمراء البلد الحرام، ص ٣٢؛ كشف الارتياب، ص ١٤٢، ١٤٣

بيته واظهار المحبة والمودة لهم، وقد ندب إليه الشارع، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١] وقال النبيﷺ: «لا يؤمن احدكم حتى أكون احب إليه من ماله وأهله والناس اجمعين»،[٢] وهكذا لم يمنع النبيﷺ نساء الانصار عن إقامة العزاء والنياحة على شهدائهن فحسب، بل انّهﷺ لما لم يسمع من دار حمزة سيد الشهداء نَوْحاً ولا بكاءً قال: «لكن حمزة لا بواكي عليه» فآلىٰ أهل المدينة أن لا ينوحوا على ميت ولا يبكون حتى يبدؤا بحمزة فينوحوا عليه ويبكوه، فرغب رسول اللهﷺ في ذلك ودعا لهم.[٣]

نعم إن ما يجب على كل مسلم رعايته هو الاجتناب عن المحرمات الالهية حين إقامة مجالس الاحتفال أو العزاء لرسول اللهﷺ وأهل بيته عليهم السلام أو إقامة مراسم التأبين، وهذا لا يختص بالمندوبات بل ينبغي رعاية ذلك على كل حال.

---

١. الشورى، ٢٣ ٢. جامع الأُصول، ج ١، ص ٢٣٨

٣. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٩٩.

٣
كيفية الوضوء

الوضوء من العبادات الإسلامية، وهو مستحب في عين أنه مقدمة لعبادات أُخرىٰ كالصلاة. قال الإمام الباقر عليه السلام: «لا صلاة الا بطهور».[١] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «افتتاح الصلاة الوضوء، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»،[٢] وروي هذا عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً.[٣]

وثمّة أحكام فقهية للوضوء جاء تفصيلها في كتب الفقه، ونكتفي هنا ببحث كيفية الوضوء والاختلاف الواقع بين الفريقين في هذا الصدد، والذي يدور حول محورين:

الأوّل: غسل أعضاء الوضوء من أعلى إلى أسفل عند الشيعة وليس ذلك بشرط عند أهل السنة.

الثاني: مسح الرأس والرجلين بعد غسل الوجه واليدين عند الشيعة وغسلهما وعدم جواز مسحهما عند أهل السنة.

آية الوضوء

لابد ـ قبل كل شيء ـ من تناول آية الوضوء بحثاً وتمحيصاً، ليتضح على ضوء ذلك دليل الشيعة، قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.[٤]

١. وسائل الشيعة، ج ١، ص ٢٥٦، أبواب الوضوء، الباب ١، ح ١
٢. المصدر السابق، ح ٤ ٣. المصدر السابق، ح ٧ ٤. المائدة، ٦

يستفاد من الآية الكريمة ان الوضوء يتألّف من فعلين غسل ومسح، فما اختلف به الشيعة عن أهل السنة انما هو في كيفية غسل الوجه واليدين.

فهل يجب الغسل من أعلى إلى أسفل أو يصح ذلك بأي نحو اتفق؟ وهل يجب غسل الرجلين أو مسحهما؟

كيفية غسل الوجه واليدين

أجمع فقهاء الإمامية على وجوب غسل الوجه واليدين من أعلى إلى أسفل،[١] هذا وإن لم يكن مبيّنا في آية الوضوء الا ان أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام بشأن كيفية الوضوء قد دلّت عليه هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد جرت سيرة العرف ـ عادة ـ على غسل اعضاء الجسم كاليد والرجل من أعلى إلى اسفل، واللفظ المطلق ينصرف إلى الفرد الشائع، وإذا تجاوزنا ذلك فلم ينقل خلاف بين الشيعة في هذا الصدد ما خلا السيد المرتضى،كما لم ينقل خلاف عن أصحاب الأئمة عليهم السلام أيضاً، ومع أخذ تلك الوجوه والشواهد بنظر الاعتبار فالرأي المشهور عند الشيعة هو غسل الوجه واليدين من أعلى إلى أسفل.[٢]

ومما يجدر ذكره هو ان قيد ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ في جملة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ يتعلق بمقدار غسل اليدين لا كيفية غسلهما لإطلاق لفظ اليد على ما بين المنكب ورؤوس الاصابع، وحيث ان المهم في اعضاء الجسم هو الاغراض والمقاصد الحاصلة منها ففي مثال اليد قد تحصل الاغراض والمقاصد من المرفق إلى اليد، وقد تحصل من المعصم إلى اطراف الاصابع، وقد تحصل بالاصابع فقط كالكتابة، لذا فلفظ اليد عام يطلق على كافة الاجزاء المذكورة وبالتالي ثمّة نوع من الاشتراك (اشتراك الجزء والكل) وتعيين احدها بحاجة إلى قرينة. اذاً لفظ المرافق يعين المقدار الواجب رعايته عند غسل اليدين. ويتضح على ضوء الروايات مقدار الغسل الواجب، وانه من المرافق إلى اسفل لا من المرافق إلى أعلى، ويتضح أيضاً ـ بقرينة الروايات ـ وجوب غسل الكفين إلى اطراف الاصابع.

---

١. ذهب السيد المرتضى من قدماء الإمامية وابن إدريس والشهيد الأوّل وصاحب المعالم والشيخ البهائي وغيرهم إلى جواز الغسل من أسفل إلى أعلى. التنقيح، ج ٥، ص ٦١.

٢. راجع حول أدلّة القول المشهور: التنقيح، ج ٥، ص ٦٠ـ٦٨.

اما حول كيفية الغسل فهل يتم من أعلى إلى أسفل أو بالعكس؟ فاللفظ في الآية مطلق ينصرف إلى الفرد والمصداق الطبيعي والعرفي، والأسلوب المتداول في غسل الجسم هو الغسل من أعلى إلى أسفل، فمثلا حينما يوصي المعالج المريض بغسل رجله إلى الركبة، فمفاد ذلك ينصرف إلى غسل الرجل من الركبة إلى أسفل، والروايات تعين هذه الصورة. وبناء على ذلك فغسل الوجه واليدين في الوضوء يتم من أعلى إلى أسفل.

قال الطبري:

> اجمعت الأمة على ان من بدأ من المرفقين في غسل اليدين صح وضوؤه واختلفوا في صحة وضوء من بدأ من الاصابع إلى المرفق، واجمعت الأمة أيضاً على ان من غسل المرفقين صح وضوؤه واختلفوا في من لم يغسلهما هل يصح وضوؤه.[1]

قد تبين بما مرّ ان ما يستفاد من الآية هو الغسل من أعلى إلى أسفل، وهذا يتوقف على ان يكون قوله ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ قيداً لقوله ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾ فيكون الغسل المتعلق بهما مطلقا غير مقيد بغاية،[2] واما إذا كان قيداً للغسل فيكون كيفية الغسل من اطراف الاصابع إلى المرافق ولازم ذلك ان غسل اليدين من اعلى إلى أسفل ليس محل اتفاق.

وجوب مسح الرجل

اجمعت الشيعة الإمامية على وجوب مسح الرجل وبطلان غسله في الوضوء، ووجه ذلك ـ علاوة على روايات أهل البيت عليهم السلام ـ ظاهر الآية الكريمة التي ورد فيها غسل عضوين: الوجه واليدين، ومسح عضوين: الرأس والرجلين:

١. ﴿فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾.

٢. ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.

ولا فرق من هذه الجهة بين قراءة ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب أو الجر لانّه عطف على لفظ ﴿رُءُوسِكُمْ﴾ فإذا قلنا ان أرجلكم مجرور، فهو معطوف على رؤوسكم واما إذا قلنا انّه منصوب فهو معطوف على محل رؤوسكم. وقد ذهب إلى ذلك جمع من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس وانس بن مالك وأبو العالية والشعبي وعكرمة، وقال الحسن البصري وناصر الحق من أئمة الزيدية بالتخيير بين الغسل والمسح،[3] وقال أئمة

١. مجمع البيان، ج ٢، ص ١٦٤

٢. انظر: الميزان، ج ٥، ص ٢٢١.

٣. مجمع البيان، ج ٢، ص ١٦٤؛ تفسير الطبري، ج ٦، ص ٨٢، ٨٣

المذاهب الأربعة لأهل السنة بوجوب الغسل ومستندهم في ذلك أحاديث وردت في مجاميعهم الروائية. هذه الأحاديث ليست بصدد تفسير آية الوضوء بل هي بصدد بيان فعل النبيﷺ وفتوى بعض الصحابة الذين انقسموا على انفسهم إلى طائفتين فطائفة توجب الغسل وأُخرى توجب المسح.

وعلى أية حال فقد ذهب معظم أهل السنة إلى وجوب الغسل ولما كان هذا الحكم لا ينسجم مع ظاهر الآية راحوا يبرّرون ذلك بوجوه مختلفة من التأويل:

١. ارجلكم مجرور ومعطوف على ظاهر رؤوسكم ولكن المراد من المسح هو الغسل؛ هذا الوجه من الضعف بمكان، ذلك ان لفظي الغسل والمسح مختلفان لغة وشرعاً، وإذا استعمل احدهما محل الآخر احياناً فهو استعمال مجازي لا يصار إليه فيما إذا خلا المورد من قرينة، كما في محل كلامنا.

واما ما جاء في أحاديث أهل السنة من غسل الرجل فهو:

أوّلاً: يعارض الأحاديث الواردة في المسح.

ثانياً: لا يفيد علماً لرفع اليد عن ظاهر القرآن الكريم. وبعبارة أُخرى هذه الأحاديث تعارض ظاهر الآية الكريمة وهي ليست من قبيل النسبة بين الخاص والعام، أو المطلق والمقيد لكي نستند إليها في رفع عموم الآية أو إطلاقها.

هذا إلى جانب ان حكم المعطوف والمعطوف عليه واحد، فإذا حكم على المعطوف عليه بالمسح هنا فلابد من الحكم على المعطوف بالمسح أيضاً.

٢. لفظ ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ معطوف على ظاهر ﴿رُءُوسِكُمْ﴾ ومجرور الا ان حكمه الغسل لا المسح، وذلك خفضاً على الجوار مثل: (جُحر ضبٍّ خرب) فلفظ خرب صفة لجحر على الرغم من انّه مجرور لفظاً.

ويرد عليه أوّلاً: قال الزجاج: «اما الخفض على الجوار فلا يكون في كلمات الله».

وثانياً: ان الخفض على الجوار انما يصار إليه في مورد يخلو من حرف العطف، والحال ان في الآية حرف عطف.

اضافة إلى ذلك فان الخفض على الجوار انما يُلجأ إليه فيما إذا أمن اللبس كالمثال

السابق، فالخرب وصف للجحر لا للضب اما في الآية الكريمة فالأمر ليس كذلك لان مسح الرجلين ممكن كمسح الرأس، هذا إلى جانب انكار علماء النحو العطف بالجوار، وقالوا: ان الاصل في «جحر ضب خرب» هو خرب جحره فحذف المضاف إليه وحل محله الضمير المجرور المستتر في خرب.

٣. ان عطف ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ على ظاهر ﴿رُءُوسِكُمْ﴾ من قبيل قول الشاعر: علفتها تبناً وماءً بارداً، وهو في الأصل: علفتها تبناً وسقيتها ماءً بارداً، وقد نقل هذا القول عن الاخفش.

ولازم هذا الوجه تقدير لفظ ﴿اغْسِلُوا﴾ في الآية، فتكون ﴿وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾وهذا الوجه اضعف الوجوه المذكورة، ذلك لان التقدير إنما يذكر في حال لا يصح معه حمل الكلام على الظاهر، كما في الشعر، لأن العلف غير السقي وهذا المحذور منتف في الآية الكريمة.

٤. ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ منصوب ومعطوف على ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾ وحيث ان حكم المعطوف والمعطوف عليه واحد فيصبح حكم الوجه واليدين الغسل، ولازم هذا الوجه الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة أجنبية، عندها يكون ﴿ٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ اجنبي عن المعطوف والمعطوف عليه، وهذا النوع من المحاورات ليس متداولاً بين البشر فكيف بكلام الله سبحانه الذي هو في غاية الفصاحة ومنتهى البلاغة.[1]

الاجابة عن شبهات

أثار بعض أعلام أهل السنة شبهات حول ما ذهبت إليه الشيعة، والذي يطابق كلام الله. منها:

الشبهة الأُولى: ذكرت الآية الكريمة لفظ ﴿ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ باعتباره غاية لارجلكم ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ والمراد من الكعبين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين، وبما ان الغاية داخلة في المغييٰ فهذا يتفق مع القول بالغسل لا القول بالمسح.[2]

والجواب: انّه حتى على فرض تفسير الكعبين بما جاء في الشبهة، فانّ مسحهما ليس بمتعذّر من خلال مسح العظمين الناتئين عند مفصل الساق من الجانبين.

١. انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ١٦٦، ١٦٧.
٢. انظر: تفسير المنار، ج ٦، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

الشبهة الثانية: على ضوء تفسير الإمامية للكعب بمفصل الساق والقدم يلزم ان في كل رجل كعب واحد، ولو كان الامر كذلك لكان المناسب بالآية الكريمة ذكر «إلى الكعاب» محل ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ كما ذكرت ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ في اليد.[١]

والجواب: كما ان استعمال صيغة الجمع مناسب كذلك صيغة التثنية، والمراد ان لكل انسان كعبين لان له رجلين، اما انّه لماذا اطلقت الآية الكريمة المرافق في اليدين، والكعبين في الرجلين فوجه ذلك مازال غامضاً ولاشكّ ان تعبير المرافق أكثر بلاغة من تعبير المرفقين، وتعبير الكعبين أكثر بلاغة من تعبير الكعاب خاصة وانهما وردا في جملة متصلة.

وعلاوة على ذلك فحتى لو فسرنا الكعبين بالعظمين الناتئين عند مفصل الساق من الجانبين (كما قال به بعض أعلام الإمامية) فان ذلك لا يعدّ دليلاً على وجوب غسل الرجلين بل كل ما هنالك هو إعادة النظر في حد المسح.

الشبهة الثالثة: ان حكمة الوضوء عقلاً هي الطهارة والنظافة فينبغي القول ان المراد غسل الرجلين لا مسحهما، ذلك انهما معرضتان للخبث لكونهما يوطأ بهما على الأرض، والمسح مهما كان لا يقتضي طهارتهما فتعيّن الغسل.[٢]

والجواب: «نحن نؤمن بان الشارع المقدس لاحظ عبادة في كل ما كلفهم به من أحكامه الشرعية فلم يأمرهم الا بما فيه مصلحتهم ولم ينههم الا عما فيه مفسدة لهم، لكنه مع ذلك لم يجعل شيئاً من مدارك تلك الأحكام منوطاً من حيث المصالح والمفاسد بآراء العباد بل تعبدهم بادلة قوية عيّنها لهم، فلم يجعل لهم مندوحة عنها إلى ما سواها. وأول تلك الادلة الحكيمة كتاب الله عزّوجلّ وقد حكم بمسح الرؤوس والأرجل في الوضوء، فلا مندوحة عن البخوع لحكمه، اما نقاء الأرجل من الدنس فلابد من احرازه قبل المسح عليها عملاً بادلة خاصة دلّت على اشتراط الطهارة في اعضاء الوضوء قبل الشروع فيه. ولعل غسل رسول الله ﷺ رجليه ـ المدّعىٰ في اخبار الغسل ـ انما كان من هذا الباب ولعله كان من باب التبرّد أو كان من باب المبالغة في النظافة بعد الفراغ من الوضوء».[٣]

١. المصدر السابق ٢. المصدر السابق
٣. السيد شرف الدين العاملي، سبع مسائل فقهية؛ ص ٨٢؛ آية الله السبحاني، الاعتصام بالكتاب والسنة، ص ١٨، ١٩

٤
السجود على الأرض

السجود هو من ابرز معالم الخضوع والعبودية، وهو من جملة اركان الصلاة، ويأتي به المصلّي مرّتين في كل ركعة، وهو محل اتفاق المسلمين قاطبة الا انّـه دبّ الخـلاف بينهم حول ما ينبغي السجود عليه، فذهبت الشيعة الإمامية إلى ان السجود لا يجوز إلّا على الأرض أو ما ينبت منها مما لا يؤكل ولا يُلبس مع الاختيار، وأجاز أهل السنة السجود على اشياء أُخرى كالثياب والسجاد، واستند الشيعة في ذلك إلى ما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة. فعن هشام بن الحكم، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام اخبرني عما يجوز السجود عليه وعما لا يجوز؟ قال: السجود لا يجوز الا على الأرض أو ما انبتت الأرض الا ما أكل أو لبس. فقلت له: جعلت فداك ما العلة في ذلك؟ قال: لان السجود هو الخضوع لله عزوجل فلا ينبغي ان يكون على ما يؤكل ويلبس، لان ابناء الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون، والساجد في سجوده في عبادة الله عزّوجلّ فلا ينبغي ان يضع جبهته في سجوده على معبود ابناء الدنيا الذيـن اغـترّوا بغرورها، والسجود على الأرض أفضل وأبلغ في التواضع والخضوع لله عزّوجلّ.[١]

وقال عبد الوهاب الشعراني وهو من كبار فقهاء وعرفاء أهل السنة في هذا الصدد:

١. وسائل الشيعة، ج ٣، أبواب ما يسجد عليه، الباب ١، ح ١

المقصود اظهار الخضوع بالرأس حتى يمس الأرض بوجهه الذي هواشرف اعضائه سواء كان ذلك بالجبهة أو الانف، بل ربما كان الانف عندبعضهم اولى بالوضع من حيث انّه مأخوذ من الأنفة والكبرياء، فإذا وضعهعلى الأرض، فكأنه خرج عن الكبرياء التي عنده بين يدي الله تعالىٰ إذالحضرة الالهية محرّم دخولها على من فيه أدنىٰ ذرة من كبر فانها هي الجنةالكبرى حقيقة، وقد قالﷺ: لا يدخل الجنة من في قلبه من مثقال ذرة من كبر.[١]

وجاء في الحديث النبوي المعروف «جُعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً».[٢]

فلفظ الطهور ناظر إلى التيمم ولفظ الأرض ناظر إلى التراب والحصى وامثال ذلك، وقد انعقدت سيرة المسلمين في صدر الإسلام على السجود على الأرض وعلى الحصى المفروش على أرض المسجد حتى في زمن القيظ وشدة الحر.

عن جابر بن عبد الله الانصاري، قال: كنت أُصلّي مع رسول الله صلاة الظهر فآخذ بيدي قبضة من حصى فأجعلها في يدي الأُخرىٰ حتى تبرد ثم أسجد عليها من شدّة الحرّ.[٣]

فشدّة الحرّ لاسيما حرّ الحصى المفروش على أرض المسجد دعت بعض الصحابة إلى السجود على اطراف الثياب حفاظاً على الجبهة والايدي حين السجود فنهاهم النبيﷺ عن فعل ذلك، وكانوا يشكون إليهﷺ شدة الحر وصعوبة السجود في مثل تلك الظروف الا ان رسول اللهﷺ لم يكن يعر أهمية لذلك، ولم يرخص لهم السجود على الثياب.

ولاشكّ في ان رسول اللهﷺ هو مظهر الرحمة الالهية، وكان يعزُّ عليه ما يصاب به المسلمون من محن وشدائد ولم يكن يتوانىٰ في حل مشاكلهم، قال القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.[٤]

فلو كان السجود على الثياب وأمثالها جائزاً، لما ردّ النبيﷺ طلب المسلمين قط.

---

١. اليواقيت والجواهر في عقائد الاكابر، ج ١، ص ١٦٤، نقلا عن كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ص ٧٤. وعبد الوهاب الشعراني من اعلام القرن العاشر (٨٩٨ـ٩٧٣).

٢. صحيح البخاري، ج ١، ص ٩١، كتاب التيمم، ح ٢

٣. مسند أحمد، ج ٣، ص ٣٢٧

٤. التوبة، ١٢٨

كما نهاهم عن السجود عليها، وقد أثرت عن الصحابة أخبار، أذن النبيﷺ لهم فيها أن يسجدوا على الحصير والبوريا فيما بعد.[١]

وقد دلّت أخبار أُخرىٰ على جواز السجود على الثياب وامثالها اضطراراً الا ان هذا القيد لم يفصح عنه في أخبار أُخرىٰ بل اكتفت بذكر شدة الحر، هذا وقد صرحت بعض الاخبار ان السجود على الثياب انما جاز في أيام القيظ وشدة الحر بنحو يتعذر معه السجود على الأرض، قال انس بن مالك:

«كنّا إذا صلّينا مع النبيﷺ فلم يستطع احدنا ان يمكّن جبهته من الأرض طرح ثوبه ثم سجد عليه».[٢]

دلّ هذا الحديث على جواز السجود على الثياب شريطة عدم القدرة على السجود على الأرض، وبهذا يتم تقييد الأحاديث المطلقة.

ونستخلص من مجموع أحاديث أهل السنة حول السجود النكات التالية:

١. جواز السجود على الحصى والتراب ابتداءً.

٢. جواز السجود على الحصير والبوريا اللذين ينبتان من الأرض فيما بعد.

٣. جواز السجود على الثياب اضطراراً.

وهذا ينسجم تماماً مع ما ذهبت إليه الشيعة فيما يجب السجود عليه[٣] وقد راج بين الشيعة السجود على قطعة من تراب تسمىٰ بـ«التربة» ذلك انّه:

أوّلاً: لا يتيسّر العثور على ما يجوز السجود عليه كالحصىٰ والتراب في كافّة الاحيان.

ثانياً: السجود على التراب أفضل من أي شيء آخر، لان روح السجود ـ كما مرت الاشارة إليه ـ هو اظهار الخضوع والعبودية لله سبحانه، وهذا لا يتيسّر الا حين السجود على التراب.

---

١. مسند أحمد، ج ٦، ص ١٧٩، ٣٠٩، ٣٣١؛ ج ٢، ص ١٩٢، ١٩٨؛ الاعتصام بالكتاب والسنة، ص ٨١

٢. صحيح البخاري، ٢ج، ص ٦٤، كتاب الصلاة، باب بسط الثوب في الصلاة للسجود

٣. وبالطبع فان فقهاء أهل السنة لم يخصوا السجود على الثياب أو السجاد في حالة الاضطرار بل هو جائز عندهم في كل الاحوال.

ومع أخذ كل ما قيل بنظر الاعتبار فان منع الوهابية من السجود على التربة ـ انطلاقاً من تعصبها المقيت ـ واعتبار ذلك حراماً ومظهراً من مظاهر الشرك يخلو من أي مستند شرعي، بل أن هذا المنع، هو ـ في الحقيقة ـ بدعة في الدين، وإلى جانب ذلك فقد عُرف بين السلف ـ استناداً لبعض ما نقل في التاريخ ـ اصطحاب قطع من الطين اليابس للسجود عليها، وقد نقل أبابكر بن أبي شيبة عن التابعي الفقيه مسروق بن أجدع (ت ٦٢ هـ) انّه كان يحمل معه في اسفاره لَبِنةً من تراب المدينة للسجود عليها.[١]

١. المصنّف، ج ١، ص ٤٠٠، نقلاً عن الاعتصام بالكتاب والسنة، ص ٨٦.

٥

الخمس في الإسلام

لاشكّ في ان الخمس من ضروريات الإسلام وبه صرح القرآن الكريم والسنة النبوية. قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ﴾.[١]

ولا يسعنا هنا الا تسليط الاضواء على مبحثين: الأوّل: بماذا يتعلق الخمس؟ الثاني: ما هي اصناف المستحقين للخمس؟ وكيف يتمّ أداؤه ؟

بماذا يتعلق الخمس

الخمس عند الشيعة يتعلّق بالغنيمة أو بالربح، وغنائم الحرب من جملة تلك الموارد، بيد ان أهل السنة يخصون الخمس بغنائم الحرب ويستدلون على ذلك بنزول الآية في غنائم الحرب واختصاصها بها، وهذا الاستدلال كماترى بعيد عند الصحة من ناحيتين:

الأُولىٰ: الغنيمة في لغة العرب هي كل ما غنمه المرء ولا تختص بغنائم الحرب. قال ابن منظور في لسان العرب «الغنم الفوز بالشيء من غير مشقة»[٢] وجاء في الحديث «الرهن لمن رهنه، له غُنمه وعليه غُرمه» وقد شرح ابن الاثير هذا الحديث بقوله «المراد من الغنم زيادته ونماؤه وفاضل قيمته»[٣] كما وصف القرآن الكريم نعم الجنة بالغنائم، وقال: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.[٤]

١. الانفال، ٤١
٢. لسان العرب، مادة غنم
٣. النهاية، ج ٣، ص ٣٩١
٤. النساء، ٩٤

ونستخلص من تلك النصوص ان الغنيمة لا تختص بكل ما يغنم في الحرب مفهوماً ومعنىً، ونزول الآية الكريمة في شأنها لا يصلح قيداً لتخصيص الحكم.

الثانية: ورد في بعض الروايات ان النبي صلّى الله عليه وآله اوجب الخمس علىٰ كل ما يربحه الإنسان، فحينما وفد عبد القيس اتوا النبي صلّى الله عليه وآله فقال: من الوفد أو من القوم، قالوا: ربيعة، فقال: مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامىٰ، قالوا: انا نأتيك من شقة بعيدة وبيننا وبينك هذا الحي من كفّار مضر ولا نستطيع ان نأتيك الا في شهر حرام فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة. فأمرهم بأربع... أمرهم بالإيمان بالله عزّوجلّ وحده، قال: هل تدرون ما الإيمان بالله وحده، قالوا: الله ورسوله اعلم.

قال: الشهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وتعطوا الخمس من المغنم».[1]

لاشكّ ان المراد من المغنم في هذا الحديث هو الارباح الحاصلة من غير حرب، ذلك انهم قالوا «انّا نأتيك من شقّة بعيدة وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر» فهذا الكلام يدل على محاصرتهم من قبل المشركين وانهم لاطاقة لهم علىٰ جهادهم لكي يحصلوا علىٰ غنائم حرب ويدفعوا خمسه.[2]

وإلىٰ جانب ذلك فقد صرّحت روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام بوجوب دفع الخمس في كل ربح وبذلك ازاحت ستار الابهام عنه.

سأل سماعة بن مهران الإمام الكاظم عليه السلام عن الخمس، فقال عليه السلام: «في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير».[3]

وكتب بعض أصحابنا إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام اخبرني عن الخمس أعلىٰ جميع ما يستفيد الرجل من قليل أو كثير من جميع الضروب وعلى الصناع؟ وكيف ذلك؟ فكتب بخطه: الخمس بعد المؤونة.[4]

والأحاديث في هذا الصدد كثيرة، وهذا الحكم من مسلّمات المذهب الشيعي.

---

١. صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢٥٠

٢. لمزيد من الاطلاع على الأدلّة الخمسة في مصادر أهل السنة راجع: الاعتصام بالكتاب والسنة.

٣. وسائل الشيعة، جـ٤، ص ٣٥٠

٤. المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٤٨

مصرف الخمس

بيّنت آية الخمس[١] موارد مصرفه، فالخمس يختصّ بالله ورسوله وذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل، أي أن لكلّ من النبي وذي القربىٰ سهماً خاصاً من الخمس، وهذا مجمع عليه بين المسلمين دون طروء أيّ تغيير فيه حتىٰ وفاة رسول الله ﷺ وما ان تسلم ابوبكر منصة الخلافة حتىٰ أسقط سهم النبي ﷺ وذي القربىٰ، وبذلك منع بني هاشم من السهم الخاص بهم من الخمس في زمن النبي ﷺ.

> قال الزمخشري: وعن ابن عباس الخمس على ستة أسهم لله ولرسولهسهمان وسهم لأقاربه حتىٰ قبض فأجرىٰ أبابكر الخمس علىٰ ثلاثة،وكذلك روي عن عمر ومن بعده من الخلفاء. قال: وروي أن أبابكر منع بنيهاشم الخمس.[٢]

وفي صحيح مسلم عن يزيد بن هرمز: قال: كتب نجدة بن عامر الحروري الخارجي إلىٰ ابن عباس، قال ابن هرمز: فشهدت ابن عباس حين قرأ الكتاب وحين كتب جوابه، وقال ابن عباس: والله لو لا ان ارده عن نتن يقع فيه ما كتبت إليه ولا نعمت عين، قال: فكتب إليه: انك سألتني عن سهم ذي القربى الذين ذكرهم الله من هم؟ وانّا كنّا نرىٰ ان قرابة رسول الله ﷺ هم نحن، فأبىٰ ذلك علينا قومنا.[٣]

وأخرجه الإمام احمد من حديث ابن عباس في اواخر الجزء الأوّل من مسنده، ورواه كثير من أصحاب المسانيد بطرق كلها صحيحة، وهذا هو مذهب أهل البيت عليهم السلام المتواتر عن أئمتهم، لكن الكثير من أئمة الجمهور أخذوا برأي الخليفتين فلم يجعلوا لذي القربىٰ نصيبا من الخمس خاصاً بهم، واما الشيعة الإمامية أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام فانهم خصوا ثلاثة من السهام الستة للخمس (سهمين لله ورسوله وسهم لذي القربىٰ) بالإمام المعصوم عليه السلام واما السهام الثلاثة الباقية فهي لليتامىٰ والمساكين وابن السبيل من بني هاشم، ذلك أنّ الله سبحانه حرّم عليهم أخذ الزكاة، وخصّص لهم بدل ذلك ثلاثة سهام من الخمس.

يُذكر أن أئمة المذاهب الأربعة قد تضاربت آراؤهم في هذه المسألة. فأما مالك بن

---

١. الأنفال، ٤١ ٢. الكشّاف، ج ٢، ص ٢٢٢

٣. الاعتصام بالكتاب والسنة، ص ١١٢

أنس فقد جعل الخمس باجمعه مفوضا إلى رأي الإمام يجعله حيث يشاء في مصالح المسلمين، لاحق فيه لذي القربىٰ ولا ليتيم ولا لمسكين ولا لابن سبيل مطلقاً.

واما أبو حنيفة وأصحابه فقد اسقطوا بعد النبيﷺ سهمه وسهم ذي قرباه وقسّموه بين مطلق اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل على السواء لا فرق عندهم بين الهاشميين وغيرهم من المسلمين.

والشافعي جعله خمسة أسهم: سهماً لرسول اللهﷺ يصرف إلى ما كان يصرف إليه من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الخيل والسلاح والكراع ونحو ذلك وسهما لذوي القربىٰ من بني هاشم وبني المطلب دون عبد شمس وبني نوفل يقسّم بينهم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ والباقي للفرق الثلاث: اليتامى والمساكين وابن السبيل مطلقا.[١]

---

١. تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٢٢١

٦
الزواج المؤقّت

ضرورة الزواج المؤقّت

ان الشريعة الإسلامية شريعة عالمية خالدة تلبي كافة أبعاد وحاجات الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد قررت سلسلة من الاحكام والقوانين الخاصة لكي يتاح لها اداء رسالتها الأبدية على كافة الأصعدة.

ويعد الزواج من حاجات الإنسان الطبيعية، هذه الحاجة تنبع من تركيبة الرجل والمرأة في الخلق، وقد جعل القرآن الكريم ذلك من آيات قدرة الله سبحانه وحكمته، يقول سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[1]

ففي هذه الآية اشارة إلى الآثار البنّاءة والاهداف الحكيمة للزواج لاسيما توفير مناخ يسوده المحبة والمودة، ويغمره الاستقرار والاطمئنان النفسي ويؤمّن الصحة النفسية والروحية.

ان الزواج من عوامل استمرار النسل البشري وتأسيس المجتمعات التي هي مهد الحضارة ومحط التكامل المادي والروحي للإنسان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾[2] وهو ـ إلى جانب

١. الروم، ٢١ — ٢. النحل، ٧٢

تلك الاهداف والاغراض العقلائية والمعنوية ـ يلبي الغريزة الجنسية عن طريق مشروع مما يترتب على ذلك نتائج روحية باهرة، من هنا فقد قال رسول الله ﷺ: «من تزوّج فقد احرز نصف دينه» وقال ﷺ أيضاً: «ما بني في الإسلام بناء احبّ اليّ من التزويج».

وبناء على ذلك فإذا القينا نظرة واقعية علىٰ حياة البشر والمستجدات الطارئة عليها لوصلنا إلى هذه الحقيقة وهي ان اشباع الغرائز الجنسية للبشر يتم عبر نوعين من الزواج:

احدهما: الزواج الدائم؛

والآخر: الزواج المؤقت.

وعقد الزواج الدائم يكون في الظروف العادية والطبيعية، والزواج المؤقت في الظروف غير العادية كالسفر الطويل، وظروف الحرب وما يتعلق بها والتكاليف الباهظة للزواج الدائم، ومشاكل أُخرىٰ تحول دون زواج آخر، وموارد أُخرىٰ من هذا القبيل. هذا من جانب، ومن جانب آخر فان الزواج حاجة طبيعية ملحّة فإذا لم يتم اشباعها عبر الزواج المؤقت فسيُفضي ذلك إلى انتشار علاقات جنسية غير مشروعة في المجتمع وبالتالي تجره إلى السقوط في ورطة الفساد والفحشاء.

وقد اخذت الشريعة الإسلامية المقدسة تلك الحقيقة بنظر الاعتبار. وقامت بتشريع نوعين من الزواج: الدائم والمؤقت، قال الله تعالىٰ بشأن الزواج الدائم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً﴾.[1]

وقال الله تعالى بشأن الزواج المؤقت ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾،[2] والادلة التي اقيمت على دلالة الآية علىٰ الزواج المؤقت هي كالتالي:

١. ذكرت الآيات المتقدّمة عليها حكم الزواج الدائم والمهر المسمّىٰ بمزيد من التفصيل، فلا وجه لتكرار ذلك في هذه الآية.

٢. تأكيد تعلّق المهر كاملاً بذمة الزوج بمجرد إجراء صيغة عقد الزواج الدائم، وسقوط نصفه بالطلاق قبل الدخول وحين مطالبة الزوجة، بينما اشارت هذه الآية إلى وجوب دفع المهر كاملاً عقب الاستمتاع.

---

١. النساء، ٣ ٢. النساء، ٢٤

السنة والزواج المؤقت

وإلىٰ جانب روايات أهل البيتعليهم السلام التي تفسر الآية بالزواج المؤقت (المتعة)[1] فقد ورد ذلك في أحاديث أهل السنة أيضاً. فقد أُثر عن ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن الجبير والسدّي قراءة الآية بالنحو التالي:

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾[2] وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في النكاح المنقطع.[3] وقد علق فخر الدين الرازي على هذه القراءة بقوله:

> والأُمة ما أنكروا عليهم في هذه القراءة فكان ذلك اجماعاً من الأُمة علىٰ صحة هذه القراءة... وإذا ثبت بالاجماع صحة هذه القراءة ثبت المطلوب.[4]

الأحكام والمزايا

يتفق الزواج المؤقت مع الزواج الدائم في أحكام عدّة هي:

١. موانع الزواج (محرمات النكاح)؛

٢. الشروط اللازمة حين عقد النكاح مثل ان لا تكون المرأة في عدة؛

٣. إجراء صيغة الزواج؛

٤. وجوب المهر؛

٥. أحكام الابناء والاقرباء؛

٦. أحكام إرث الابناء للابوين وبالعكس؛

٧. لزوم العدّة على المرأة عقب انقضاء أجل الزواج.

ويمتاز الزواج المؤقت عن الزواج الدائم بما يلي:

أ) لا ترث الزوجة في الزواج المؤقت وكذلك الزوج؛

ب) لا تستحق الزوجة للنفقة في الزواج المؤقت؛

ج) لا حق للزوجة قسمة المبيت مع ضرتها في الزواج المؤقت؛

د) يحق للزوج العزل في الزواج المؤقت؛

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٤، أبواب المتعة، الباب ١

٢. أي ينبغي اضافة لفظ «أجل مسمىٰ» إلى التفسير حين قراءة الآية.

٣. تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٤٤

٤. مفاتيح الغيب، ج ١٠، ص ٥١، ٥٢

هـ) انفساخ الزواج المؤقت بعد انقضاء أجل الزواج بلا حاجة إلى اجراء صيغة الطلاق؛
و) ثمة فروق أُخرىٰ مذكورة في كتب الفقه.

وعلى أية حال فالزواج المؤقت لا يختلف عن الدائم اختلافاً جوهرياً ذلك انهما من اقسام النكاح الشرعي ويشتركان في كثير من الأحكام.

وعلى الرغم من ان لكل منهما احكاماً خاصة الا ان هذا لا يؤول إلى الاختلاف الماهوي والنوعي كما هو الحال في سائر الأحكام الشرعية مثلا: للهبة المعوضة وغير المعوضة والهبة إلى الاقارب وغير الاقارب احكام خاصة، الا ان هذا لا يمنع من اندراجها جميعاً تحت العنوان العام للهبة.

فرضية نسخ الزواج المؤقت

اتضح مما تقدم مشروعية الزواج المؤقت. وقد اجمع المسلمون قاطبة على ذلك الا ان علماء أهل السنة ادعوا نسخ هذا الحكم واستندوا في ذلك إلى جملة من الآيات والأحاديث المروية في الصحاح والسنن.

فرضية النسخ في القرآن

ذهب بعضهم إلى اعتبار آية ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[1] دليلاً على نسخ الزواج المؤقت ببيان حصر الآية العلاقة المشروعة بين الجنسين في موردين: الزواج وملك اليمين، وليس الزواج المؤقت منهما. اما انّه ليس من قسم ملك اليمين فواضح، واما انّه ليس من الزواج الدائم، فلعدم وجود النفقة والارث وحق القسمة المؤقت.

والجواب: أوّلاً: لا يختلف الزواج المؤقت عن الدائم اختلافاً ماهوياً، فقد يتفقان في بعض الأحكام وقد لا يتفقان في أحكام أُخرىٰ، كما تقدم تفصيل ذلك.

وثانياً: الآية من الآيات المكية لسورة (المؤمنون) بينما آية الزواج المؤقت مدنية، وحكم الزواج المؤقت نزل في المدينة بالاتفاق، ومن الواضح ان الناسخ لابد ان يتأخر زماناً عن المنسوخ.

---

١. المؤمنون، ٥ ـ ٧

«ومن عجيب أمر هؤلاء المتكلفين ان يقولوا بان آية (المـؤمنون) نـاسخة لمـتعة النساء إذ ليست بزوجة ولا ملك يمين، فإذا قلنا لهم: ولِم لا تكون ناسخة لنكاح الاماء المملوكات لغير الناكح وهن لسن بزوجات الناكح ولا بملك له، قالوا حينئذ: ان سورة (المؤمنون) مكية ونكاح الاماء المذكورات انما شرع بقوله تعالىٰ في سورة النساء وهي مدنية ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾[١] والمكي لا يكون ناسخاً للمدني لوجـوب تـقدم المـنسوخ عـلىٰ الناسخ، يقولون هذا القول وينسون ان المتعة انما شرعت في المدينة وان آيـتها فـي سورة النساء أيضاً، وقد مُنينا بقوم لا يتدبرون».[٢]

فرضية النسخ في الروايات

وثمة نكات حول نسخ الزواج المؤقت في الروايات:

١. خصت بعض أحاديث النسخ، هذا الحكم بصورة الاضطرار فمتىٰ زال الاضطرار زال معه الحكم المذكور،[٣] حينها يثار هذا السؤال وهو أن الأحكام الاضطرارية إذا كانت تابعة لشروط الاضطرار، فهذه الشروط لا تختص بزمن النبي ﷺ، كما هو الحال في حلية أكل لحم الميتة اضطراراً التي لا تختص بصدر الإسلام بل هي جائزة ابداً ما دام الاضطرار.

٢. في مقابل تلك الأحاديث، ثمة أحاديث أُخرى دلت على بقاء حكم الزواج المؤقت حتىٰ نهىٰ عنه عمر، وقد روي ذلك عن جابر بن عبد الله الانصاري باسانيد متعددة.[٤]

٣. مع ان روايات النسخ تشير إلى حادثة الا ان ثمة تعارضاً واختلافاً فيما بـينها يوجب القدح والوهن فيها، ويعود هذا الاختلاف إلى زمان وتاريخ الاباحة والنسـخ، فقد تضاربت الأقوال واضطربت غاية الاضطراب.

الف) عام فتح مكة.

ب) عام فتح خيبر.

جـ) حجة الوداع.

١. النساء، ٢٥ ٢. السيد شرف الدين العاملي، الفصول المهمة، ص ٧٤، ٧٥

٣. صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٤٦، ط بيروت، دار المعرفة؛ صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٠٢٧، ط بيروت، دار احياء التراث العربي. ٤. صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٠٢٣

د) غزوة تبوك.[١]

ومقتضىٰ هذه الأقوال هو تعرض حكم واحد لدفعات متتالية من التشريع والنسخ طيلة سنوات عدة، وهذا المنحىٰ غريب لا سابقة له في التشريع الإسلامي وعارٍ عن الحكمة.

ومما يجدر ذكره هو ان اغلب هذه الأحاديث نقلت عن سبرة بن معبد الجهني، وثمة اختلاف وتعارض فيما نقل عنه، فتارة يُقال انّه رافق ابن عمه لما اراد المتعة بجارية فقبلت به لانّه كان وسيما وصاحب بردة باهظة الثمن، وتارة أُخرىٰ انّه كان وسيما وصاحب بردة بالية رثة لكن ابن عمه كان قبيح الشكل صاحب بردة غالية الثمن وتارة ثالثة ان تلك الجارية اختارت ابن عم سبرة ورابعة ان مصاحب سبرة كان من قبيلة بني سليم لا من جهينة، وخامسةً ان سبرة جعل بردة واحدة مهراً لها وفي نقل آخر بردتين.

ومن الواضح بمكان ان هكذا تعارض واختلاف في نقل حديث النسخ يسقطه عن أي قيمة علمية، فضلاً عن ان يكون ناسخاً لحكم قطعي لاسيما وانّه يعارض الأحاديث الدالة على عدم النسخ.

٤. روي عن ابن عباس قوله: «ما كانت المتعة الّا رحمة، رحم الله بها أمة محمد ﷺ لولا نهيه (يعني عمر) عنها ما احتاج إلى الزنا الّا شقي»[٢] ومفاد هذه الرواية ان المتعة لم تنسخ على عهد رسول الله ﷺ بل نهىٰ عنها عمر، وهذه الرواية تؤيد رواية جابر الآنفة الذكر.

٥. اخرج الثعلبي والطبري عند بلوغهما إلى آية المتعة ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾[٣] من تفسيرهما الكبيرين، أخرجا بالاسناد إلى علي عليه السلام انّه قال: «لولا ان عمر نهىٰ عن المتعة ما زنا الا شقي»[٤] وقد تواتر نقل مضمون هذه الرواية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وهي

١. راجع: السيد محسن الامين، نقض الوشيعة، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٣؛ شرف الدين العاملي، مسائل فقهية، ج ٦، ص ٦٣، ٦٤؛ العلّامة الاميني، الغدير، ج ٦، ص ٢٢٥؛ الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، ص ١٧١.

٢. ابن الاثير، النهاية، ج ٢، ص ٤٨٨، مادة شقىٰ وفسّرها ابن الاثير بـ«الّا قليل من الناس».

٣. النساء، ٢٤

٤. السيّد شرف الدين العاملي، الفصول المهمة، ص ٧٩

تؤيد رواية جابر في عدم نسخ المتعة في عهد رسول الله ﷺ.

٦. وقد اشتهر عن عمر قوله «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا انهىٰ عنهما واعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء».[1]

وتدل هذه الرواية بوضوح على ان المتعة لم تنسخ على عهد رسول الله ﷺ بل نهىٰ عنها عمر.

نص كلام فخر الدين الرازي

اعتبر فخر الدين الرازي هذا الحديث من المسلمات، واستدلّ به على نسخ النكاح المنقطع وقال:

> لو كان مراد الخليفة ان المتعة كانت مباحة في شرع محمد ﷺ وأنا انهىٰ عنه لزم تكفيره وتكفير كل من لم يحاربه وينازعه، ويفض ذلك إلى تكفير الخليفة حيث لم يحاربه ولم يرد ذلك القول عليه، وكل ذلك باطل فلم يبق الا ان يقال: كان مراده ان المتعة كانت مباحة في زمن الرسول ﷺ وانا انهىٰ عنها لما ثبت عندي انّه ﷺ نسخها، وعلى هذا التقدير يصير هذا الكلام حجة لنا في مطلوبنا.[2]

وثمة احتمال آخر وهو ان نهي الخليفة عن متعتي الحج والنساء لم يستند إلى نهي رسول الله ﷺ بل استند إلى اجتهاد الخليفة نفسه، أي انّه وجد ان ذلك الحكم قد شُرّع رعاية لمصالح مقطعية كانت على عهد رسول الله ﷺ ثم زالت في عهده، فلم يبق داع ـ حسب نظره ـ لتشريعه، فنهىٰ عنه وبناء على هذا الوجه فإن النهي ـ سواء أصاب في اجتهاده ام اخطأ ـ لا يستلزم تكفير الخليفة ولا تكفير سائر الصحابة، بل في هذه الصورة ينبغي على فقهاء أهل السنة اتخاذ قرار بشأن نهي الخليفة على ضوء مقايسة المصالح والمفاسد، ومن هنا فقد جوزوا متعة الحج ولم يلتزموا بنهي الخليفة، فلماذا الاصرار على الالتزام بنهيه في متعة النساء ؟!

وإذا اردنا ان نسير على ضوء الحقائق ونعطي المسألة حقها من التمحيص والبحث عن سر ذلك الارتباك وبذرته الأُولىٰ التي نمت وتأثلت لانجدحلاً لتلك العقدة الا

---

١. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٠، ص ٥٢

٢. مفاتيح الغيب، ج ١٠، ص ٥٤، ط عام ١٣٥٧ هـ

ان الخليفة عمر قد اجتهد برأيه لمصلحة رآها بنظرهللمسلمين في زمانه وايامه اقتضت ان يمنع من استعمال المتعة منعاً مدنياً لا دينياً لمصلحة زمنية ومـنفعة وقتية ولكن بعض معاصريه ومن بعده منالمحدثين البسطاء لما غفلوا عن تلك النكتة الدقيقة واستكبروا من ذلكالزعيم العظيم القائم على حراسة الدين ان يحرّم ما أحلّ الله ويجتري علىحرمات الله اضطروا إلى استخراج مصحح فلم يجدوا الا دعوىٰ النسخ منالنبي بعد الاباحة فارتبكوا ذلك الارتباك واضطربت كـلماتهم ذلك الاضطراب.[1]

شبهات وحلول

أثار منكرو الزواج المؤقت شبهات نـتيجة افـتقارهم لانـطباعات صـائبة حـوله، أو انطلاقهم من حكم مسبق وفرضيات خاطئة، وسنشير إلى بعض هذه الشبهات.

الشبهة الأُولىٰ: ان الهدف من الزواج هو تشكيل الاسرة وتوليد النسل، وهذا الهدف يتحقق بالزواج الدائم لا المؤقت الذي لا يهدف الا إلى اشباع الغريزة الجنسية.[2]

الجواب: لاشكّ ان الحكمة من وراء الزواج هو توليد النسل ووضع لبنة الأسرة الا ان هذا ليس هو الهدف الوحيد للزواج بل ثمة اهداف أُخرىٰ مهمة نظير اشباع الغريزة الجنسية عن طريق مشروع، والحيلولة دون تفشي الفساد في المجتمع البشري وتوفير الصحة النفسية والاخلاقية، فإذا لم تكن الشرائط بنحو يمكن على ضوئها تحقيق هذه الاهداف من ا لزواج الدائم فيبقىٰ الزواج المؤقت هو الخيار المعقول والمشروع. وفضلاً عن ذلك فقد يقدم الجنسان على الزواج المؤقت بهدف التوالد والتناسل لا مجرد اشباع الغريزة الجنسية عن طريق مشروع ذلك ان احكام التوالد والتناسل في كلا الزواجين على حد سواء.

الشبهة الثانية: يتعارض النكاح المنقطع مع كرامة المرأة واحترامها إذ انّه لون من الاستيجار واباحة البيع وهو يتناقض مع الكرامة الإنسانية للمرأة التي تهب وجـودها مقابل شيء من المال تأخذه من الرجل.

والجواب: قلنا فيما سبق ان الزواج المؤقت والدائم لا يختلفان من حيث كـونهما عقدين ولا ينبغي ان يختلفا، فكل منهما زواج ويتحتم ان يأتـي كـل مـنهما بـصيغة

---

١. أصل الشيعة وأصولها، ص ١٧٥ـ١٧٨

٢. تفسير المنار، ج ٥، ص ٨

الزواج، وإذا جاء النكاح المنقطع بصيغة من صيغ الاجارة فهو باطل، غير ان المرأة التي تجري عقد الزواج بمحض ارادتها مع رجل خاص فهي ليست انسان اجرة ولم تمارس عملاً يتناقض مع كرامتها الإنسانية.

ومن العجيب ان الذين أثاروا هذه الشبهة اعتبروا الاستغلال الجنسي والشيطاني للمرأة في دنيا الغرب من مظاهر التمدن والإنسانية.

فمن الذي يجهل ان جمال المرأة على أرض العالم الغربي وجاذبيتهاالجنسية وفنها وروحها وجسمها وبالتالي شخصية المرأة تمثل اداةهامشية لخدمة مصالح الرأسمالي الاوروبّي والامريكي؟ ومن الغريب حقاانيعدّ زواج المرأة المؤقت مع رجل وهي تتمتع بكامل حريتها وفي ظلشروط مفتوحة استيجاراً بينما لا يعد اجارة، ان تقف المرأة على خشبةالمسرح في قاعة من القاعات امام عيون الرجال الطالحة فتطلق حنجرتهابالغناء المثير كي تحصل على ثمن ما.[١]

الشبهة الثالثة: ان الزواج المؤقت يؤدي إلى فقدان الاولاد لملجأ الاسرة الآمن، وبالتالي إلى مزيد من التسيّب والانفلات من قيود الاخلاق والعفة وممارسة اعمال شاذة.

الجواب: على الرغم من انّه لا حظر من التوالد والتناسل في الزواج المؤقت الا انّه يختلف عن الزواج الدائم في امتلاك الرجل لحق العزل دون رغبة الزوجة وهذا هو حل مناسب لرفع الشبهة، واضافة إلى ذلك فان تملص الابوين من المسؤولية هو منشأ ظهور انحرافات اجتماعية واخلاقية لدى الاولاد، وحينئذ فلا فرق بين الزواج المؤقت والدائم من هذه الناحية. نعم إذا كانا واعيين لمسؤوليتهما حيال تربية أولادهما مع إعمال المزيد من المراقبة فسوف لا تصدر عنهم انحرافات.

الشبهة الرابعة: الزواج المؤقت يؤدي إلى جهل الآباء والامهات للأولاد والأخوة للاخوات بمرور الزمان ولربما انجرّ إلى زواج الابوين بالاولاد والاخوة بالاخوات.

والجواب: ان الزواج المؤقت لا يلزم بوجه من الوجوه ما ذكر، ذلك ان المشكلة المذكورة انما تنشأ نتيجة تساهل الأبوين، فإذا خضعت حياتهما الزوجية ـ سواء في الزواج المؤقت أو الدائم ـ إلى مزيد من المراقبة والدقة فلربما لم تبدر تلك المشكلة قط.

---

١. مرتضى المطهري، حقوق المرأة في النظام الاسلامي، تعريب: حيدر آل حيدر، ص٥٦ ـ ٥٨

حظر الاستغلال

لابدّ من الاعتراف ـ مع الاسف الشديد ـ بأن الزواج المؤقت مثله مثل قانون تعدد الزوجات، قد تعرض لنقض صارخ من قبل الطائشين من المسلمين الذين داسوا باقدامهم علىٰ فلسفة وحكمة هذا القانون الإسلامي الضروري، ومارسوه بهدف اشباع رغباتهم الجنسية فقط، حتىٰ اصبح ذريعة بيد خصوم الشيعة للتشهير به واعتباره أمراً مستهجناً منافيا للعفة، ولأجل الحد من ذلك فقد حظر الأئمة الأطهار عليهم السلام المتزوجين من ممارسة ذلك الزواج، وأكدوا ـ في الوقت نفسه ـ على أهميته وضرورته «من هنا فقد دعوا إلى هذا القانون خشية ان تغفل هذه السنة الإسلامية، فقد اشار الإمام الصادق عليه السلام إلىٰ اصراره على بيان حكم المتعة دون أي تقية، فجاء سعي الأئمة لإحياء هذه السنة المتروكة بحكم تعاضد المصلحة الثانوية مع الحكم الأوّلي التشريعي، والذي الاحظه هو ان الأئمة عليهم السلام منعوا الرجال المتزوّجين عن المتعة ليوضحوا أن الحكمة الأولية لهذا التشريع لم تتناول الرجال غير ذوي الحاجة كما جاء ذلك في قول الإمام الكاظم عليه السلام لعلي بن يقطين «ما انت وذاك قد اغناك الله عنها» وقوله لآخر: «هي حلال مباح مطلق لمن لم يغنه الله بالتزويج فليستعفف بالمتعة، فان استغنىٰ عنها بالتزويج فهي مباح له إذا غاب عنها».

اما التحضيض الذي صدر عنهم عليهم السلام بشكل عام فقد كان بسبب المصلحة الثانوية في إحياء السنة المتروكة إذ ان دفع المحتاجين وتشويقهم غير كاف لإحياء هذه السنة المتروكة. وعلىٰ أية حال فمن المقطوع به ان المشرع لم يستهدف بتشريعه لقانون النكاح المنقطع ولم يستهدف الأئمة عليهم السلام بتحضيضهم ليكون الزواج المؤقت اداة بيد الطائشين بغية اشباع حاجاتهم الحيوانية البحتة وليكون اداة لسحق المرأة المسكينة وضياع فئات عريضة من الاطفال بلا ولي يرعاهم».[1]

والحمد لله رب العالمين

---

١. المصدر السابق، ص ٧٢، ٧٣

فهرس المصادر

القرآن الكريم

١. اقرب الموارد، الشرتوني اللبناني.

٢. اوائل المقالات، الشيخ المفيد.

٣. اثبات الوصية، ابوالحسن المسعودي.

٤. أصل الشيعة وأصولها، كاشف الغطاء.

٥. اعيان الشيعة، العلامة سيد محسن الامين.

٦. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، اسد حيدر.

٧. الارشاد، الشيخ المفيد.

٨. أصول الكافي، ثقة الإسلام الكليني.

٩. الاحتجاج، ابومنصور الطبرسي.

١٠. الاعتقادات في دين الإمامية، الشيخ الصدوق.

١١. الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي.

١٢. آراء الرحمن في تفسير القرآن، العلّامة البلاغي.

١٣. أسباب النزول، الإمام الواحدي.

١٤. آية التطهير، الشيخ محمد مهدي الآصفي.

١٥. اسلام ومقتضيات زمان، الشهيد المطهري.

١٦. الإلهيات في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، علي الربّاني الگلپايگاني.

١٧. انوار الملكوت في شرح الياقوت، العلّامة الحلّي.

١٨. ارشاد الطالبين، الفاضل المقداد.

١٩. الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة والعقل، آية‌الله السبحاني.

٢٠. الألفين، العلّامة الحلّي.

٢١. الإصابة، ابن حجر العسقلاني.

٢٢. الاعتصام بالكتاب والسنّة، آية‌الله السبحاني.

٢٣. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري.

٢٤. الإمام جعفر الصادق عليه السلام، محمد أبو زهرة.

٢٥. اقبال الاعمال، السيد بن طاووس.

٢٦. بحوث في الملل والنحل، آية‌الله السبحاني.

٢٧. بحار الأنوار، العلّامة المجلسي.

٢٨. البيان في تفسير القرآن، آية‌الله الخوئي.

٢٩. البدعة، آية‌الله السبحاني.

٣٠. البرهان في تفسير القرآن، السيّد هاشم البحراني.

٣١. التعريفات، السيّد شريف الجرجاني.

٣٢. تاج العروس، الزبيدي.

٣٣. تاريخ الشيعة، الشيخ محمد حسين المظفر.

٣٤. تصحيح الاعتقاد، الشيخ المفيد.

٣٥. التبصير في الدين، أبو منصور الاسفرايني.

٣٦. تلخيص المحصّل، الخواجه نصير الدين الطوسي.
٣٧. تاريخ الأُمم والملوك، ابن جرير الطبري.
٣٨. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.
٣٩. تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي.
٤٠. تهذيب الأُصول، آيةالله السبحاني.
٤١. تاريخ تمدّن اسلامى، جرجي زيدان.
٤٢. التنبيه بالمعلوم من البرهان، الشيخ حرّ العاملي.
٤٣. تفسير القرطبي، القرطبي.
٤٤. تذكرة خواصّ الأمة، ابن الجوزي.
٤٥. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي.
٤٦. التنقيح، الميرزا علي الغروي.
٤٧. تنزيه الأنبياء، السيد مرتضى.
٤٨. تجريدالاعتقاد، خواجه نصير الدين الطوسي.
٤٩. تاريخ الإمامية، دكتر عبد الله فياض.
٥٠. تاريخ ادبيات ايران، ادوارد براون.
٥١. تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي.
٥٢. تفسير العياشي، العياشي.
٥٣. جواهر التفسير، أحمد بن حمد الخليلي.
٥٤. جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي.
٥٥. جامع الأُصول، ابن الأثير الجزري.
٥٦. حق اليقين، السيد عبد الله شبّر.
٥٧. حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي.
٥٨. حلية الاولياء، أبو نعيم الاصفهاني.
٥٩. خصائص الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، النسائي.
٦٠. خطط الشام، محمد كردعلي.
٦١. خدمات متقابل اسلام وايران، الشهيد المطهري.
٦٢. خلاصة الكلام في امراء البلد الحرام، الشيخ أحمد بن زيني دحلان.
٦٣. الخصال، الشيخ الصدوق.
٦٤. الدرّ المنثور، جلال الدين السيوطي.
٦٥. ديوان الإمام الشافعي، الإمام الشافعي.
٦٦. دروس في علم الأُصول، اية الله السيد محمّدباقر الصدر.
٦٧. دائرة المعارف، فريد وجدي.
٦٨. دلائل الصدق، الشيخ محمّد حسن المظفّر.
٦٩. الذكرى، الشهيد الأوّل.
٧٠. الرياض النظرة، محب الدين الطبري.
٧١. الرجال، أبو عبد الله البرقي.
٧٢. الرجال، الشيخ الطوسي.
٧٣. الوسائل، السيد مرتضى.
٧٤. رجال الكشّي، الكشّي.
٧٥. رسالة في التقية، الشيخ الانصاري.
٧٦. الرسائل، الإمام الخميني رحمه الله
٧٧. الزينة، أبو حاتم الرازي.
٧٨. السنّة والشيعة، السيّد رشيد رضا.
٧٩. السيرة النبوية، ابن هشام.
٨٠. سنن أبي داوود، أبو داوود.
٨١. سنن ابن ماجة، ابن ماجة.
٨٢. سبع مسائل فقهية، الإمام شرف الدين.
٨٣. سيرى در سيره‌ى ائمه‌ى اطهار عليهم السلام، الشهيد مرتضى المطهري.
٨٤. الشيعة والتشيّع، محمّد جواد مغنية.
٨٥. شيعه در اسلام، العلّامة الطباطبائي.
٨٦. شرح العقائد النسفية، سعد الدين التفتازاني.

٨٧. شواهد التنزيل الحسكاني.
٨٨. شرح مختصر الروضة، الطوفي.
٨٩. شريعت در آينه معرفت، آية اللّه الجوادي.
٩٠. شرح المواقف، السيد شريف الجرجاني.
٩١. شرح الفقه الأكبر، ملاعلى القاري.
٩٢. شرح المقاصد، سعد الدين التفتازاني.
٩٣. الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، هاشم معروف الحسني.
٩٤. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد.
٩٥. الصواعق المحرقة، ابن حجر العسقلاني.
٩٦. صحيح البخاري، أبو عبد اللّه البخاري.
٩٧. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيشابوري.
٩٨. صيانةالقرآن من‌التحريف، محمد هادى معرفت.
٩٩. صحيح الترمذي، الترمذي.
١٠٠. صلح الحسن عليه السلام، الشيخ راضي‌آل‌ياسين.
١٠١. ضحي الإسلام، أحمد امين المصري.
١٠٢. ظهر الإسلام، أحمد امين.
١٠٣. عبقات الأنوار، مير حامد حسين الهندي.
١٠٤. علم الإمام، الشيخ محمد حسين المظفّر.
١٠٥. علل الشرائع، الشيخ الصدوق.
١٠٦. علي وبنوه، طه حسين.
١٠٧. غاية المرام، السيد هاشم البحراني.
١٠٨. الغيبة، الشيخ الطوسي.
١٠٩. الغيبة، النعماني.
١١٠. الغدير، العلّامة الاميني.
١١١. فرق الشيعة، النوبختي.
١١٢. فجر الإسلام، أحمد امين.
١١٣. فروع الكافي، ثقة الإسلام الكليني.
١١٤. الفصول العشرة في الغيبة، الشيخ المفيد.
١١٥. في ظلّ أصول الإسلام، آية اللّه السبحاني.
١١٦. الفصول المهمّة في تأليف الأُمة، الإمام شرف الدين.
١١٧. الفصول المهمّة في معرفة الأئمة، ابن الصبّاغ المالكي.
١١٨. الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي.
١١٩. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.
١٢٠. في علم الكلام، أحمد محمد صبحي.
١٢١. الفتوحات المكيّة، محي الدين العربي.
١٢٢. فرق ومذاهب كلامي، على الربّاني الگلپايگاني.
١٢٣. الفهرست، ابن النديم.
١٢٤. القاموس المحيط، فيروزآبادي.
١٢٥. قادتنا كيف نعرفهم، آية اللّه الميلاني.
١٢٦. القواعد الكلامية، على الربّاني الگلپايگاني.
١٢٧. قواعدالعقائد، الخواجه‌نصيرالدين الطوسي.
١٢٨. الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
١٢٩. كنز العمّال، المتقي الهندي.
١٣٠. الكشّاف، جار اللّه الزمخشري.
١٣١. كشف المراد، العلّامة الحلّي.
١٣٢. كفايةالطالب في مناقب علي ابن أبي طالب عليه السلام، گنجي الشافعي.
١٣٣. كمال‌الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق.
١٣٤. الكلام المقارن، على الربّاني الگلپايگاني.
١٣٥. كشف الارتياب، السيد محسن الامين.

۱۳٦. لسان العرب، ابن منظور المصری.
۱۳۷. المعیار والموازنة، أبو جعفر الاسکافی.
۱۳۸. المحاسن، البیهقی.
۱۳۹. مجمع البیان، امین الإسلام الطبرسی.
۱٤۰. المیزان فی تفسیر القرآن، العلّامة الطباطبائی.
۱٤۱. الملل والنحل، عبد الکریم الشهرستانی.
۱٤۲. المناقب، الخوارزمی.
۱٤۳. المناقب، ابن شهر آشوب.
۱٤٤. مقالات الإسلامین، أبو الحسن الاشعری.
۱٤٥. میزان الاعتدال، محمّد الذهبی.
۱٤٦. مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون.
۱٤۷. المغنی فی أبواب التوحید والعدل، قاضی عبد الجبار المعتزلی.
۱٤۸. معجم المقاییس فی اللّغة، ابن فارس.
۱٤۹. المصباح المنیر، احمد المقری الفیّومی.
۱٥۰. المعارف السلمانی، السید عبد الحسین اللاری.
۱٥۱. مختصر المعانی، الخطیب القزوینی.
۱٥۲. المنار فی تفسیرالقرآن، محمد رشید رضا.
۱٥۳. المهدی، السید صدر الدین الصدر.
۱٥٤. مجمع البحرین، الطریحی.
۱٥٥. منتخب الأثر، آیة اللّه الصافی الگلپایگانی.
۱٥٦. المفردات فی غریب القرآن، الراغب الاصفهانی.
۱٥۷. المصنّف، ابن شیبة.
۱٥۸. من لا یحضره الفقیه، الشیخ الصدوق.
۱٥۹. معانی الاخبار، الشیخ الصدوق.
۱٦۰. مفاتیح الغیب، فخر الدین الرازی.
۱٦۱. محاضرات فی الإلهیات، علی الربّانی الگلپایگانی.
۱٦۲. المسائل السرویة، الشیخ المفید.
۱٦۳. معجم البلدان، یاقوت الحموینی.
۱٦٤. المذاهب الإسلامیة، محمد أبو زهرة.
۱٦٥. المراجعات، الإمام شرف الدین عاملی.
۱٦٦. مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل.
۱٦۷. مسند الإمام الکاظم علیه السلام، الشیخ عزیز اللّه العطاردی.
۱٦۸. مروج الذهب، المسعودی.
۱٦۹. نشأة التشیع، أبو طالب الخرسان.
۱۷۰. نفحات الازهار، السید علی المیلانی.
۱۷۱. نشأةالتشیّع والشیعة، السیدمحمدباقر الصدر.
۱۷۲. نشأة الفکر الفلسفی، علی سامی النشار.
۱۷۳. النبراس، مولوی حافظ فرهادی.
۱۷٤. نظام حقوق زن در اسلام، مرتضی المطهری.
۱۷٥. نهج البلاغة، الإمام علی‌بن ابی‌طالب علیه السلام، جمعه: السید الرضی.
۱۷٦. نور الابصار، الشبلنجی الشافعی.
۱۷۷. النهایة، ابن الأثیر.
۱۷۸. نظریة الإمامة، أحمد محمود صبحی.
۱۷۹. نقض الوشیعة، السید محسن الامین.
۱۸۰. وسائل الشیعة، الشیخ الحرّ العاملی.
۱۸۱. وقعة صفّین، نصر بن مزاحم.
۱۸۲. ینابیع المودة، القندوزی الحنفی.
۱۸۳. الیواقیت والجواهر، عبد الوهاب الشعرانی.